من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الكتاب الثالث

إزالة العيان

على البرهان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرَ السُّهروردِيُّ في صَدرِ هٰذا الكتابِ أنَّهُ أدرَكَ في زمانِه أقواماً استَخَفُّوا بأمرِ النُّبوَّاتِ ، واستهانوا بشأنِ الغيبيَّاتِ من السَّمْعياتِ ؛ وقدْ عَلِقَتْ بأذهانِهم تُرَّهاتٌ تَلقَّفُوها مِنْ بعضِ كُتُبِ الكلامِ ، وأخذوها مِنْ ضِعافِ العلمِ .

فعَظُمَ على السُّهروردِيِّ أنْ يرىٰ هٰؤلاءِ يَعبَثونَ بالأصولِ والثوابتِ المُقرَّرةِ ، فراحَ يُدوِّنُ هٰذه البصائرَ النَّيِّرةَ ، ويُورِدُ الحُجَجَ الدامغةَ ، ويَدفَعُ الشُّبَهَ الفاترةَ ، في هٰذا السِّفرِ الجليلِ ، مازجاً ما يَكتُبُه بمَعانٍ صُوفيَّةٍ يَذكُرُها أثناءَ الردودِ ، ومسائلَ في التصوفِ يَستطرِدُ إليها عَرَضاً ؛ كفضلِ التصوفِ وأهلِهِ ، والخِرقةِ وأصلِ لُبسِها ، وسَنَدِهِ في لُبسِها ، ونحوِ ذٰلكَ .

مِنْ أهمِّ الأفكارِ التي أكَّدَ عليها السُّهروردِيُّ ـ وهي الأساسُ الذي يقومُ عليهِ الكتابُ ـ : أنَّ مَسلَكَ الأنبياءِ هو اليقينُ والإيمانُ ، وهٰذا ينتهي بهم إلى الكشفِ والعِيانِ ، وأمَّا البراهينُ المُستنِدةُ إلى الرياضياتِ والطبيعياتِ والتي يَزعُمُها الفلاسفةُ . . فإنَّها لا تُغني عنهم شيئاً ؛ إذ (البُرهانُ قليلُ الجدوىٰ ، والعِيانُ بعيدُ المَدىٰ) ، كما يقول السُّهروردِيُّ ، وهٰذا ما دعاهُ إلىٰ أن يُوازِنَ بين علومِ أهلِ العِيانِ ، وعلومِ أهلِ البرهانِ ، وليسَ أدلُّ على اهتمامِهِ بعَقدِ هٰذه الموازنةِ مِنْ فصلٍ تَرجَمَهُ بقولِهِ : (في بيانِ فضيلةِ العِلمِ المُقتبَسِ مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ مُستودَعِ الأسرارِ ، وفَضلِهِ على العِلمِ المقتضَبِ بدَنَسِ الأفكارِ) .

وقد وبَّخَ السُّهروردِيُّ في فصولِ الكتابِ الفلاسفةَ ومَنْ حذا حَذوَهُم ، وشدَّدَ

عليهِم في العبارةِ تشديداً لا يَخفىٰ على الناظرِ ، وكثيراً ما كانَ يَبدأُ رُدودَهُ عليهِم باستعمالِ الاستفهامِ الإنكاريِّ والاستفهامِ التعجُّبيِّ ، كما أنَّهُ أكثَرَ مِنَ ندائِهم قبلَ التبكيتِ بقولِه : (أيُّها الفلسفيُّ) ، و(أيُّها الحكيمُ) .

ومِن ميزاتِ الكتابِ : إيرادُهُ لكثيرٍ من المَروِيَّاتِ بإسنادِهِ عن مشايخِهِ ، وهو ما يُفيدُنا إفادةً كبيرةً في التعرُّفِ علىٰ شيوخِهِ في الروايةِ ، عِلاوةً على الذينَ ذَكَرْناهم في المَدخَلِ الذي في أوَّلِ المجموعِ .

وصف النسخة المعتمدة في التحقيق

اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ على النُّسخةِ المحفوظةِ بالمكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، رقم المجموعة : (حميديَّة ٠١٢ ـ ٠١٤٤٧) ، الأوراق من (١٣٤ ـ ١٥٣) ، تحت عنوان : رسالةُ : « إدالةِ العِيانِ على البُرهانِ » ، مِن مُصنَّفاتِ الشَّيخِ العارِفِ شيخِ شُيوخِ الإسلامِ شِهابِ الدِّينِ أبي جعفرٍ عمرَ السُّهرَوَرْدِيِّ .

وهٰذا الكتابُ يَتَناسَبُ تماماً في موضوعِه وطَرحِهِ مع كتابِهِ « كشفُ الفضائحِ اليونانيَّة ، ورَشْفُ النَّصائحِ الإيمانيَّةِ » ، وممَّا يؤكِّدُ ذٰلك : أنَّ الشَّيخَ السُّهرَوَرْدِيَّ قدْ أشار في أحدِ فصولِ هٰذا الكتابِ[1] إلىٰ كتابِهِ : « رَشْفُ النَّصائح الإيمانيَّة » بقولِهِ : (وشرحُ أَجرامِ الكواكبِ ذكَرناه في كتابِ : « رشفُ النَّصائحِ » ، مُستخرَجاً مِنْ بعضِ المداخلِ النُّجوميَّةِ ، فمَن أراد ذٰلك . . فليُطالِعه . . .)[2] ، وهٰذا نصٌّ مِنَ المُصنِّفِ يَجعلُنا نَقطَعُ بصِحَّةِ نسبةِ الكتابِ إليهِ .

---

(١) انظر فصل : (ألَم يَتفكَّرِ الفيلَسوفُ في عِلمِه الَّذي انقَطَعَ مَدَدُه . . .) من هٰذا الكتاب .

(٢) ولمن شاء مطالعتَه . . فليَنظُره بتحقيقي في طبعتِه الأولىٰ (١٩٩٩ م) ، دار السَّلام بالقاهرة ، وقد طُبِعَ الكتابُ تحت ظُروفٍ استثنائيَّةٍ قَعَدَت به عن صورتِه اللَّائقةِ ، واللهَ أسألُ أن يُهيِّئَ الأسبابَ ويَرفَعَ الموانِعَ لإعادةِ النَّظرِ فيه وبَعثِه مِن جديدٍ علىٰ نحوٍ يليقُ به في استكمالٍ منِّي إلىٰ ما صبوتُ إليه مِنَ العكوفِ علىٰ إخراجِ تُراثِ أبي حفصٍ السُّهرَوَردِيِّ رحمه الله .

نماذج من صور المخطوط

نسخة المكتبة السليمانية تركيا

نسخة المكتبة السليمانية تركيا

إِدَالَةُ العِيَانِ عَلَى البُرْهَانِ

---

(١) الإدالةُ : الغَلَبَةُ . يُنظر : « الصِّحاح » ، مادَّة (د و ل) ، وهو هنا يعني : غَلبةَ العِيانِ والبصيرةِ على البُرهانِ والدَّليلِ .

مقدّمة

الحمدُ للهِ الَّذي بعَثَ رسولَهُ محمَّداً صلَّى اللهُ عليه لإعلاءِ كلِمتِهِ ، وأنارَ قلوبَ أهلِ الملَّةِ بآثارِ أنوارِ دَعوتِهِ ، وأقامَ عِوجَ النُّفوسِ بهَدْيِهِ الرَّشيدِ وشَريعتِهِ ، وتمَّمَ مَكارِمَ الأَخلاقِ في أُمَّتِهِ ، مُقتَبِسينَ مِن خُلُقِهِ الكريمِ وسَجِيَّتِهِ ، وكمَّلَ فرائضَهُ بسَنِيَّةٍ وسُنِّيَّةٍ عَليَّةٍ مِنْ سُنَّتِهِ ، باهَىٰ يومَ العَرضِ بالأَتقياءِ النُّجَباءِ مِن أَهلِ مِلَّتِهِ ، واستَنبَطَ جَواهِرَ غرائبِ العلومِ والأَسرارِ مِنْ مَعادنِ العلومِ الأَزليَّةِ بخُضوعِهِ وضَراعتِهِ ، واستَفرَشَ بِساطَ السَّبْعِ الطِّباقِ ليلةَ عُروجِهِ بعُلوِّ هِمَّتِهِ ، وأَطفأَ شُوَاظَ الجَحيمِ بِبَرْدِ النَّسيمِ مِنْ شَفاعتِهِ ، ونالَ قَصَبَ السَّبْقِ في مَيدانِ العَرضِ والنُّشورِ معَ المُرسَلِينَ مِن إخوتِهِ ، وزهِدَ في مَفاتيحِ كُنوزِ الأَرضِ استغناءً بربِّهِ وتنزُّهاً مِنْ أنْ تكونَ مِنْ عُدَّتِهِ ، مُتعوِّضاً مِنها عنِ اللهِ بِمَزايا عَطِيَّتِهِ .

سُيِّرَتْ سِدرةُ المُنتَهىٰ وقابَ قَوسَينِ مَواطِنَ سَناً مِنْ سَريرتِهِ ، فأَوحىٰ إلىٰ عبدِهِ ما أَوحَىٰ مِن كُنوزِ الأَسرارِ ، وسلَّمَ إليهِ أَعلامَ البشائرِ والإنذارِ ، وأباحَهُ سُدَّةَ الاقتدارِ ، وحَكَّمَهُ في الدِّماءِ والأَبشارِ ، وارتَوىٰ بهِ مِنَ العلمِ رِيّاً رشَحَ مِنهُ الخَلائقُ ، واتَّضَحَ بهِ الطَّرائقُ ، وتَثقَّفَ بهِ الخلائقُ ، وجَمَعَ لهُ المُبصراتِ فيما عُلِمَ ، وقالَ : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ ٱلْكَلِمِ »[1] ، فرَكَضَ في فَسيحِ مَيدانِ العِلمِ حتَّى انتهَىٰ إلىٰ غَاياتِهِ ، واستَفرَشَ بِساطَ عالَمِ الغَيبِ حتَّى اطَّلَعَ علىٰ آياتِهِ ، وأَراهُ اللهُ تعالىٰ عَرْصةَ المُلكِ والملَكوتِ ، وأَدناهُ مِنْ أَعتابِ سُرادِقاتِ الجبروتِ ، واطَّلَعَ على الجنَّةِ والنَّارِ ، فَأدرَكَهُما كَشْفاً وعِياناً ، وأَخبرَهُ بالبَعثِ والنُّشورِ ، وحَشرِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠١٣) ومسلم (٥٢٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ووقع في الأصل : (بجوامع) بدل (جوامع) .

الأجسادِ مِنَ القُبورِ ، فأخبَرَ بذٰلكَ إيقاناً ، فاقترَنَ إيمانُهُ ببُرهانِهِ ، وبُرهانُهُ بإيمانِهِ ، لا كَمَنِ احتَجَبَ إيمانُهُ ببُرهانِهِ ، وصارَ بُرهانُهُ سَبَبَ خُسرانِهِ ، فحُجِبَ بالبُرهانِ عنِ الإيمانِ بالغَيبِ ، وغاصَ في بِحارِ الشَّكِّ والرَّيبِ .

وحيثُ أدرَكنا زَماناً ضلَّ فيهِ خَلقٌ كثيرٌ ، ودنَوا مِنَ الضَّلالِ بعُقولٍ ذاتِ[1] اختلالٍ ، مُفترِينَ بأباطيلَ ومحَالٍ ، مِن مُجلَّداتٍ مَحشُوَّةٍ بكَثرةِ الكَلامِ وقِلَّةِ العلمِ ، يَضِلُّ في مَهامِهِهِ خِرِّيتُ الفَهمِ[2] ، يحسبُهُ الظمآنُ ماءً ، حتَّىٰ إذا جاءَهُ لمْ يجدْهُ شيئاً ووجدَ اللهَ عندَهُ في يومِ العَرضِ والنُّشورِ ، وعاقبَهُ علىٰ تَرويجِ الزُّورِ ، وجَلبِ الغُرورِ ، بما سَكَنَ إليهِ مِنَ ادِّعاءِ البُرهانِ ، وزَعمَهُ أنَّهُ كافِلٌ بالبيانِ والتِّبيانِ .

وما لا يَدخُلُ في البُرهانِ عندَهم فُشارٌ[3] وهَذَيانٌ ، وهٰذا غايةٌ في الضَّلالِ ، ونهايةٌ في الوَبالِ ، وربَّما إذا سَمِعوا أنباءَ الغيبِ ؛ مِن ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والميزانِ ، والحوضِ والشَّفاعةِ . . استَهجَنوا ذٰلكَ واستَهانوا بهِ .

فعَظُمَ عندي تَعظِيماً كدَّرَ عليَّ ما كنتُ آنَسُ إليهِ مِنَ العبادةِ ، وجمعِ الهمِّ عندَ التِّلاوةِ ، ورأيتُ أنَّ أهَمَّ المُهمِّ الذَّبُّ عنِ الإسلامِ وحَريمِ النُّبُوَّاتِ ، الَّتي شَهِدَ لها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وسلَّمَ ، الجامعُ لمتفرِّقاتِ ما أُتُوا وشَهِدُوا لهُ ، فصارَ المرسَلونَ جميعاً والأنبياءُ والصِّدِّيقونَ وسائرُ المؤمنينَ كجَسَدٍ واحدٍ ، مُبرِّزِينَ إلىٰ هٰؤلاءِ الضَّالِّينَ الكَفرةِ ، الجانحِينَ إلى البُرهانِ ، المحجوبِينَ عنِ الإيمانِ بالغَيبِ ، والإدراكِ عنِ العِيانِ .

وسأوضِّحُ - إن شاءَ اللهُ تعالىٰ - وَهْنَ أساسِهِم في فُصولِ هٰذا الكتابِ المُترجَمِ بـ : « إدالةُ العِيانِ على البُرهانِ » ، واللهُ المُوفِّقُ والمُعينُ .

---

(١) بعده في الأصل : (ذوي) .

(٢) الخرِّيت : الدَّليلُ الحاذقُ والماهرُ ، والجمعُ : خَراريت . « تاج العروس » (خ ر ت) .

(٣) الفُشَارُ كغُرابٍ : الَّذي تَستَعمِله العامَّةُ بمعنَى الهَذَيانِ . « تاج العروس » (ف ش ر) .

فصل

[في بيانِ شرطِ الاستفادة من هٰذهِ الفصولِ]

اعلمْ ـ أيَّدَك الله ـ : أنَّكَ لا تَستَبِينُ فوائدَ ما تَضمَّنتْهُ هٰذه الفُصولُ إلَّا بعدَ دَاعيةِ إيمانٍ ناهَزَ الإيقانَ ؛ وهي السَّكِينةُ الَّتي تَبطَّنَتْ سُويداءَ القلبِ وأعماقَ الجَوانحِ ، وتزيَّنت بأنوارِها الأَعضاءُ والجوارِحُ ؛ بما استنارَتْ بمُتابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : أَقوالاً وأَفعالاً وأَحوالاً ، فيُوضَحُ بُطلانُ أَنحاءِ الفلاسفةِ كالشَّمسِ الضَّاحِيةِ ، ولا يُزعزِعُك حينئذٍ ممَّا يَطرُقُ سَمعَكَ مِن زَخاريفِهِم وأَباطيلِهِم المُستمَدَّةِ مِن بِحارِ قهرِ الأَزليِّ ، المؤدِّيةِ إلى العَذابِ المُقيمِ الإلٰهيِّ .

وأيضاً لا تُدرِكُ عُورَ[1] المُودَعِ في هٰذا الكتابِ إلَّا بعدَ أن يَنغسِلَ لَوحُ ذهنِكَ مِن مَقالاتِ الفَلاسفةِ والدَّهريِّينَ بمَحبَّةٍ تَتعطَّرُ بها عوالمُ الأَرواحِ ، ويَبقَىٰ ذِهنُكَ مُنوَّراً بأَمدادِ أَنوارٍ مُتلاحِقةٍ عن مِشكَاةِ النُّبوَّةِ المُستمَدَّةِ بحُسنِ المُتابعةِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾[2]

فإذا سلكتَ جادَّةَ المُتابعةِ الَّتي تُسلَكُ بالتَّأديبِ الإلٰهيِّ والتَّعليمِ الرَّبَّانيِّ المُستَفادِ مِنَ التَّقوىٰ . . تَتوشَّحُ رُوحُكَ بلِباسِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ ، فتَأخُذُ يَدُ العِنايةِ الأَزليَّةِ بأَزِمَّةِ مَجامعِ قَلبِكَ ، وتُرَقِّي رُوحَكَ مِنْ مَهواةِ البشريَّةِ ، وتَغسِلُ درَنَ خِلعتِكَ عن مُحيَّا فِطرتِكَ ، وتَنزِلُ بكَ في سُطوحِ عالَمِ الشَّهادةِ[3] الَّتي هي عالَمُ الغَيبِ ، ويكونُ السماعُ في تلكَ الأَرضِ مِنْ عرشِ الرَّحمٰنِ بروحٍ جُرِّدَ من كسوةِ الخَلِقةِ ، وقُمِّصَ بلباسٍ نُورانيٍّ مِنَ الفِطرةِ ، فترىٰ عالَماً محشوّاً بالملائكةِ ،

---

(١) المقصودُ بالعورِ هنا : الدِّقةُ والغموضُ المُحتاجانِ إلى الغَوصِ ، قال في « تاج العروس » : (وفي حديثِ عُمر ـ وذكر امرأ القَيس ـ فقال : افتقرَ عن مَعانٍ عُور : أراد به المعاني الغامضة الدَّقيقة) . انظر « تاج العروس » (ع و ر) .

(٢) سورة آل عمران : (٣١) .

(٣) في الأصلِ : (شهادة) .

مُشتمِلاً على الجَنَّةِ والنَّارِ ؛ جنَّةٍ عَرضُها السَّماواتُ والأرضُ ، وجَحيمٍ مَسكنُهُ الطَّبقةُ السَّابعةُ مِنَ الأَرضِ ، ويَبقَىٰ بينَكَ وبينَ الأَرضِ الكُرَيَّةِ الَّتي أَحاطَت بها الأَفلاكُ مسافةٌ أَبعَدُ ممَّا بينَ السَّماءِ والأَرضِ المُدرَكةِ بالعَقلِ الخَلْقيّ ، في يومِ ﴿ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] ، ويَحصُلُ الحكيمُ الفَلسفِيُّ في مَهلَكةِ الجَهالةِ في عالمٍ ما سَلَكَهُ وما عَرَفَه ، مُتحيِّراً في بعضِ طبقاتِ الأَرضِ ، مُحتبِساً ، لا بُرورَ[2] منها ، مكوَّناً في عالمِ قهرِ ما سَلكَهُ ولا فهِمَهُ ، في غايةِ جَهالةِ البُرهانِ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾[3] ؛ وذلك في البَرزخِ للحَكيمِ الفَلسَفيّ ، وبعدَ البَرزخِ : ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾[4] ، فيَستَبينُ لهُ إِدالةُ العِيانِ على البرهانِ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ البُرهانَ بُرهانانِ :

بُرهانٌ مِنَ العَقلِ الغَريزيّ : الَّذي قضَىٰ بهِ الرُّوحُ الأعظَمُ الدَّالُّ علىٰ إِثباتِ العلومِ الأُخرَويَّةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والميزانِ ، الَّتي شَهِدَ بها الكُتبُ المُنزَلةُ والمُرسَلونَ بأَسرِهم ، وقلوبُ الشُّهداءِ والصِّدِّيقينَ ، وسائرُ المُؤمنين .

وبُرهانٌ يَقتَضيهِ العَقلُ الخَلْقِيُّ : القَاضِي بصِحَّةِ عالَمِ الأَجرامِ الفَلَكيَّةِ[5] وأَعلامِ الهيئةِ والأَركَانِ والأُستُقُصَّاتِ والعَناصرِ[6] ، ولا يزالُ يَسلُكُ بسائرِ البَسائطِ

---

(١) سورة إبراهيم : (٤٨) .

(٢) البُرور : مِن جُموعِ البَرّ ، يُستَعمَلُ علىٰ قِلَّةٍ ، وهو اليابسةُ ، والمعنىٰ : لا يَرسو قاربُه علىٰ شاطئ النَّجاةِ وبَرِّ الأمانِ ، أو لعلها : (لا بروز منها) بمعنىٰ : لا مفر .

(٣) سورة التكاثر : (٥ ـ ٦) .

(٤) سورة التكاثر : (٧) .

(٥) في الأصل : (الفلكيَّةِ أجرام) ، ولمعرفةِ هٰذه الأجرام يُنظر : « سُرورُ النَّفس » للتيفاشي (ص ١٦٧) ، و« نَثرُ الأزهار » لابنِ منظور : (ص ١٤٣) وما بعدها .

(٦) هِيَ العناصر الأَربَع : التُّراب ، والماء ، والهواء ، والنَّار . انظر « الإشارات في علم العبارات » لابن شاهين الظاهري (ص ٨٦١) .

مُستَفرِشاً عالَمَ الأجرامِ إلىٰ أن ينتَهيَ إلىٰ أوَّلها ويقضيَ بأنَّه العِلَّةُ الأُولىٰ .

وهٰذا البُرهانُ أعمَىٰ عن وُجودِ واجبِ الوُجودِ المُوجِدِ لكلِّ مَوجُودٍ ، وليسَ كما زعَمَ الفَلسَفِيُّ ؛ لأنَّهُ لا يُوجَدُ مِنَ الواحدِ إلَّا واحدٌ[1] ؛ بلِ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ هو مُوجِدٌ لموجوداتٍ غيرِ مُتناهيةٍ ، أوجَدَها[2] بمَشِيئاتٍ مُتعدِّدةٍ ، مُستَنِدَةٍ إلى الإرادةِ المتَّحِدَةِ .

والبُرهانُ الَّذي هو قَضِيَّةُ العقلِ الغَريزيِّ : به يستَنطَقُ علماءُ الأصولِ المُستَنِدةِ إلى الكتبِ المُنزَلةِ على الفلاسفةِ بالإدالةِ على البُرهانِ الخَلقيِّ ، لا على البُرهانِ الغَريزيِّ الَّذي هو للأنبياءِ ، وهو العِيانُ المُدرَكُ بعلمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ اللَّذينِ شَهِدَ لهما القرآنُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[3] .

وقولُ القائلينَ بالإيجابِ والإمكانِ نُقِضَ بعضُ القولِ بالبَعضِ ؛ لأنَّ الإيجابَ استَقرَّ بالإمكانِ ، فكأنَّهم سلبُوا استِحقاقَ الإيجابيَّةِ بتَوقُّفِهِ على الإمكانِ ، فكلامُهُم هائلٌ ، ليسَ تحتَهُ طائلٌ ، ولا وجودَ لحقيقةِ[4] الإيجابيَّةِ والإمكانيَّةِ ؛ إذْ كُلُّ مُوجِبٍ مُوجِدٌ ، وكُلُّ مُمكِنٍ باللهِ مُمكِنٌ ، فإذاً مَعدومُ كُلِّ مُوجَبٍ ومُمكِنٌ في ذاتِه إلَّا بما أوجبَهُ الحقُّ ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[5]

---

(١) في الأصلِ : (واحداً) .

(٢) في الأصلِ : (وجَدَها) .

(٣) سورة التكاثر : (٥ ـ ٧) .

(٤) في الأصلِ : (حقيقة) .

(٥) سورة القصص : (٨٨) .

فصل

[في بيانِ طريقِ علمِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم]

اعلمْ : أنَّ الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهِم امتَاحوا[1] مِنْ بحرِ الجُودِ الأزليِّ مَواهِبَ انصبَّتْ عليهِم مِنْ غيرِ كَسْبٍ واجتِهادٍ وإعمالِ فكرٍ واشتغالِ جُهدٍ ؛ لِما وَهَبَ لهم واهِبُ الوُجودِ باستِعداداتٍ صَلُحَتْ أَوعِيةً لتلكَ المَواهبِ ، ففَتَحوا علىٰ قلوبِهِم أبوابَ الغَيبِ ، فأدرَكوا ببصائرِهِم مَنازِلَ الآخرةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والبَعثِ والنُّشورِ ، ودارَي النَّعيمِ والعَذابِ المُقيمِ ، فانْزَوَتْ عُروقُ نُفوسِهِمُ المُتأصِّلةُ في العالَمِ السُّفليِّ ، وجَذَبتهُمُ العِنايةُ الأزليَّةُ إلى العالَمِ العُلويِّ ، وفتحَ عليهم أبوابَ التَّمتُّعِ بلَذائذِ الأكسابِ القَلبيَّةِ والقَالَبيَّةِ ، وأنالَهمُ الأرباحَ القَلبيَّةَ والرُّوحيَّةَ ، فأحياهُم حياةً طيِّبةً ، يُغذِّيهِم بلَذائذِ المُسامَرةِ والمُناجاةِ ، ويُرَقِّيهِم بنُمُوِّ العلمِ فيهم أعاليَ الدَّرَجاتِ ، الوُفودُ[2] الغَيبيَّةُ واردَةٌ عليهم ، والعهودُ الأوَّليَّةُ وافِيةٌ لهم ، وخَوارِقُ العاداتِ مِن كَشفِ القَدَرِ قارِعةٌ أبوابَ قلوبِهِم .

رَوىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ، قالَ : سَمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو يُحدِّثُ عن فَترةِ الوَحيِ ، فقالَ في حَديثِهِ : « فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي . . إِذْ سَمِعْتُ صَوتاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا ٱلْمَلَكُ ٱلَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً[3] ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي ، فَأَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ »[4] .

---

(١) أي : استقوا . انظر « لسان العرب » (٦٠٩/٢) .

(٢) في الأصل : (الوقود) .

(٣) فجئثت : رعبت وخفت منه .

(٤) أخرجه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦١) ، والآيات من سورة المدثر : (١ ـ ٥) .

ورُوي أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ذهَبَ مِراراً كي يُردِّي نَفْسَهُ مِن شَواهقِ الجبلِ ؛ وذٰلكَ عندَ اصطِكاكِ أجرامِ عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ بفُتورٍ مُولِّدٍ منها ؛ فكلَّما وافَىٰ ذُروةَ جَبلٍ كي يُلقِيَ نفسَهُ مِنهُ . . يَتبَدَّىٰ لهُ جبريلُ قائلاً : يا محمَّدُ ؛ إنَّكَ رَسولُ اللهِ حقّاً ، فيَسكُنُ لذٰلكَ جَأْشُهُ ، فإذا طالَتْ عليهِ فَترَةُ الوَحيِ . . عادَ لمثلِ ذٰلكَ ، فيَتبدَّىٰ جبريلُ قائلاً لهُ مثلَ ذٰلكَ[1] .

فما زالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُتردِّداً بينَ عالَمَيِ الحِكمةِ والقُدرةِ ، والغَيبِ والشَّهادةِ ، حتَّىٰ توفَّرَتْ أقسامُهُ مِنْ عالَمِ الغيبِ ، وتَضاءَلَت أقسامُهُ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ ، وصارَتْ بتسعةِ أعشارِهِ عندَ اللهِ ، وبعُشْرٍ مِنهُ[2] يُقيمُ رسومَ الدَّعوةِ ، حتَّى استقرَّ الدِّينُ قَرارَهُ ، واستَتمَّ النَّقدُ عِيارَهُ ، فأوحَى اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3] ؛ لِما رُوِّينا عن عبدِ اللهِ الأنصاريِّ ، قالَ : أخبرَنا محمَّدُ بنُ أحمدَ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ ، قالَ : أخبرَنا إبراهيمُ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ بنُ حُمَيدٍ ، قالَ : أخبرَنا سُويدُ بنُ هارونَ ، قالَ : أخبرَنا حمَّادُ بنُ سَلَمةَ ، عن عمَّارِ بنِ أبي عمَّارٍ ، قالَ : قرأَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . ﴾ الآيةَ[4] ، وعندَهُ يهوديٌّ ، فقالَ : لو نزلَتْ هٰذه الآيةُ علينا . . لاتَّخذنا يومَها عيداً ، فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : فإنَّها نزلَتْ في يومِ عيدَيْنِ : يومِ جُمُعةٍ ، ويومِ عَرَفةَ[5]

هٰكذا كانَتْ مِنْ مَواهبِ اللهِ في حقِّ رُسُلِهِ .

---

(١) هٰذا الموضعُ الَّذي ذكره المؤلِّف أخرجه البخاريُّ عقِبَ حديثِ (٦٩٨٢) مِن بلاغاتِ الزُّهْرِي .

(٢) هنا تنتهي الورقة (١٣٤) ، وتبدأ الورقة (١٣٨) .

(٣) سورة المائدة : (٣) .

(٤) سورة المائدة : (٣) .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٠٤٤) عن عبدِ بن حُميد بالسند المذكور .

وأخرَجه البخاريُّ (٤٥) ومسلم (٣٠١٧) مِن حديثِ سيدنا عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه .

لمْ تكنِ النُّبُوَّاتُ سَهلةَ الطَّرائقِ فتَقتَنِيَها الأَكسابُ ، وتَعتَنِيَها ذَوُو الأَحسابِ والأَنسابِ ، وتَستلِينَ أَوعارَها خُطَا الِاجتهادِ ، ويُلبِّيَ دَعوتَها نِداءُ الِاستِنجادِ ؛ بلْ تَهجُمُ علىٰ قلوبِ الرُّسُلِ هُجومَ الطَّالِبِ الحَثيثِ ، وتُميِّزُ مِن دَاعي العَقلِ والهَوَى الطيِّبَ مِنَ الخبيثِ .

في السِّفْرِ الخامسِ مِنَ التَّوراةِ[1] كلِماتٌ فُسِّرت بالعربيَّةِ[2] : (جاءَ اللهُ مِنْ سَيْناءَ ، وأَشرَقتْ بساعِيرَ ، واستَعلَنَ مِنْ جبالِ فَارَانَ) .

لمَّا كانَتِ الكتُبُ المُنزَلةُ تَراجِمَ غَيبتِهِ ، لا تحُلُّها إلَّا أَيدِي الفُهومِ النَّبويَّةِ . . جعَلَ نزولَها مجيءَ اللهِ ؛ يُريدُ : نزولَ التَّوراةِ علىٰ موسىٰ ، ونزولَ الإنجيلِ علىٰ عيسىٰ بسَاعِيرَ ؛ وهي بأَرضِ الخليلِ إبراهيمَ[3] ، ونزولَ القرآنِ علىٰ محمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وجبالُ فاران : جبالُ مكَّةَ ، وهي الَّتي مُدَّتْ في غِراسِها أَطنابُ خِيامِ الوَحيِ المُنزَلِ ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[4] .

رَبَتْ عَرْصةُ قَلبِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم علىٰ عَرْصةِ جبالِ فارَانَ ، وضَاقَتْ مِن أَن يَسَعَها جُيوشُ الوَحيِ المُنزَلِ ، ولٰكنَّ عَرْصةَ قلبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اتَّسعَتْ حتَّىٰ أُدرِجَتْ فيهِ سبعةُ أَطباقِ السَّماواتِ ؛ فكلُّ سَماءٍ إلىٰ سَماءٍ كحَلْقةٍ بأَرضٍ فَلاةٍ ، والسَّماواتُ السَّبعُ في عَرْصةِ فِطرةِ محمَّدٍ

---

(١) ينظر « سفر التثنية » الإصحاح (٣٣) (٣) .

(٢) انظر في ذٰلك : « الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل » ، لابن حزم (١٠٩/١) ، و« الملل والنِّحَل » للشَّهرستاني (١٨/٢) ، و« معجم البلدان » لياقوت الحموي (٢٢٥/٤) ، و« رُوح المعاني » للآلوسي (١٢٣/١) و(٦٩/٤) .

(٣) في الأصلِ : (بسارعير) ، وساعير : هي بلدةٌ في الجهةِ المُحتلَّةِ مِن فِلسطينَ ، تقعُ في جنوبِ الضِّفةِ الغربيَّةِ إلى الشَّمالِ مِن مدينةِ الخَليل ، وهي تابعةٌ لمُحافظةِ الخليلِ ، وتبعُدُ عنها (٨) كم ، وذكرها ياقوت في مادة (صيعير) من « معجم البلدان » (٤٣٨/٣) ، وانظر « بلادُنا فلسطين » لمصطفى الدَّبَّاغ ، بيروت (١٩٧٢ م) .

(٤) سورة الشعراء : (١٩٣ ـ ١٩٥) .

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كحَلْقةٍ بأَرضٍ فَلاةٍ ؛ وهي العَرْصةُ الَّتي وقَف دونَها جِبريلُ ، وقالَ : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (١) .

والإشارةُ إلىٰ سَعةِ عَرْصةِ قَلبِ محمَّدٍ صلواتُ اللهِ عليهِ ليسَ هو مِنْ أَنباءِ عالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ فيَتقيَّدَ بالأَقطارِ والجِهَاتِ ؛ إنَّما هو مِن أَنباءِ عالَمِ الغَيبِ ، فبَرَزَتْ عَرائسُ آثارِ الجَلالِ تَمِيسُ (٢) في حُلَلِ الكَمالِ ، فخَيَّمت في رَحَائبِ قلوبِ المُرسَلين .

وقدْ وَرَدَ في بعضِ الكتُبِ المُنزَلةِ : « كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً لا أُعْرَفُ ، فَخَلَقْتُ ٱلْخَلْقَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ » (٣) ، فتَعرَّفَ إلى الأَرواحِ القُدُسيَّةِ بوَصفِ جمالِهِ ولُطفِهِ ، وتَعرَّفَ إلىٰ إبليسَ (٤) بوَصفِ جَلالِهِ وقَهرِهِ ، وأبانَ للنَّفسِ (٥) الكُلَّ : مِنَ الرُّوحِ الأَعظمِ (٦) أَلهَمَ تَقواها ، وبالطَّرَفِ الَّذي يَلي إبليسَ أَلهَمَ فُجورَها .

وها هنا مُلتبَسُ نظَرِ الفلاسفَةِ حيثُ أَخطأَ النَّظرَ ، وقالوا : لها طَرَفٌ إلى الإمكانِ وطَرَفٌ إلى الإيجابِ ، وجَهِلوا سَببَ الفُرقانِ ، فما زالتِ النَّفسُ رَاكِبةً إلىٰ إبليسَ بِطَرَفِها الَّذي يليهِ ، مُستمِدَّةً منهُ الفُجورَ ، سالكةً فِجاجَ القَهرِ إلىٰ منازلِهِ ، وبِطَرَفِها الَّذي يلي الرُّوحَ الأَعظمَ تسلُكُ مَهْيَعَ (٧) اللُّطفِ إلىٰ أن تَصِلَ إلىٰ منازلِهِ ، فبالطَّرَفِ الَّذي يُستمَدُّ منهُ الفُجورُ اقتَبَسَتْ علوماً بُرهانيَّةً ، وآلَتُها : الرِّياضِيَّاتُ والطَّبيعيَّاتُ ، وبالطَّرَفِ الَّذي يلي الرُّوحَ الأعظمَ اقتَبسَت

---

(١) أورده الخَركوشي في : « شَرَفِ المُصطفىٰ » (١٥٨/٤) بنحوه ، والآية من سورة الصافات : (١٦٤) .

(٢) الميس : هو : ضربٌ من المشي في تَبختُرٍ وتَهادٍ . انظر « العين » (٣٢٣/٧) .

(٣) قال الزركشي في « اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة » (ص ١٣٦) (قال بعض الحُفَّاظ : ليس هذا من كلام النبي ، ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف) .

(٤) في الأصلِ : (الإبليس) .

(٥) في الأصلِ : (النَّفس) .

(٦) هو الرُّوح الإنسانيُّ مُظهِرُ الذَّاتِ الإلٰهيَّةِ مِن حيثُ ربوبيَّتُها . انظر « التَّعريفات » للشَّريف الجُرجاني (ص ١١٢) .

(٧) المهيع : الطريقُ الواضحُ البيِّن . « الألفاظ » لابن التِّكِّيت (ص ٣٤٢) .

علوماً عِيانيَّةً مِنَ الأَنباءِ الغَيبيَّةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والبعثِ والنُّشورِ ، والصِّراطِ والمِيزانِ .

ويدُ القُدرةِ الإلٰهيَّةِ والإرادةِ الرَّبَّانيَّةِ فتَحَتْ أَوعيةَ ودَائعِ التَّعريفِ ، واختارَتْ لخَزنِ العِلمِ وعاءَ قَلبِ آدمَ ، فعُلِّمَ آدَمُ الأَسماءَ كُلَّها ، وأُلبِسَ خِلْعةَ الخِلافةِ ، فخِلعةُ الخِلافةِ واجتماعُ العلومِ في آدمَ توءمانِ يَجرِيانِ في أَطوارِ الكَونِ كفَرسَيْ رِهانٍ .

وتَوَقَّلَ[1] الفَلاسفةُ ذُرَى الإباءِ والإستِعصاءِ عنِ الإنعِقادِ[2] ، واستَعلى الأَنبياءُ مَعاصِمَ الشَّرَفِ مِن تَوطُّنِ فَسِيحِ العِيانِ ، وخَزَنوا الكَلِمةَ العُليا مِنَ العِيانِ بِواضحِ البَيانِ ، والفلاسفةُ في يَهْمُوتِ[3] الكَلمةِ السُّفلىٰ مُذبذَبونَ في أَوديةِ البُرهانِ ، فاتَّضحَ إدالةُ العِيانِ على البُرهانِ .

---

(١) التوقل : شدة القرب والمُداناة . انظر « الدلائل في غريب الحديث » للسرقسطي (١/١٤٤) .

(٢) في الأصل : (الانعقاد المرسلين) .

(٣) اليَهْمُوت : اسمٌ للحُوت الذي عليه الأَرضُ . انظر « الكُلِّيَّات » (٩١٥) ، و« تاج العروس » (٥/١٥١) .

فصل

مشتمل على سرّ خلافة الله آدم وشرفها

مِنْ قُدرةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وبدائعِهِ ما هو في كَوامِنِ الغَيبِ لَمْ يُبرَزْ إلىٰ أحدٍ مِن خَلقِهِ ، حتَّى الأَنبياءِ ، ومنها ما أبرَزَهُ إليهم .

فمِمَّا أبرَزَهُ مِن أستارِ الغيبِ إلىٰ فَسيحِ صحراءِ الظُّهورِ : ما دلَّ علىٰ أنَّ مِنْ أشرَفِ خَلقِهِ جِنسَ البَشَرِ ، وآيةُ ذٰلكَ : أنَّ اللهَ تعالى اختارَهُم لخِلافتِه عزَّ وجلَّ ، فإنْ خالَجَ سِرَّ أحدٍ مِن أهلِ العلمِ شَرَفُ المَلائكةِ علىٰ جِنسِ البَشَرِ . . تزيلُ عن وَهْمِهِ ذٰلكَ بتَخصِيصِ اللهِ إيَّاهُم للخِلافةِ دُونَهُم .

وقدْ وَرَدَ[1] أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ جَوهرةً[2] فنَظَرَ إليها فصارَتْ ماءً ، وصَعِدَ مِنَ الماءِ بُخارٌ ، فكُوِّنَ مِن ذٰلكَ البُخارِ السَّماءُ ، وظَهَرَ علىٰ وجهِ الماءِ زُبدةٌ بيضاءُ ثمَّ جَمُدَتْ وتَصَلَّبَتْ ، ودُحِيَتِ الأَرضُ مِن تَحتِها ، فبُسِطَتِ الأرضُ على الماءِ مُستودَعةً شَرَفَ مَواقعِ نَظرِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ مَوضِعُ الكَعبةِ أوَّلَ المبدوءِ بهِ عندَ تكوينِ الأَرضِ ، فصارَتِ الأَرضُ جُملَتُها مُستَودَعَ سرِّ شَرَفِ مَواقعِ نَظَرِ اللهِ تعالىٰ[3] .

فلمَّا أرادَ اللهُ تعالىٰ خلقَ آدمَ أبي البَشرِ . . بعَثَ جبريلَ ، وقالَ : خذْ قَبضَةً مِنْ أَسْوَدِها وأَبيضِها وأَحمرِها ، فاستعاذَتِ الأَرضُ ، وهٰكذا ميكائيلُ ، فبعَثَ اللهُ

---

(١) أورده الثَّعلبي في « الكَشفِ والبيان » (١٣٣/٤) قال : (قالَ وَهب : أوَّلُ ما خلقَ اللهُ مكاناً مُظلماً ، ثمَّ خلقَ جوهرةً فصارت ذٰلك المكان ، ثمَّ نظرَ إلى الجوهرةِ نظرَ الهيبة فصارَت ماءً ، فارتفعَ بُخارُها وزبَدُها ، فخلقَ مِنَ البُخارِ : السَّماواتِ ، ومِنَ الزَّبدِ : الأَرضينَ) .

(٢) في الأصل : (جَوهراً) .

(٣) انظر « عرائسُ المجالس » للثَّعلبي (ص ٥) .

عِزرائيلَ ، فاستعاذَتِ الأَرضُ باللهِ ، فقالَ : وأنا أَعوذُ باللهِ أن أَعصِيَ لهُ أمراً ، فقَبَضَ القَبضَةَ واستَردَّ مِنَ الأرضِ شَرَفَ مَواقعِ نَظرِ اللهِ تعالىٰ مُشتَمِلاً عليها القَبضَةَ المأخوذةَ ، فكُوِّنَ مِنْ تلكَ القَبضَةِ قالَبُ آدمَ ، وخُمِّرَ أربعينَ صَباحاً ، فتَخمَّرَ سِرُّ الخِلافةِ في الطِّينةِ ، فصارَتْ جُثَّةُ آدمَ مُلقاةً ببطنِ نَعمانَ ، فمسَحَ اللهُ ظَهرَ آدمَ بيدِهِ ، فسارَتِ الذَّرَّاتُ مِنْ جَسَدِ آدمَ كما يَسيلُ العَرَقُ بعَددِ كلِّ آدَميٍّ ذَرَّةٌ ، فخَاطبَها الحقُّ بقولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1] ، وكُتِبَ هٰذا العهدُ والميثاقُ في رَقٍّ أبيضَ ، وأُلقِمَ الحَجرَ الأسودَ ، ورُدَّتِ الذَّرَّاتُ إلىٰ جَسَدِ آدمَ حتَّىٰ برَزَتْ في تَعاقُبِ الدُّهورِ والأَعصارِ بالتَّناسُلِ والتَّوالدِ ، إلىٰ نَفخِ الصُّورِ[2]

فبالسِّرِّ المُودَعِ فيهِ جُعِلَ مَسجُودَ المَلائكةِ ، وعُلِّمَ آدمُ الأَسماءَ الَّتي انقسَمَتْ على الأَنبياءِ والمُرسَلِينَ وأَتباعِهِم .

واللهُ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صُورتِهِ[3] ، والإختلافُ في معنى الحديثِ كثيرٌ ، وعَرْصةُ التَّأويلِ [فسيحةٌ][4] ، وفصلُ الخطابِ بعدَ القولِ بأنَّ الإستواءَ معلومٌ ، والكيفيَّةُ مجهولةٌ ، والإيمانُ بهِ واجبٌ ، والسُّؤالُ عنه بِدعةٌ[5] . . أنْ يُقالَ : أمَّا الذَّاتُ القديمُ الأزليُّ مَحمِيٌّ كَعبةُ جلالِهِ أنْ يطوفَ بهِ طائفُ تأويلٍ أبداً[6] .

وأمَّا الصِّفاتُ السَّبعةُ الذَّاتيَّةُ رُكِّبَتْ في آدمَ ، فصارَ آدمُ مخلوقاً مِنْ تلكَ الصِّفاتِ ؛ فخَلقَ اللهُ آدمَ علىٰ صُورةِ صِفَتِهِ ، فبتلكَ[7] الصِّفاتِ الَّتي رُكِّبَتْ فيهِ استَحقَّ الخِلافةَ ؛ لأنَّها هي المُوجِبةُ للتَّسخيرِ والتَّمليكِ ، فانتَقَلَا إلى البشرِ مِنْ

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) انظر « عرائسُ المجالس » للثَّعلبي (٣٧) ، وما بعده .

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) في الأصل : (فسيح) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٨٦٧ ، ٨٦٨) عن مالك بن أنس ، وربيعة الرأي ، بنحوه .

(٦) أورد الإمام ابنُ فُورَك في « تأويل مُشكلِ الحديث » (ص ٢٢ ـ ٢٦) العديدَ من التَّفسيراتِ الوجيهةِ ، يَحسنُ بالقارئ الرُّجوعُ إليها والاستفادة منها .

(٧) في الأصل : (فتلك) .

آدمَ مَوروثاً ذٰلكَ ، ومَوهوباً مِنْ خَزائنِ الجُودِ الأَزليِّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (١)

فهٰذه بتكوينِ أَثَرِ سِرْبالَيِ الكَمالِ الأَزليِّ في الإنسانِ ؛ وهُما : الغَضَبُ والرِّضا مِن آثارِ الجمالِ والجَلالِ الأَزليِّ ، فالرِّضا مِن لُطفِ اللهِ ، ومنهُ دارُ السَّعادةِ ، وسُكَّانُها مِنَ المُرسَلِينَ وأَتباعِهم ، وصِفةُ الغَضَبِ مِن آثارِ الجلالِ ، ومنهُ دارُ الأَشقياءِ ، والأَشقياءُ مِن سُكَّانِها ، وهمُ الَّذينَ لمْ يُجيبوا دعوةَ المُرسلِينَ ، قالَ اللهُ : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (٢) .

فانتقلَ سِرُّها بينَ الصِّفَتينِ إلى الخَليفةِ ، ورُكِّبَ (٣) فيهِ القوَّةُ الشَّهوانيَّةُ والغضَبيَّةُ ؛ الشَّهوانيةُ : لجَلبِ المنَافعِ ، والغَضَبيَّةُ : لدَفعِ المَضَارِّ ، فلذٰلكَ أَصبحَ (٤) خَليفةَ اللهِ في الأَرضِ ؛ إذْ بهما (٥) انتَظَمَتْ أمورُ عالَمِ الشَّهادةِ .

والملائكةُ بمَعزِلٍ عن هٰذا الشَّرَفِ ؛ لأنَّ هٰذا الشَّرَفَ حصَلَ باجتماعِ المُتضادَّينِ مِنَ القُوَّتَينِ في الآدَميِّ مُحاكِيَتَينِ لصِفَتَيِ الكَمالِ الأَزليِّ ، فالملائكةُ إمَّا بصفةِ اللُّطفِ بِلَا قَهرٍ ، وإمَّا بصِفةِ القَهرِ بِلَا لُطفٍ ، وذٰلكَ النُّقصانُ يَحكُمُ بِتَخلُّفِهم عن شَأوِ الإنسانِ .

ثمَّ إنَّ الخلافةَ سِرُّها توزَّعَ (٦) علىٰ جَوهرِ النُّبوَّةِ ، وانقسَمَ على المُرسَلِينَ ، حتَّى اجتَمعَتْ (٧) كُلِّيَّةُ سِرِّ الخِلافةِ في نبيِّ آخرِ الزَّمانِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) سورة الإسراء : (٧٠) .

(٢) سورة قٓ : (١٤) .

(٣) في الأصلِ : (وركبه) .

(٤) كلمة (أصبح) زيادةٌ يقتضيها السِّياقُ .

(٥) في الأصلِ : (إذ هما) .

(٦) في الأصل : (توزَّعت) .

(٧) في الأصل : (اجتمع) .

ثمَّ وَرِثَ الخِلافةَ إمامٌ بعدَ إمامٍ ، فانتهَى الزَّمانُ إلىٰ ظُهورِ طَلائعِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ ، فورِثَ الخِلافةَ كابرٌ عن كابرٍ ، وإمامٌ عن إمامٍ ؛ حتَّى انتهى الأمرُ إلى الإمامِ النَّاصرِ لدِينِ اللهِ[1] .

ومِمَّا وُجِدَ في زَمانِه لقَمعِ الفلاسفةِ وقَهرِها وإعلاءِ كَلمةِ الدِّينِ وقَمعِ كَلمَتِهِمِ السُّفلَىٰ : أنَّه أمرَ بنَارٍ أُجِّجَت في الرَّحْبةِ الشَّريفةِ ، وتقدَّمَ إلىٰ شخصٍ يُسمَّى : ابنَ المارِسْتانيَّة[2] ، فجلَسَ علىٰ كرسيٍّ ، فجَمَعَ كتُباً كثيرةً مِن زَخارفِ الفلاسفةِ وأَباطِيلِهِم ، وصارَ يَفتحُ المُجلَّدةَ ويعلَمُ أنَّها مِنْ كَلامِ الفَلاسفةِ فيُلقِيهِ في النَّارِ ، وكانَ هٰذا قَريباً مِنْ أَوائلِ زَمانِهِ .

وفي آخرِ زمانِه بَرَزَ الإذنُ الشَّريفُ والتَّقدُّمُ إلىٰ هٰذا الفَقيرِ بغَسْلِ كِتابِ « الشِّفا » لابنِ سِينا ، عشْرِ مجلَّداتٍ ، فغَسلتُها بتوفيقِ اللهِ وإذنِ الإمامِ المُفترَضِ الطَّاعةِ علىٰ سائرِ الأَنامِ .

ثمَّ انتَهى الأمرُ إلى الإمامِ الظَّاهرِ[3] ، فلَمَعَ بَرْقُ دَولتِهِ مِن مَطالِعِ الشَّرَفِ الأَعلَىٰ ، وكانَ بالخِلافةِ[4] أَحقَّ وأَولَىٰ ، أَخْلَدَ إلىٰ بَذْلِ الأَموالِ ، وسَلَكَ مسالكَ

---

(١) هو أحمد بن المُستضيء الحسن بن المُستنجد يوسف بن المُستظهر محمد ، أبو العبَّاس ، النَّاصر لدين الله العبَّاسيُّ الهاشميُّ (ت ٦٢٢ هـ) ، خليفة عبَّاسيٌّ ، بُويع بالخلافة بعد موتِ أبيه ، وطالت أيَّامه حتىٰ قال فيه ابن تَغْرِي بَرْدِي : (ليس لذكره محلٌّ في تاريخنا هٰذا ؛ لأنَّ وفاته قبل الخمسين وست مئة ، وما ذكرناه هنا إلَّا لغريبة ؛ وهو أنه أقام في الخلافة مدَّةً طويلةً نَحْواً من سبع وأربعين سنةً ، ولم نعلم أحداً مِن خُلفاء بني العباس أقام هٰذه المدَّة الطَّويلة غيرَه) . « المنهلُ الصَّافي والمستوفي بعد الوافي » (٢٧٩/١) انظر « التكملة لوفيات النقلة » (١٦٠/٣ ـ ١٦١) مع حواشي الترجمة في المصدرين .

(٢) هو عبيد الله بن علي بن نصر بن حُمْرة ـ بضم الحاء وسكون الميم المخففة ـ أبو بكرٍ ، فخر الدِّين ، المعروفُ بابنِ المارستانية (ت ٥٩٩ هـ) ، الفقيهُ الحنبليُّ الطَّبيبُ الأديبُ المُحدِّثُ المُؤرِّخُ ، مِن أهلِ بغدادَ ، تولَّى النَّظرَ بالبيمارستان العَضُدي ، وقرأ كثيراً مِن علمِ الطِّبِّ والمنطقِ والفلسفةِ والنُّجومِ ، ترجمه ابنُ النَّجَّار في « ذيل تاريخ بغداد » (٥٩٥/٢ ـ ٥٩٩) ، والذَّهبيُّ في « تاريخ الإسلام » (١١٧٢/١٢) .

(٣) في الأصل : (الطَّاهر) ، وهو تصحيفٌ ؛ فهو ابنُ الخليفةِ النَّاصرِ المذكور آنفاً ، واسمُه محمَّد ، تُوفي سنة (٦٢٣ هـ) انظر « التكملة لوفيات النقلة » (١٨٢/٣ ـ ١٨٣) مع حواشي الترجمة .

(٤) في الأصل : (الخلافة) .

سَنيِّ الأحوالِ ، وأدنَى الفُقراءَ وأهلَ التَّقوىٰ وأهلَ العلمِ مِنْ سُدَّتِهِ ، ولمْ يجملْ مِنْ عدَّتِه ، واعتمَدَ مِن سُهولةِ الأخلاقِ والشِّيَمِ ما لمْ يُؤرِّخْ في سَالفِ الأُمَمِ[1] ، وأودَعَ القلوبَ أوجاعاً بسُرعةِ انتهاءِ زمانِهِ ، وتَصرُّمِ رَبيعِ أوانِهِ ، وتَقلُّصِ البَهجةِ والسُّرورِ ، وتراكَمَتْ[2] حَنادِسُ الدَّيجورِ[3] .

حتَّىٰ جَبرَ اللهُ مُصابَ الخَلائقِ ، فاستقرَّ صُبحُ سَعادةِ الدَّولةِ المُستنصِريَّةِ خَليفةِ اللهِ في أَرضِهِ ، مولانا الإمامِ أَبي جَعفرٍ المنصورِ أَميرِ المؤمنين[4] ، ونشَر طاووسُ دَولتِه جناحَيِ العَدلِ والفَضلِ ، وحَصَّنَ بحُسنِ سياستِهِ الجَبلَ والسَّهلَ ، وأَروَىٰ بِصَيِّبِ إنعامِهِ الأَغْوارَ والنُّجودَ ، وعطَّرَ بعَرْفِ نَائلِهِ وَجُودِهِ الوجودَ ، رَفَعَ المُكوسَ ، وخَلَع ونَضَا عنِ الرَّعايا لباسَ البُوسِ ، وقرَّرَ الحقوقَ مَقَارَّها ، ومنَح القلوبَ مَبارَّها ومَسَارَّها[5] ، ورَدَّ الوقوفَ إلىٰ شَرطِ واقفِها ، ورَدَّ الأَملاكَ إلىٰ أَصحابِها ، يُسَنِّىٰ ما فيها ، فالأَموالُ عندَهُ مُحتقَرةٌ ، والمِنَحُ عندَهُ مُختصَرةٌ ، حتَّى انطلَقَتْ مِن غنائمِ الأَيسارِ عَزاليها ، ومِنْ خَزائنِ الأموالِ لآلِيها ، وتبدَّلَتْ بأَضواءِ النَّهارِ مِنَ الدُّهورِ والأعصارِ لَياليها ، فأقبلَتِ الدَّولةُ المُستَنصريَّةُ بخَشخَشَتِها وكَلكَلَتِها تَختالُ في حُلَلِ الفَخارِ ، فهي طِرازٌ لِقَشيبِ الدُّهورِ والأَعصارِ ، فمَجِيئُها مَجِيءُ رحمةِ اللهِ ، وظُهورُها ظُهورُ آياتِ اللهِ ، فكُلُّ رَحمةٍ إلـهيَّةٍ إذا برزَتْ مِن حِجالِ جَلالِ الأَزلِ . . فهي مَجِيءُ اللهِ إلىٰ خَلقِهِ بوَصفٍ مِن أَوصافِ الجمالِ .

فلَا زالت مَواهِبُ اللهِ الجِسامُ ، ومِنَنُهُ العِظامُ ، بتَجلُّلِ[6] الدُّهورِ والأعصارِ ،

---

(١) هنا تنتهي الورقة (١٣٨) ، وتبدأ الورقة (١٣٧) .

(٢) في الأصل : (وتركمت) .

(٣) الدَّيجور : الظُّلمة الشَّديدةُ والمُتراكمةُ . والحنادسُ : جمع الحِندِس بالكَسْر ؛ وهو اللَّيلُ البَهيمُ المُظلِم ، وقد جاء في « الصِّحَاح » : (اللَّيلُ الشَّديدُ الظُّلمة ، ومنه الحَدِيث : « في لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ حِنْدِسٍ » أي : شديدةِ الظُّلمة) . « تاج العروس » (١٥/٥٦١ ـ ٥٦٢) .

(٤) توفي سنة (٦٤٠ هـ) . انظر « التكملة لوفيات النقلة » (٣/٦٠٧) مع الحواشي .

(٥) في الأصل : (مبارَّها مسارَّها) .

(٦) كذا في الأصلِ ولعلَّها : (بتجدُّدِ) .

تَسري بها رَكائبُ الأَسرارِ ، حتَّىٰ أَناخَتْ بفِناءِ هٰذه الدَّولةِ المُستَنصِريَّةِ ، الَّتي ظَهَرَتْ[1] إجابةَ دُعاءِ إبراهيمَ الخَليلِ عليهِ السَّلامُ ، حيثُ سألَ لوَلدِهِ إسماعيلَ لمَّا فَرَغَ مِن بناءِ البيتِ ؛ فقالَ : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ ، سألَ ذٰلكَ لوَلدِ إسماعيلَ بدليلِ قولِهِ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[2] .

فانتِسابُ العَربِ إلىٰ إسماعيلَ ، وانتِسابُ بني إسرائيلَ إلىٰ إسحاقَ ، وهو عِبرانيُّ اللِّسانِ ، ففي بني إسرائيلَ الجِدُّ والإجتهادُ ، وفي ولَدِ إسماعيلَ الأَخلاقُ الزَّكيَّةُ ، فبَنو إسحاقَ شاكَلوا المُتعبِّدِينَ باجتهادِهِم ، وبنو إسماعيلَ شاكَلوا العارِفينَ والصُّوفيَّةَ بأَحوالِهِم ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَىٰ أَعْمَالِكُمْ ، وَلَٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ »[3] .

فنظرُ اللهِ تعالىٰ إلى النُّفوسِ الزَّكيَّةِ والقلوبِ الطَّاهِرةِ مَعدِنِ الأَحوالِ ، لا إلىٰ ظَواهِرِ الأَعمالِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ لعَليِّ بنِ أبي طالبٍ : « إِذَا تَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ بِٱلْعَمَلِ . . تَقَرَّبْ إِلَى ٱللهِ بِٱلْعَقْلِ تَسْبِقْهُمْ »[4] ؛ وذٰلكَ أنَّ العَقلَ يَغلِبُ الهَوىٰ ، ومِنَ الهَوى : الأَخلاقُ الرَّدِيَّةُ .

والهَوى المُتَّبعُ دُخَانُ نارِ النَّفْسِ ، وفضائلُ الرِّجالِ تَظهَرُ في عُلُوِّ الأَحوالِ ، لا في صُورةِ الأَعمالِ ، ولذٰلكَ سِرُّ الفُتوَّةِ ظَهَرَ في أَميرِ المؤمنينَ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وَجهَهُ ، وهي مُشتملةٌ على الأَخلاقِ الزَّكيَّةِ والشِّيَمِ الطَّاهِرةِ والأَوصافِ المحمودةِ ؛ فالأَعمالُ قدْ تكونُ مِن طَريقِ العادةِ ، ولا تكونُ الأَخلاقُ إلَّا غَريزةً .

فبنو إسرائيلَ جَدُّوا واجتَهدوا ، والجِدُّ والإجتهادُ مِنْ خزائنِ الحِكمةِ مَشُوبٌ

---

(١) في الأصل : (ظهر) .

(٢) سورة البقرة : (١٢٨ ـ ١٢٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث سيدنا أبي هُريرة رضي الله عنه ، بلفظ : « إِنَّ اللهَ لَا يَنظُرُ إِلىٰ صُوَرِكُم وَأَموَالِكُم ، وَلٰكِن يَنظُرُ إِلىٰ قُلُوبِكُم وَأَعمَالِكُم » .

(٤) أخرجه ابنُ شاهين في « التَّرغيب في فضائل الأعمال » (٢٥٦) وأبو نُعيم في « حلية الأولياء » (١٨/١) .

بكَسْبِ العَبدِ ، وبنو إسماعيلَ [1] خُصُّوا بالأَخلاقِ ، والأَخلاقُ مِن خزائنِ الفَضلِ والمِنَّةِ ، والحِكمةُ مِنَ العَدلِ ؛ وهي إقامةُ وظيفةِ الجلالِ الأزَليِّ ، ومنها تكوَّنتِ النَّارُ ، والمِنَّةُ والفضلُ مِنْ وظيفةِ الجَمالِ الأزَليِّ ، ومنها تكوَّنَتِ الجنَّةُ وأَزهَرَتْ أَشجارُها وتَزخرَفَت قُصورُها .

ولمَّا خُصَّ بنو إسرائيلَ بما هو مِنْ خزائنِ الحِكمةِ ووظيفةِ الجَلالِ . . اختَصَّتْ بلادُهُم بالصَّخرةِ مِنْ بيتِ المَقدسِ ، وهي أَرضُ المَحشَرِ ، وفيها تَظهَرُ آياتُ السَّطوةِ الإلـٰهيَّةِ .

ولمَّا خُصَّ بنو إسماعيلَ [1] بما هو مِن خزائنِ الفَضلِ والمِنَّةِ . . جُعِلَ في بلادِهِم الحجرُ الأسودُ الَّذي هو يَمِينُ اللهِ [2] ، وهو مُستَودَعُ الميثاقِ ، وفيهِ آثارُ الرَّحمةِ [3] الإلـٰهيَّةِ ، وانجِذابُ البواطنِ إليهِ وإلى استِلامِه ، عاماً بعدَ عامٍ .

فالمُتعبِّدونَ شاكَلوا بني إسرائيلَ ، والصُّوفيَّةُ شاكَلوا ولدَ إسماعيلَ ؛ فالمتعبِّدونَ جَدُّوا واجتَهدوا فِراراً مِنَ النَّارِ ، والزَّاهِدونَ رَفَضُوا الفانيَ رَغبةً في دارِ القَرارِ ، والصُّوفيَّةُ زَهِدوا في الجميعِ إيثاراً لقُربِ المَلِكِ الجبَّارِ .

فبَانَ أنَّ الأَخلاقَ أَفضلُ مِنَ الأَعمالِ .

مكتوبٌ في السِّفْرِ الأوَّلِ مِنَ التَّوراةِ كَلماتٌ فُسِّرَتْ بالعَربيَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ بَشَّرَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّهُ سيُكثِّرُ إسماعيلَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهما ؛ يقولُ لإبراهيمَ : قدْ سَمِعْتُ دُعاءَكَ في إسماعيلَ ، وإنِّي سأُبارِكُهُ وأُكثِّرُهُ بمُحمَّدٍ عليهِ

---

(١) في الأصل : (إسرائيل) ، وهو سبق قلم .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٨٩١٩) والأزرقي في « أخبار مكة » (٣٢٣/١) ، من قول ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٨٦/٢) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحدثين بأصبهان » (٣٦٥/٢) ، والخطيب البغدادي في « التاريخ » (٣٣٨/٧) من حديث سيدنا جابرٍ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) في الأصلِ : (رحمة) .

الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وسأجعَلُهُ بحِزبٍ عَظيمٍ ، وهُو الحِزبُ الَّذي نَطَقَ بهِ القرآنُ وقالَ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] ، فسَرَتْ بِشارةُ اللهِ لإبراهيمَ .

وفي السِّفْرِ الأوَّلِ : لمَّا هَرَبَتْ هاجَرُ مِنْ سَارةَ . . أتاها مَلَكٌ مِنَ اللهِ وقالَ : يا هاجَرُ أَمَةَ سَارةَ ؛ ارجِعي إلىٰ سيِّدتِكِ فاخضَعِي لها ؛ فإنِّي سأُكثِّرُ ذُرِّيَّتَكِ وزَرْعَكِ حتَّىٰ لا تُحصَىٰ كَثرَةً ، وتَلِدِينَ ابناً وتُسمِّينَهُ : إسماعيلَ ؛ لأنَّ اللهَ قدْ سَمِعَ خُضوعَكِ ، وتكونُ يدُهُ فوقَ الجميعِ ، ويَدُ الجميعِ مبسوطةً إليهِ بالخُضوعِ .

فخاضَ العلماءُ في بحرِ التَّدبُّرِ في هٰذا المنزَلِ في التَّوراةِ ، فتَبيَّن أنَّهُ أرادَ بهِ رسولَ اللهِ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ الَّذي امتدَّتْ إليهِ الأيدِي بالخُضوعِ ؛ لأنَّ المُلكَ قبلَ بِعثتِهِ كانَ في بَني إسحاقَ ، فلمَّا بُعِثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . انقلبَ المُلكُ والنُّبوَّةُ إليهِ ، فصارَتْ[2] يدُهُ فوقَ الأيدِي ، والأيدِي ممتدَّةٌ إليهِ بالخُضوعِ ، فدانَتْ لهُ المُلوكُ[3] ، وخضَعَتْ لهُ الأُمَمُ ، وصارَ ذٰلكَ ميراثاً لخُلفائِهِ الرَّاشدينَ ، ممتدَّ الأيدِي بالخُضوعِ إلىٰ سُدَّةِ الخِلافةِ .

أخبرَنا الشَّيخُ أبو زكريَّا يحيى بنُ عبدِ الوهَّابِ ، قالَ : أخبرَنا أبو عليٍّ الحَسنُ المُقرئُ ، قالَ : أخبرَنا أبو الحَسنِ أحمدُ بنُ إبراهيمَ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ جعفرُ بنُ إدريسَ القَزوينيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو اللَّيثِ[4] عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ بن الحَكَمِ[5] البَغداديُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ عامرٍ[6]

---

(١) سورة الفتح : (٢٨ ـ ٢٩) .

(٢) في الأصلِ : (فصار) .

(٣) في الأصل : (الملك) .

(٤) في « تاريخ الخطيب » (٢٨/١٠) : (أبو الطيب) .

(٥) في الأصل : (الحكيم) ، وهو خطأٌ ، والتصحيح من « تاريخ الخطيبِ » (٢٨/١٠) .

(٦) في الأصلِ : (عاصم) ، وهو خطأ ، والتصحيح من « تاريخ الخطيب » (٢٨/١٠) .

الطَّائيُّ ، قالَ : حدَّثني أبي أحمدُ بنُ عامرٍ ، بِسُرَّ مَنْ رأىٰ[1] ، في اليومِ الَّذي ماتَ فيهِ [الحسنُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ موسى الرضا ، قالَ : حدَّثَنا][2] أبو الحَسنِ عليُّ بنُ موسى الرِّضا ، قالَ : حدَّثني أبي موسىٰ ، عن أبيهِ جعفرٍ ، عن أبيهِ محمَّدٍ ، عن أبيهِ عليٍّ ، عن أبيهِ الحُسينِ ، عن أبيهِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهم ، قالَ : قالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هَبَطَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ أَسْوَدُ وَعِمَامَةٌ سَوْدَاءُ ، قُلْتُ : مَا هَـٰذِهِ ٱلصُّورَةُ ٱلَّتِي لَمْ أَرَكَ هَبَطْتَ عَلَيَّ فِيهَا قَطُّ ؟ قَالَ : هَـٰذِهِ صُورَةُ ٱلْمُلُوكِ مِنْ وَلَدِ عَبَّاسٍ عَمِّكَ ، قُلْتُ : وَهُمْ عَلَى ٱلْحَقِّ ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : نَعَمْ » ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ[3] وَوَلَدِهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا » ، ثمَّ قالَ جبريلُ : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِكَ زَمَانٌ يُعِزُّ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْإِسْلَامَ بِهَـٰذَا ٱلسَّوادِ ، قُلْتُ : رِئَاسَتُهُمْ مِمَّنْ ؟ قَالَ : مِنْ وَلَدِ ٱلْعَبَّاسِ ، قَالَ : قُلْتُ : وَأَتْبَاعُهُمْ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ ، قُلْتُ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْلِكُونَ وَلَدُ ٱلْعَبَّاسِ ؟ قَالَ : يَمْلِكُونَ ٱلْأَصْفَرَ وَٱلْأَخْضَرَ ، وَٱلْحَجرَ وَٱلْمدَرَ ، وَٱلسَّرِيرَ وَٱلْمِنْبَرَ ، وَٱلدُّنْيَا إِلَى ٱلْمَحْشَرِ »[4] .

وقدْ ظهَر بحَمدِ اللهِ تعالىٰ آثارُ ذٰلكَ في هٰذه الأيَّامِ الزَّاهِرةِ ، لا زالَ ظاهِراً بُرهانُها ، غَالباً سُلطانُها ، بمُحمَّدٍ النَّبيِّ وآلِهِ الطَّاهِرينَ .

---

(١) يعني : سامُرَّاء ، بلدةٌ بالعراقِ معروفةٌ ، وفي أصلِ تسميتِها قصَّةٌ . انظر « معجم البلدان » (٣/١٧٤) .

(٢) ما بين معقوفين زيادة من « تاريخ دمشق » (٢٦/٣٥٢) .

(٣) في الأصل : (العبَّاس) .

(٤) أخرجه الخطيبُ في « تاريخ مدينة السَّلام » (١١/٢٠٥) ، ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/٣٥٢ ـ ٣٥٣) ، من طريقِ أبي الحسَن أحمد بن إبراهيم . . . به .
وانظر « اللآلئ المَصنوعة في الأحاديثِ الموضوعَة » (١/٣٩٤) .

فصل

[في تآلُفِ الأهواءِ والأرواحِ بين الصوفيةِ والروحِ المقدَّسِ النبويّ ، وفي سندِ الصوفيةِ]

وحيثُ أَنعَمَ اللهُ تعالىٰ علىٰ طائفةِ الصُّوفيَّةِ ، ووفَّرَ حظَّهُم مِنَ العلمِ ، وجَمَع لهُم بينَ عِلمِ الدِّرايةِ والوراثةِ ، وهُما عِلْمَا[1] الشَّريعةِ والحقيقةِ . . فلذٰلكَ وفرَ حَظُّهُم مِنْ وَلاءِ الإمامِ ، المُفترَضِ الطَّاعةَ علىٰ كافَّةِ الأَنامِ ؛ لمُناسبةٍ وقَعَتْ في أصلِ الطِّينةِ الَّتي أَثمَرتِ الصَّفاءَ الَّذي لهُ مَزِيدُ اختِصَاصٍ بالخِلافةِ ؛ لقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ٱلْأَصْفِيَاءَ »[2] .

وللصُّوفيَّةِ حظٌّ وافرٌ مِنَ الصَّفاءِ ، فظَهَرَ لذٰلكَ تآلُفُ الأَهواءِ والأَرواحِ[3] ؛ بينَ أَرواحِ الصُّوفيَّةِ والرُّوحِ المُقدَّسِ النَّبويِّ الإماميِّ ، فسِيرةُ الصُّوفيَّةِ بحُسنِها تَقرُبُ بالمُناسَبةِ بسِيرةِ الإمامِ الَّتي بها يَسُوسُ البِلادَ والعِبادَ .

وصُورتُهم اللُّبسَةُ الظَّاهِرةُ ، وهي تَستَنِدُ إلى البُرْدةِ الشَّريفةِ ، الَّتي هي مِيراثُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الإمامِ المُفترَضِ الطَّاعةِ على الأَنامِ ، وقالَ الشَّاعرُ : [من الطويل]

كَأَنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَلْقَىٰ رِدَاءَهُ مِنَ ٱلْقَائِمِ ٱلْهَادِي عَلَىٰ جَبَلٍ رَاسِ[4]

فلِمَولانا أميرِ المؤمنينَ ولايةُ إلباسِ الخِرقةِ المُنتسِبةِ إلى البُردَةِ الشَّريفةِ ، وَوِلَايةُ إلباسِ اللِّباسِ المُنتَسِبِ إلىٰ أميرِ المؤمِنينَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ مِن أَتباعِهِ

---

(١) في الأصل : (علماء) .

(٢) أخرجه الرَّافعي في « التَّدوين في أخبارِ قزوين » (٥/٢) من حديثِ سيدنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، بلفظ : « إنَّ مِن ذُرِّيَّتِكَ الأَصْفِيَاءَ » .

(٣) في الأصلِ : (الأرواح) .

(٤) في الأصل : (علىٰ جبل هادي) وصححت في الحاشية إلىٰ : (راس) .

الصُّوفيَّةِ ، والفِتْيانِ بالخِلافةِ المُعظَّمةِ دَفترٌ جامعٌ للأَحوالِ والأَعمالِ والأَخلاقِ ، والتَّصوُّفُ جُزءٌ في ذٰلكَ الدَّفْترِ .

والتَّصوُّفُ دَفترٌ ، والفُتوَّةُ جزءٌ في ذٰلكَ الدَّفترِ .

وأَصلُ اللُّبستَيْنِ : الصُّحبةُ ؛ فأميرُ المؤمنينَ صَحِبَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، والحسنُ البصريُّ صَحِبَ أَميرَ المؤمنينَ عليّاً[1] ، وحبيبٌ العجَميُّ صَحِبَ الحسَنَ البَصريَّ ، ودَاوودُ الطَّائيُّ صَحِبَ حبيباً[2] العَجَميَّ ، ومعروفٌ الكَرْخيُّ صحِبَ داوودَ الطَّائيَّ ، والمعروفُ الكَرْخيُّ أيضاً صَحِبَ عَليّاً الرِّضا ، وهو صَحِبَ أَباه مُوسى الكَاظِمَ ، وهو صَحِبَ أباهُ جعفراً[3] الصَّادِقَ ، وهو صَحِبَ أباهُ محمَّداً البَاقرَ ، وهو صَحِبَ أباهُ زينَ العابدينَ عَليّاً ، وهو صَحِبَ أباهُ الحُسينَ الشَّهيدَ رضيَ اللهُ عنهم ، وهو صَحِبَ جَدَّهُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وسَرِيٌّ السَّقَطيُّ صَحِبَ معروفاً الكَرْخيَّ ، وأبو القاسمِ الجُنَيدُ صَحِبَ[4] سَرِيّاً[5] السَّقَطيَّ ، وأبو محمَّدٍ رُوَيْمٌ صَحِبَ أبا القاسِمِ الجُنيدَ ، وأبو عبدِ اللهِ بنُ خَفيفٍ صَحِبَ أبا محمَّدٍ رُوَيْماً[6] ، وأبو العبَّاسِ النَّهاوَنْديُّ[7] صَحِبَ أبا عبدِ اللهِ بنَ خفيفٍ ، وأخِي فَرجٌ الزَّنْجانيُّ صَحِبَ أبا العبَّاسِ النَّهاوَنْديَّ ، وعمرُ بنُ محمَّدٍ السُّهرَوَرديُّ[8] صَحِبَ أَخِي فَرَجاً[9] الزَّنْجانيَّ ، وعبدُ القاهرِ

---

(١) في سماع الحسن البصري من علي بن أبي طالب خلافٌ كبير ؛ ينظر له « المناهل السلسلة » للكنوي (ص ٣٦١ ـ ٣٦٣) .

(٢) في الأصل : (حبيب) .

(٣) في الأصل : (جعفر) .

(٤) كلمة (صحب) : زيادةٌ يقتضيها السِّياقُ .

(٥) في الأصل : (سري) .

(٦) في الأصل : (رويم) .

(٧) هنا تنتهي الورقة (١٣٧) ، وتبدأ الورقة (١٣٥) .

(٨) هو عم والد المؤلف (ت ٥٣٢ هـ) . انظر ترجمته في « الأنساب » (٣٠٦/٧ ـ ٣٠٧) ، و« تاريخ الإسلام » (٥٧٦/١١) .

(٩) في الأصل : (فرج) .

السُّهرَوَرديُّ صَحِبَ عمَّه عُمرَ بنَ محمَّدٍ السُّهرَوَرديَّ ، والعبدُ عمرُ بنُ محمَّدٍ[1] صَحِبَ عمَّه عبدَ القاهرِ .

واللهُ تعالىٰ يُعِيدُ برَكةَ الصِّدِّيقِينَ والصَّادِقِينَ مِنَ المشايخِ والمُريدِينَ ، على السُّدَّةِ الشَّريفةِ النَّبَويَّةِ المُستَنصِريَّةِ عَمَّمَ اللهُ إحسانَها ، وأَنارَ بُرهانَها ؛ بمُحمَّدٍ وآلِه وأصحابِه .

---

(١) يعني المصنِّفُ نفسَهُ .

فصل

في وجه المناسبة بين الخلافة الشريفة والتصوف

الخِلافةُ المُعظَّمةُ نِيابةُ اللهِ في الأَرضِ ، ولَمْ تَكُنِ النِّيابةُ لحاجةِ اللهِ تعالىٰ إلى النَّائبِ لموضعِ ضَعفِ المُستَخلَفِ عليهِ ؛ لأنَّ الخلقَ حيثُ عجَزوا عنِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالىٰ والقولِ معَهُ والسَّماعِ منهُ في أمورِهِم وحوائجِهِم . . أقامَ الحقُّ لهم واسِطةً بشَراً مِن جِنسِهِم ، يَنوبُ الحقَّ فيهِم ، وهٰذا كما أنَّ اللهَ تعالىٰ بِخَفِيِّ قُدرتِهِ ولَطيفِ حِكمتِهِ جَعلَ الطَّعامَ غِذاءَ الجَسَدِ يَتربَّىٰ ويَتقَوَّىٰ ، ولا مُناسبةَ بينَ الدَّمِ المُكوَّنِ مِنَ الطَّعامِ معَ لَطافتِهِ والعَظْمِ وكَثافتِهِ ، وجَعلَ الحقُّ سبحانه بحِكمتِهِ الغَضاريفَ واسِطةً بينَ الدَّمِ والعَظمِ لمُناسبَتِها إلى العَظْمِ بنَوعِ كثافةٍ ، وإلى اللَّحمِ والدَّمِ بنَوعِ رِقَّةٍ ولَطافةٍ لِيَصِلَ إلى العَظْمِ نَصِيبُهُ مِنَ الغِذاءِ ، وهٰكذا جَعَلَ الإمامَ واسِطةً بينَهُ وبينَ الخلقِ .

والصُّوفيُّ إذا انتهىٰ في سَيْرِهِ وسُلوكِه إلىٰ رُتبةِ المَشيخةِ . . يصيرُ أيضاً واسطةً بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ المُريدِ الصَّادقِ .

والإمامُ واسطةٌ على الإطلاقِ ، والصُّوفيُّ واسطةٌ بالنِّسبةِ إلى المُريدِ الصَّادقِ ، فحَصَلتِ المناسَبةُ مِن هٰذا الوَجهِ .

ودليلُ أنَّ أمرَ الإمامِ مِن أمرِ الإلٰهِ ، وحُكمَهُ مِن حُكمِ اللهِ : ما أخبرني عمِّي شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ السُّهرَوَرديُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا فَخرُ الأئمَّةِ عبدُ الجبَّارِ بنُ محمَّدٍ البَيهقيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو الحَسنِ عليُّ بنُ أحمدَ الواحِديُّ[1] ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : أخبرَنا أبو عَمرو

---

(١) هو المفسِّرُ المشهورُ صاحب « الوجيز » و« الوسيط » و« البسيط » في تفسير القرآن الكريم ، وقد أخرجه في « الوسيط » : (٢/٨٥) ، بإسنادٍ غير المذكور هنا ، من طريقِ إبراهيم بن عبد الله العبسي . . . به .

الفُرَاتيّ[1] ، قالَ : أخبرَنا الهيثمُ بنُ كُلَيْب ، قالَ : أخبرَنا إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ العَبسيُّ ، قالَ : أخبرَنا وَكيعُ بنُ الجرَّاحِ[2] ، عنِ الأَعمشِ ، عن أبي صَالحٍ ، عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أطَاعَني . . فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ ، وَمَنْ عَصَانِي . . فَقَدْ عَصَى ٱللهَ ، وَمَنْ يُطِعِ ٱلْأَمِيرَ . . فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ[3] ٱلْأَمِيرَ . . فقدْ عَصَاني »[4] ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[5] ؛ أيْ : في صورةِ رَجلٍ ؛ لأنَّ تصاريفَ القُدرةِ في عالَمِ الشَّهادةِ تَندَرِجُ علىٰ مَدارجِ الحِكمةِ .

فالعالَمُ بالخَليفةِ يَستَقِرُّ ، والمصالحُ بالإمامِ قائمةٌ ، وما اختارَ اللهُ تعالىٰ للخِلافةِ نائباً عنهُ في الخَلقِ إلَّا وقدْ كُمِّلَ ، والتَّكمُّلُ بالتَّخلُّقِ بأَخلاقِ اللهِ نهايةُ حالِ الصُّوفيِّ ، وهو الكمالُ ، وأقصىٰ ما تَفِي بهِ القُوى الإنسانيَّةُ بعدَ النُّبوَّةِ ، فالإنسانُ وِعاءُ معاني العالَمِ ، ومَجمَعُ حقائقِهِ ومقاييسِهِ[6] ، ولهُ بكلِّ معنىً مِنْ معاني العالَمِ ظهورٌ وبُروزٌ ، فبَعضُ المعاني يَعُمُّ جنسَ الإنسانِ ؛ كالجماديَّةِ والحيَوانيَّةِ والنَّاميَّةِ والبَهيميَّةِ والسَّبُعيَّةِ ، وتختصُّ النُّفوسُ الشَّريفَةُ بمَعانٍ شَريفةٍ ؛ كالمَلَكيَّةِ[7] والتَّخلُّقِ[8] بأَخلاقِ اللهِ .

والنُّفوسُ الشَّريفةُ بما أُودِعَ فيها مِنَ العلمِ والمعرفةِ . . تُشاكِلُ اللَّوحَ

---

(١) في الأصل : (عمر الفرابي) ، والتصحيح من مصادرِ التَّرجمة ، ومنها « تاريخ الإسلام » (٧٩٢/٨) .

(٢) في الأصل : (الوكيع) .

(٣) في الأصل : (يعصي) .

(٤) أخرجه ابنُ أبي شَيبةَ (٣٣١٩٦) ، وأحمدُ (١٠٠٨٩) ، وابن ماجه (٢٨٥٩) من طريقِ وكيع . . . به ، وأخرجه البخاريُّ (٢٩٥٧) ومسلمٌ (١٨٣٥) من طريقِ أبي الزِّنادِ ، عنِ الأعرجِ ، عن سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه .

(٥) سورة الأنعام : (٩) .

(٦) في الأصل : (ومقاييسه) .

(٧) نِسبة إلى الملائكة .

(٨) في الأصل : (التخلق) بحذف واو العطفِ .

المحفوظَ ؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا استَكمَلَتِ التَّزكيةَ . . انعَكَسَ عليها نورُ الرُّوحِ ، ونورُ الرُّوحِ عَطاءٌ مِنَ اللهِ الكَريمِ ، فيَنقَلِبُ عندَ ذٰلكَ حديثُها علوماً إلهاميَّةً ، والعلومُ الإلهاميَّةُ : انقلابُ أَعيانِ جَواهرِ حَديثِ النَّفْسِ بالإكسيرِ[1] الَّذي وُضِعَ عليها ؛ وهو انعِكاسُ نُورِ الرُّوحِ الموهوبِ مِنْ فَضلِ اللهِ تعالىٰ .

ووَجهُ المُناسَبةِ أيضاً : أنَّ مشايخَ الصُّوفيَّةِ قاطِبةً متَّفِقونَ علىٰ أنَّ التَّصوُّفَ خُلُقٌ ؛ فمَنْ زَادَ في الخُلُقِ . . زَادَ في التَّصوُّفِ .

وأهلُ التَّصَوُّف أَهلُ الصَّفاءِ ، قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّستَريُّ : (الصُّوفيُّ : مَن صَفَا مِنَ الكَدَرِ ، وامتلأَ مِنَ الفِكَرِ ، وانقطعَ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ البَشَرِ)[2] .

والخِلافةُ المُعظَّمةُ مَعدِنُ الصَّفاءِ ؛ فوقَعتِ المناسَبةُ .

ودليلُ أنَّ الخلافةَ المُعظَّمةَ مَعدِنُ الصَّفاءِ : قولُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما أخبرنا الشَّيخُ الصَّالحُ مَكِيُّ بنُ أبي القاسمِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ المعالي ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ سليمانُ بنُ مسعودٍ الشَّحَّامُ ، قالَ : أخبرَنا أبو زكريا يحيى بنُ عبدِ الوهَّابِ بنِ محمَّدِ بنِ مَنْدَهْ ، قالَ : رَوَى ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِهِ ، يقولُ : حدَّثنا محمَّدُ بنُ صالحٍ العَدَويُّ ، قالَ : حدَّثنا الأزهرُ بنُ جعفرٍ ، عن عوفٍ الأعرابيِّ ، عن أبي المغيرةِ ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ رضيَ اللهُ عنهُ : « يَا عَمِّ ؛ إِنَّ لَكَ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ ، إِنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ٱلْأَوْصِيَاءَ ، وَمِنْ عِتْرَتِكَ ٱلْأَصْفِيَاءَ ، وَمِنْكَ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ مَنْ يُنشَرُ بِهِ ٱلْهُدَىٰ ، وَتُطْفَأُ بِهِ نِيرَانُ ٱلضَّلَالَةِ »[3] .

---

(١) يَرىٰ دُوزِي أنَّ أصلَ الكلمةِ يونانيٌّ من (إكسيروس) ، وهو أصلاً عقارٌ يابسٌ يُسحَق ، ويُسمَّىٰ : حَجَرَ الفلاسفةِ ، ويعمل علىٰ تحويلِ بعضِ المعادِن إلىٰ بعضٍ ، ولا سيما الذَّهب ، أو استنباطِ دواءٍ لجميع الأمراض . انظر « تكملة المعاجم العربية » (كسر) (٣/٨٥) ، و(كيمياء) (٩/١٨١) .

(٢) أورده الكلاباذي في « التَّعرُّفِ لمذهبِ أهلِ التَّصوُّفِ » (ص ٢٥) .

(٣) تقدَّم تخريجه (ص ٢٢٠) من طريقٍ آخر عند الرَّافعي في « التَّدوين في أخبار قزوين » ، ولم أقِف عليه منَ الطَّريقِ المذكورِ .

فوقعَتِ المُناسبةُ بينَ الخِلافةِ المُعظَّمةِ والتَّصوُّفِ بوجودِ الصَّفاءِ ، فالخلافةُ المُعظَّمة دَفترٌ ، والتَّصوُّفُ جُزءٌ فيهِ ، والتَّصَوُّفُ دفترٌ ، والفُتوَّةُ جُزءٌ فيهِ .

والفُتوَّةُ : اختصاصٌ بالأَخلاقِ الزَّكيَّةِ ، والتَّصوُّفُ : جمعٌ بينَ الأعمالِ الصَّالحةِ والأَورادِ العَزيزةِ ، والخِلافةُ الشَّريفةُ تَجمَعُ الأَحوالَ الشَّريفةَ والأَعمالَ الصَّالحةَ والأَخلاقَ الزَّكيَّةَ .

ونذكرُ نُبذةً مِنْ حِكاياتِ الفِتيانِ وشَرحِ الفُتوَّةِ الَّتي استَعلىٰ شَرَرُ شِهابِها ، وسَحَّ صَيِّبُ سِجالِها ، واستَجَدَّتْ لباسَ الشَّرَفِ ، مِن أَكرمِ خَلَفٍ ؛ مِنِ ارتباطٍ بينَ الإمامينِ : أميرِ المؤمنينَ عليٍّ والإمامِ المُستَنصِرِ باللهِ ، وهو ارتباطٌ مُنضَّدٌ في سِلكٍ هاشِميٍّ ، ثمَّ قُرَشيٍّ ثمَّ مُضَريٍّ .

ثمَّ يَصطادُ مِغْناطِيسُ شَرَفِهِ استِعداداتِ فِتيانٍ يَنضُدُها في سِلكِ الشَّريفِ العَريقِ ، ويسلُكُ بها في مَناهجِ التَّحقيقِ .

فمنها ما قيل : الفَتىٰ مَنْ يُنصِفُ ولا يَستَنصِفُ ، وقيلَ : الفَتىٰ مَنْ لا خَصْمَ لهُ ولا هُو خَصْمُ أَحدٍ ، وقيلَ : أَصلُ الفُتوَّةِ : أنْ يكونَ العَبدُ في أمرِ غيرِهِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَزَالُ ٱللهُ فِي حَاجَةِ ٱلْعَبْدِ مَا دَامَ ٱلْعَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ ٱلْمُسْلِمِ »[1] .

وقالَ محمَّدُ بنُ عليٍّ التِّرمذيُّ : (الفُتوَّةُ : أن تكُونَ مُقِيماً لربِّك علىٰ نَفسِكَ)[2] .

وقالَ عمرُ بنُ عثمانَ المَكيُّ : (الفُتوَّةُ : حُسْنُ الخُلُق)[3] .

---

(١) أخرجه بهذا اللَّفظ النَّسائي في « السنن الكُبرىٰ » (٧٢٤٧) ، والطَّبراني في « المعجَمِ الكبيرِ » (١١٨/٥) (٤٨٠٢) من حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديثه أيضاً ، بلفظ : « واللهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه » .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

وسُئل الجُنيدُ عنِ الفُتوَّةِ ؛ فقالَ : ألَّا تُنافِرَ فقيراً ، ولا تُعارِضَ غَنيّاً[1] .

وقيلَ : (الفُتُوَّةُ : ألَّا تَرىٰ لنَفسِكَ فَضلاً علىٰ غَيرِك)[2] .

وقالَ النَّصرَاباذي : (المروءةُ شُعبةٌ [مِنَ الفتوةِ] ؛ وهي الإعراضُ عنِ الكَونَيْن والأَنَفةُ منهما)[3]

وقيل : استَضافَ مجوسيٌّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ ، فشَرطَ[4] أن يُسلِمَ ، فمرَّ المجوسيُّ ، فأوحى اللهُ إليهِ : منذَ خمسينَ سنةً نُطعِمُهُ علىٰ كُفرِهِ ، فلو ناولتَهُ لُقْمَةً مِنْ غيرِ أن تُطالِبَهُ بتَغييرِ[5] دينِه ، فمَضىٰ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ علىٰ إثْرِهِ واعتَذرَ إليهِ ، فسألَهُ عنِ السَّبَبِ ، فذَكَرَ لهُ ، فأسلَمَ المجوسيُّ[6]

وقالَ الجُنيدُ : (الفُتوَّةُ : كَفُّ الأذىٰ ، وبَذلُ النَّدَىٰ)[7]

وقيلَ : (الفُتوَّةُ : تَركُ التَّمييزِ)[8] .

قالَ أحمدُ بنُ خَضْرَويْه لِامرأتِه : إنّي أُريدُ أن أتَّخِذَ دعوةً ؛ أدعو فلاناً ـ وكانَ في بَلَدِهِم رأسَ الفِتيانِ ـ فقالَتِ امرأتُهُ : إنَّكَ لا تُهدَىٰ إلىٰ دَعوةِ الفِتيانِ ، فقالَ : لا بُدَّ ، فقالَتْ : إنْ فَعلتَ . . فاذبَحِ الأَغنامَ والبُقورَ ، والحُمُرَ ألقِها مِن بابِ دَارِ الرَّجُلِ إلىٰ بابِ دَارِك ، فقالَ : أمَّا البُقورُ والأغنامُ[9] ، فما بالُ الحُمُرِ ؟ فقالَتْ : تَدعُو فتىً إلىٰ دارِكَ ، فلا أقلَّ أنْ يكونَ لكِلابِ المحَلَّةِ خيرةٌ[10] .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٤) في الأصل : (بشرط) .

(٥) في الأصل : (بتغير) .

(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٨) .

(٧) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٨) .

(٨) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٩) .

(٩) أي : فقد علِمتُ أمرَها ، فما أمرُ ذَبحِ الحمير ؟!

(١٠) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٩) .

وقيلَ : إنَّ رجلاً نامَ بالمَدينةِ ، فتَوهَّمَ أنَّ هِمْيانَهُ[1] سُرِقَ ، فخرجَ فرأىٰ جعفراً[2] الصَّادقَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فتعلَّقَ بهِ وقالَ : أخذتَ هِمْياني ، فقالَ : أيْشٍ كانَ فيهِ ؟ فقالَ : ألفُ دينارٍ ، فأدخَلَهُ دارَهُ ووَزَنَ لهُ ألفَ دينارٍ ، فرجَع الرَّجُلُ إلىٰ منزلِهِ ودخلَ بيتَهُ ، فرأىٰ هِمْيانَهُ في بيتِهِ ، وكانَ قدْ توهَّمَ أنَّهُ قدْ سُرِقَ ، فخرجَ إلىٰ جعفرٍ مُعتَذِراً[3] ، وردَّ إليهِ الدَّنانِيرَ ، فأبىٰ أنْ يَقبَلَ ، وقالَ : شيءٌ أخرجْتُهُ مِن يَدي[4] لا أَستَرِدُّهُ[5] .

وقيلَ : خَرجَ إنسانٌ يدَّعي الفُتوَّةَ مِنْ نَيْسابورَ إلىٰ نَسا ، فاستَضافَهُ رجلٌ ومعَهُ جماعةٌ مِنَ الفِتيانِ ، فلمَّا فَرَغوا مِنَ الطَّعامِ . . خَرجَتْ جاريةٌ تصُبُّ الماءَ علىٰ أيديهم ، فانقبضَ النَّيْسابوريُّ عن غَسلِ اليدِ ، وقالَ : ليسَ مِنَ الفُتوَّةِ أن تَصُبَّ الماءَ علىٰ أيدي الرِّجالِ ، فقالَ واحدٌ منهم : أنا منذُ سنتينِ أدخلُ هٰذه الدَّارَ لمْ أعلمْ أنَّ امرأةً تصُبُّ الماءَ علىٰ يَديَّ أو رَجُلاً[6] .

وقالَ منصورٌ المغربيُّ رحمَهُ اللهُ : أرادَ واحدٌ أنْ يَمتَحِنَ نُوحاً العيَّارَ النَّيسابوريَّ ، فباعَ منهُ جاريةً في زِيِّ غُلَامٍ ، وكانَتْ وَضِيئةَ الوجهِ ، فاشتراها نوحٌ علىٰ أنَّهُ غُلَامٌ ، ولَبِثَتْ عندَهُ شُهوراً ، فقيلَ للجَاريةِ : هل عَلِمَ أنَّكِ جاريةٌ ؟ فقالَتْ : ما مَسَّني[7] ، ويَتوهَّمُ أنِّي غُلامٌ[8] .

وقيلَ : سألَ شَقِيقٌ البَلْخِيُّ جعفرَ بنَ محمَّدٍ الصَّادقَ عنِ الفُتوَّةِ ، فقالَ : ما

---

(١) الهِميان : كِيسٌ للنَّفقةِ يُشدُّ في الوَسَط . « القاموس المحيط » (ص ١٢٤٠) .

(٢) في الأصل : (جعفر) .

(٣) في الأصل : (متعذراً) .

(٤) في الأصل : (يده) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١١) .

(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٠) .

(٧) في الأصل : (لا مسني) .

(٨) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٠) .

تقولُ أنتَ ؟ فقالَ شقيقٌ : إنْ أُعطِينا . . شَكَرْنا ، وإنْ مُنِعنا . . صَبرْنا ، فقالَ جعفرٌ : الكِلابُ بالمدينةِ عِندنا كذٰلكَ تفعلُ ، فقالَ شقيقٌ : يا بنَ رَسولِ اللهِ ؛ ما الفُتوَّةُ عندَكُم ؟ فقالَ : إنْ أُعطينَا . . آثَرْنا ، وإنْ مُنِعنا . . شكَرْنا[1]

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٢) .

فصل

[واجبُ الولاةِ حسمُ مادَّةِ الضَّلالِ]

إنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ نَشَرَ أَلويةَ النُّصرَةِ الإماميَّةِ المُستَنصِريَّةِ لحِراسةِ العِبادِ والبِلادِ ، وجعلَ ملوكَ الأَطرافِ خاضِعةً طائعةً للسَّطواتِ الشَّريفةِ الإماميَّةِ ؛ فالحراسةُ مِن حيثُ الظَّاهرُ : العساكرُ المنصورةُ والمماليكُ ، والحِراسةُ العُظمَىٰ للإمامةِ عمَّا يُفسِدُ دِينَهم وعقائدَهم بأنفاسِ أَقوامٍ تَظاهروا بالإسلامِ ، وتَشرَّبَتْ قلوبُهم علومَ الفَلاسفةِ ، فَفَسادُهم يَسري إلىٰ قلوبِهم ، يُزعزِعُهم [1] عنِ العقائدِ السَّلِيمةِ ، ويُحدِثُ عندَهُم عَواقِبَ وَخِيمةً [2]

أنبأنا خليفةُ اللهِ في أرضِه الإمامُ النَّاصرُ لدينِ اللهِ أميرُ المؤمنينَ أبو العبَّاسِ أحمدُ ، عن أبي الحَسنِ عليِّ بنِ عساكرَ ، عن أبي الوقتِ عبدِ الأَوَّلِ ، قالَ : أخبرَنا أبو إسماعيلَ الأنصاريُّ [3] ، قالَ : أخبرَنا أبو يعقوبَ ، قالَ : أخبرَنا العبَّاسُ بنُ أبي الفَضلِ ، قالَ : حدَّثنا يحيى بنُ أَحمدَ بن زِيادٍ ، قالَ : حدَّثنا أحمدُ بنُ أبي كريمةَ ، عن لَيثٍ ، عن مجاهدٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : إذا كانَتْ خمسٌ وثلاثونَ ومئةُ سنةٍ . . خَرج شياطينُ مِنَ البحرِ كانَ سُليمانُ حبَسَها في أَشعارِ النَّاسِ وأَبشارِهم ، يُحدِّثونَ النَّاسَ ليَفتِنُوهم ؛ فاحذَروهُم .

وبالإسنادِ الشَّريفِ إلىٰ أبي يعقوبَ ، قالَ : أخبرَنا العبَّاسُ ، قالَ : أخبرَنا يحيىٰ ، قالَ : حدَّثنا أحمدُ بنُ سَعدٍ ، قالَ : حدَّثنا أحمدُ بنُ سَلمانَ ، عن أحمدَ بنِ كثيرٍ ، عن لَيثٍ ، عن طاووسٍ : إنَّ مَرَدةَ الشَّياطينِ مَغلولونَ في خزائنِ البحورِ ، فإذا كانَتْ ثلاثٌ وثلاثونَ ومئةُ سنةٍ . . أُطلِقوا في صُوَرِ الإنسِ وأَشعارِهم وأَبشارِهم ، فجَادَلوا النَّاسَ بالقرآنِ [4] .

---

(١) في الأصل : (يُزعزهم) .

(٢) في الأصل : (عواقب من وخيمة) .

(٣) أخرجه أبو إسماعيل الأنصاري في « ذم الكلام وأهله » (٧١٥) .

(٤) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٧٢٧) .

وبالإسنادِ إلىٰ طاووسَ قالَ : إذا مَضَتْ ثلاثةٌ وثلاثونَ ومئةٌ . . ظَهَرَت شياطِينُ مِن جَزائرِ البحورِ ، فتهيَّؤوا بهَيئةِ العُلماءِ ، فلا تأخذُوا العلمَ إلَّا ممَّن تَعرِفونَ[1] .

وعن منصورِ بنِ المُعتمرِ ، قالَ : ما هَلَكَ دِينٌ قطُّ حتَّىٰ يَخلُفَ العُلماءَ فيهم المَنانِيَّةُ[2] ، قلتُ للحَجَّاجِ : ما المَنانِيَّةُ ؟ قالَ : الزَّنادقةُ[3] .

وعن زيدِ بنِ رُفَيعٍ ، قالَ : بَعَثَ اللهُ نوحاً وشَرَعَ لهُ الدِّينَ ، فكانَ النَّاسُ في شريعتِهِ ، فما أطفأَها إلَّا الزَّندقةُ ، ثمَّ بَعثَ اللهُ موسىٰ وشَرعَ لهُ الدِّينَ ، فكانَ النَّاسُ[4] في شريعتِهِ ، فما أطفأها إلَّا الزَّندقةُ ، ثمَّ بَعَثَ اللهُ عيسىٰ وشَرَعَ لهُ الدِّينَ ، فكانَ النَّاسُ في شريعتِهِ ، فما أطفأَها إلَّا الزَّندقةُ ، فإذاً ؛ زيدُ بن رُفَيعٍ لا يخافُ علىٰ هٰذا الدِّين إلَّا الزَّندَقةَ[5] .

وحَسْمُ مادَّةِ هٰذا الفسادِ المُتوقَّعِ يَحصُلُ بإبداءِ تَقَدُّمٍ نبَويٍّ إلى المدارسِ بمَدينةِ السَّلامِ برَدْعِ مَنْ يُعلَمُ منهُ اشتِغالُهُ بشيءٍ مِنْ علومِ الفلاسفةِ ، وزَجرِهِ وتَشريبِهِ ، وبذٰلكَ إرساءُ قواعدِ الإسلامِ ، وبانتهاءِ هٰذا التَّقدُّمِ إلىٰ سائرِ دِيارِ الإسلامِ وتَطهيرِ دِيارِ الإسلامِ عن رِجْسِ الزَّنادقةِ ، وفي ذٰلكَ مِنَ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ ما يزيدُ علىٰ سَائرِها ، واللهُ تعالىٰ يزيدُ خَليفةَ اللهِ الإمامَ المُستَنصِرَ باللهِ تأييداً وتسديداً .

---

(١) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٧٢٨) .

(٢) المنانية : هي إحدىٰ فرق الزَّنادقةِ الإحدىٰ عشرة ، وإنَّما سُمُّوا بذٰلك برجلٍ كان في زمنِ الأكاسرة ، وكان يُقال له : ماني . انظر : « الإبانة » لابن بطة (٣٧٩/١) .

(٣) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٦٢) .

(٤) كلمة (النَّاس) زيادة مِن كتابِ « ذم الكلام » .

(٥) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٦١) .

فصل

[في طوري الخِلقةِ والفطرةِ للإنسانِ]

اعلمْ : أنَّ الإنسانَ لهُ طَوْرُ الخِلْقةِ ، وطَورُ الفِطْرةِ .

والفِطرةُ ما أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « كُلُّ إِنْسَانٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ »[1] .

والفِطرةُ الَّتي أجابَتْ[2] في عهدِ الميثاقِ عندَ قولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[3] ، كانَتْ طهارتُها وبراءَتُها مِنْ لَوْثِ الخِلقةِ ، فلمَّا هَبَطَتْ أرضَ الخِلقةِ . . تبدَّلَتْ نُعُوتُها وصِفاتُها ، وأعادَتْها الخِلقةُ كآبةً في مَنظرِ تَصاريفِها ، فمنها انبَعثَتْ قُوى الحَواسِّ ، ثمَّ اكتَسَبَتْ قُوى الحَواسِّ القُوَّةَ الفِطريَّةَ حتَّىٰ أدركَتِ العلمَ ، ولهٰذا المعنىٰ سَرىٰ نورُ الفِطرةِ إلىٰ حَواسِّ إبراهيمَ الخَليلِ عليهِ السَّلامُ ، حتَّىٰ أدرَكَ إحياءَ الموتىٰ ، فأخَذَ أربعةً مِنَ الطَّيرِ كما أخبَرَ القرآنُ ، حتَّى اقترنَ المعقولُ بالمحسوسِ[4] ، فالضَّروريَّاتُ والبَدِيهيَّاتُ هي كَسْبُ الإحساسِ مُستَغنِيةً عنِ البُرهانِ .

فلمَّا طرأَ علىٰ نُورِ الفِطرةِ ـ الَّذي هو مُستودَعُ الضَّروريَّاتِ والبديهيَّاتِ ـ غُبارُ الخِلقةِ . . غابَتِ العلومُ في غاباتِ التَّواري ، فتَسوَّرَ الأذكياءُ إلىٰ تحصيلِ العلمِ بطريقِ البُرهانِ .

والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم تقشَّعَ عن بصائرِهِم غُبارُ الخِلقةِ قبلَ الموتِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨) من حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه ، بلفظ : « كلُّ مولودٍ . . . » الحديثَ .

(٢) في الأصل : (أجاب) .

(٣) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٤) في الأصل : (بالمحوس) .

الطَّبيعيِّ ، فكما أدركوا الضَّروريَّاتِ بغيرِ البُرهانِ . . انكشَفَ لهُمُ العِلمُ بالعِيانِ ، بعَوْدِ الباطنِ إلىٰ نُورِ الفِطرةِ ، واستغنَوْا عنِ البُرهانِ ، ولم يَعلَمِ الجُهَّالُ .

كما أنَّ الضَّروريَّاتِ والبديهيَّات لا حاجةَ في ضَبطِها إلى البُرهانِ ، وأنَّ هناكَ علوماً غيبيَّةً يَضِيقُ عنها مِيزانُ البُرهانِ ، فالحِكمةُ والمُلكُ والشَّهادةُ قِشرٌ وراءَهُ لُبابُ المَلَكوتِ والغيبِ والقُدرةِ .

والرُّسلُ وأتباعُهم ذوو الألبابِ .

ومُدَّعُو الحكمةِ[1] أصحابُ القُشورِ والمُغيَّبونَ في طِباقِ التُّرابِ .

والرُّسلُ صلواتُ اللهِ عليهِم يَسري نورُ الفِطرةِ إلىٰ حواسِّهِم ، ويَهبِطُ نورُ العقلِ إلىٰ نُورِ فطرتِهِم هُبوطَ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ إلى الرُّوحِ الحيَوانيِّ[2] ، حيثُ تَميَّزَ الرُّوحُ الحيَوانيُّ بذٰلكَ عنِ الأَرواحِ الحيَواناتِ .

فهٰكذا هبوطُ نُورِ العقلِ إلى الحواسِّ المُكتَحِلةِ بنُورِ الفِطرةِ ، فيجتمعانِ في الإدراكِ ، فقدْ يكونُ ذٰلكَ الإجتماعُ تارَةً في المنامِ ، وتارةً في اليقَظةِ ، ويَنخَرِقُ المنامُ إلى اليقَظةِ واليقَظةُ إلى المنامِ ، والدُّنيا إلى الآخرةِ والآخرةُ إلى الدُّنيا ، وما بعدَ الموتِ إلىٰ ما قبلَ الموتِ ، وما قبلَ الموتِ إلىٰ ما بعدَ الموتِ ، ويَحدُثُ للإنسانِ الصَّافي الفِطرةِ عِلمٌ لا يُدرِكُ شأوَهُ عَلَمٌ فلسَفيٌّ أبداً .

أخبرَنا الشَّيخُ الثِّقةُ أبو الفَتْح محمَّدُ بنُ عبدِ الباقي ، قالَ أبو الفضلِ حَمْدُ بنُ أحمدَ ، قالَ : أخبرَنا الحافظُ أبو نُعَيمٍ الأصفهانيُّ[3] ، قالَ : أخبرَنا

---

(١) في الأصل : (للحكمة) .

(٢) الرُّوحُ الحيوانيُّ : جسمٌ لطيفٌ مَنبَعُه تجويفُ القلبِ الجسمانيِّ ، وينتشرُ بواسطةِ العروقِ الضَّوارِبِ إلىٰ سائرِ أجزاءِ البدنِ . انظر « التعريفات » للشريف الجرجاني (ص ١١٢) .

(٣) في « حِلية الأولياء » (٣٠٣/٣) ، وأخرجه أحمد في « المسند » (٦٥٦٣) والترمذي (٢١٤١) والنَّسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٠٩) مِن حديثِ سيدنا عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما .

أبو جعفرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ[1] ، قالَ : حدَّثنا عمرُ بنُ محمَّدٍ البزَّارُ[2] ، قالَ : حدَّثنا محمَّدُ بنُ المُثنَّىٰ[3] ، قالَ : حدَّثنا عبدُ الوهابِ بنُ عبدِ المجيدِ ، قالَ : حدَّثنا عبدُ الوهابِ بنُ مجاهدٍ[4] ، قالَ : سمعتُ مجاهداً يُحدِّثُ عنِ ابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، قالَ : خَرجَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ كأنَّهُ قابضٌ علىٰ شيءٍ قدْ ضُمَّ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ أصحابِهِ ، ففتحَ يَمِينَهُ ، فقالَ : « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، هَـٰذَا كِتَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ ، مُجمِلٌ عَلَىٰ آخِرِهِمْ ، لَا يُزادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ » .

وهٰذه[5] قصَّةُ عُزَيْرٍ عليهِ السَّلامُ ، وقولُ اللهِ تعالىٰ لهُ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[6] .

هٰذا كَشْفُ اللهِ تعالى القُدرةَ في عالمِ الحكمةِ ، وتَنحِيةُ حِجابِ الحِكمةِ عن وَجهِ القُدرةِ ، وتَعجِيلُ الآخرةِ في الدُّنيا ، وطَيُّ أَطوارِ الحِكمةِ لهم في أقلَّ مِنْ لَمحةٍ ، ثمَّ إسبالُ سُجُفِ الحِكمةِ علىٰ وَجهِ القُدرةِ ؛ ليَعودَ الإنسانُ إلىٰ هيئتِهِ مُلتبِساً بأَسبابِ الحِكمةِ ، غائِصاً في بِحارِ الأفْكارِ المُظلِمَةِ المُستَضيئةِ بنُورِ البُرهانِ الَّذي يَنطَفِئُ لهُبوبِ عَواصِفِ المَوتِ الطَّبيعيِّ ، ولكَ شَأنٌ ولهم شَأنٌ ، لكَ بُرهانٌ ولهم عِيانٌ .

هَـوَاكَ نَـجْـدٌ وَهَـوَايَ ٱلـشَّـامُ وَذَا وَهَـٰذَا قَـطُّ لَا يَـلْـتَـامُ[7]

---

(١) في « حلية الأولياء » : (أبو جعفر أحمد بن جعفر بن معبد) .

(٢) في « حلية الأولياء » : (أحمد بن عمرو البزَّار) .

(٣) في « حلية الأولياء » : (محمَّد بن أبي المسور) .

(٤) في الأصل : (محمَّد) ، والمثبتُ مِنَ « حلية الأولياء » .

(٥) في الأصل : (وهٰذا) .

(٦) سورة البقرة : (٢٥٩) .

(٧) من الرجز ، وانظر « المدهش » (١/٤٣٧) .

وَرَد في الخبرِ عن رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إذَا سَجَدَ ٱلْعَبْدُ . . طَهَّرَ سُجُودُهُ مَا تَحْتَ جَبْهَتِهِ إلَىٰ سَبعِ أَرَضِينَ »[1]

تفكَّرْ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ في هٰذا الحديثِ ، كيفَ يُطهِّرُ السُّجودُ ما تحتَ جَبهتِه إلىٰ سَبعِ أرَضِينَ ، وأنتَ لو كانَ تحتَ سَجَّادتِه نجَاسةٌ . . لَمْ تحكُمْ بطَهارتِها ؟! فأسرارُ هٰذه الأخبارِ وعُقَدُ هٰذه الأشكالِ لا يَنحَلُّ إلَّا بنُورِ مُتابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والاقتداءِ بهِ ؛ ليَطلُعَ مِنْ مَطالعِ مِشكاةِ النُّبوَّةِ شَمسٌ تَطوِي بسَائطَ ظُلمةِ الجَهَالةِ بالأسرارِ .

وأنا أُومِئُ إلىٰ نُبذةٍ مِنْ هٰذا السِّرِّ ، ولا يَنفَهِمُ لكَ ذٰلكَ إلَّا بعدَ أنْ تعلمَ أنَّ الإنسانَ في تَركيبِهِ بعدَ تَقلُّبِهِ في الأطوارِ ينتهِي إلىٰ عَهدِ تخَمُّرِ طِينِهِ ، مَبدؤُهُ بَدَاءِ القُدرةِ ، فيُعلمَ أنَّ في التَّخميرِ استِخراجَ ما[2] تحت السَّماواتِ والأَرَضِينَ الَّتي انعَجَنَتْ عندَ التَّسويةِ فيهِ مِن طَريقِ التَّخمِيرِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[3] ، ثمَّ نَفَخَ فيهِ الرُّوحَ ، فسَرَى النُّورُ في الدِّماءِ والأبشارِ ، وأعطى القُوَّةَ الإنسانيَّةَ مِنَ النَّفسِ النَّاطقةِ رُتبةَ العُروجِ والهُبوطِ .

وأنَّ إبليسَ يَهبِطُ إلىٰ مَهْواةِ البُعدِ ؛ غُيِّبَ في سَبعِ طَبقاتِ الأَرَضينَ ، ويُعرَفُ سِرُّ ذٰلكَ في رَمْيِ سَبعِ حَصَياتٍ عندَ تجديدِ العَقدِ والعَهدِ[4] الأوَّلِ[5] في أمرِ الشَّرعِ بالحَجِّ ، وإنْ كانَ حَصَاهُ في دَفعِ وَثْبةٍ مِنْ وَثَباتِ الشَّيطانِ ، ويَرتبطُ بهٰذا

---

(١) أخرجَه العُقَيلي في « الضُّعفاء » (٤٤٢/١) ، والطَّبرانيُّ في « الأوسط » (٤٩٥١) مِن حديثِ سيدتنا عائشةَ رضي الله عنها .

(٢) كلمة (ما) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) سورة الحجر : (٢٩) .

(٤) في الأصل : (العهد) بحذفِ واو العطفِ .

(٥) يُقصد بالعَقدِ والعَهد : الميثاقَ المأخوذَ علىٰ بَني آدمَ ألَّا يُشركوا ، في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

الإطِّلاعُ علىٰ سَبعِ تكبيراتٍ في أوَّلِ صَلاةِ العِيدِ وخمسٍ في الثَّانيةِ ، ويُدرِكُ أَهلُ اللهِ تعالىٰ والرَّاسِخونَ في العلمِ ذٰلكَ بإيمانٍ راحَ بإيماءِ الأَرواحِ ، والشَّرحُ يطولُ .

وعلىٰ ذٰلكَ تَبيَّنَ أنَّ الذُّنوبَ كَبائرَها وصَغائرَها مُقسَّمةٌ علىٰ طَبقاتِ الأَرضِ ، وأنَّ الطَّاعاتِ مُقسَّمةٌ علىٰ طَبقاتِ السَّماواتِ ، فمَنْ كانَتْ ذُنوبُهُ مِنَ الكَثافةِ في الطَّبقةِ السَّابعةِ مِنَ الأَرضِ . . ترَقَّىٰ طَاعاتُه إلى السَّماءِ الأُولىٰ ، فإذا لَطُفتِ الذُّنوبُ وصارَتْ في الطَّبقةِ السَّادسةِ . . تَرتَقِي طاعاتُهُ إلى السَّماءِ الثَّانيةِ ، فعلىٰ قدْرِ لَطافةِ الذُّنوبِ يكونُ العُروجُ بنُورِ الطَّاعاتِ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[1] .

فإذا عَلِمْتَ هٰذا السِّرَّ وتدبَّرتَهُ . . عَلِمتَ أنَّ العَبدَ طهَّرَ سُجودُهُ ما تحتَ جَبهتِهِ إلىٰ سَبعِ أَرَضِينَ ؛ لأنَّهُ بِضَراعتِهِ في السُّجودِ يُؤهِّلُ لرُتبةِ القُربِ مِنْ سِرِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[2] ، فالإطِّلاعُ علىٰ هٰذا السِّرِّ وأَمثالِهِ مِن بَرَكةِ مُتابعةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . اطِّلاعٌ علىٰ شيءٍ مِن أَمرِ الغَيبِ الَّذي لِعامَّةِ المؤمنينَ الإيمانُ به ، وللأَبرارِ والمُقرَّبينَ عِلمٌ بذٰلكَ ، وللصِّدِّيقِينَ ورؤساءِ المُقرَّبينَ شيءٌ مِنَ الكَشفِ والعِيانِ ، فمَواهِبُ اللهِ تعالىٰ للصِّدِّيقِينَ مِن تمامِ مُعجِزةِ النَّبيِّ ، ونُبوَّةُ الرُّسُلِ سَببٌ بإخبارِهِم عنِ الغَيبِ ، فيكونوا بذٰلكَ أَهلَ الكَشفِ والعِيانِ ، وليسوا كمَن أَظلَمَ عليهمُ الكونُ ، فاسترشَدوا بضَوءِ البُرهانِ ، وعندَ ذٰلكَ يقالُ : أَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

---

(١) سورة فاطر : (١٠) .

(٢) سورة العلق : (١٩) .

فصل

استكشف من قوله تعالى: «ألا له الخلق والأمر»[1]

فتكوينٌ إلهيٌّ في عالمِ الأمرِ بواسِطةِ الرُّوحِ الأعظمِ ونفسِ الكُليّ، والتَّكوينُ في عالَمِ الغَيبِ.. الخَلقُ بواسِطةِ الأركانِ والأُمَّهاتِ؛ وهي النَّارُ والهواءُ والماءُ والتُّرابُ، فانْكمَنَ سِرُّ النَّارِ والهواءِ في آدمَ، وسِرُّ الماءِ والتُّرابِ في حوَّاءَ، ثمَّ انقَسَمَ فانْكمَنَ الرُّكنانِ:

النَّارُ والهواءُ في الرُّوحِ، والماءُ والتُّرابُ في النَّفْسِ.

فالرُّكنانِ الأوَّلانِ مِن تحتِ السَّماءِ، والرُّكنانِ الآخَرانِ مِن تحتِ الأَرضِ.

ثمَّ الرُّكنانِ الأوَّلانِ في الرُّوحِ بطريقِ الأصالةِ[2]، وفي النَّفْسِ بطريقِ التَّبَعِيَّةِ.

ثمَّ أودَعَ تلكَ الأَسرارَ في آدَمَ وحَوَّاءَ بطَريقِ الرُّوحِ والنَّفسِ وواسطتِهما، ثمَّ تقسَّمَ، وتخيَّرَ الأنوثةَ في حَوَّاءَ، والذُّكورةَ في آدمَ، ثمَّ صارا أَصلَيْنِ في تكوينِ الكَائناتِ في عالَمِ الخَلقِ والأَفلاكِ والنُّجومِ والعَناصرِ والمُركَّباتِ والبسَائطِ، ورَلائدِ هَذيْنِ؛ أَعني: الرُّوحَ والنَّفْسَ.

وكلُّ هذا شَرحُ تكوينِ عالَمِ الخَلقِ، وهو مَيدانُ جَوَلانِ طَرْفِ نَظَرِ الفَلاسفةِ، فلمْ يحظوا إلَّا بما حَصَلَ في مِيزانِ البُرهانِ، وانقطَعَ سَيْرُهُم عندَ العِلَّةِ الأُولى الَّتي هي مُكوِّنةٌ بمَشيئةٍ واحِدةٍ مِنَ المشيئاتِ الأَزليَّةِ الَّتي انقسَمَتْ بالنِّسبةِ إلى الكَائناتِ، وتوَحَّدتْ بالنِّسبةِ إلى الإرادةِ الأَزليَّةِ.

وقِفْ ها هنا وانحصِرْ في مَضِيقِ الصِّفاتِ السَّبعةِ، ثمَّ ارتقِ إلى التِّسعةِ

---

(١) سورة الأعراف: (٥٤).

(٢) هنا تنتهي الورقة (١٣٦)، وتبدأ الورقة (١٤١).

وتسعينَ اسماً ، واجعَلْ كُلَّ اسمٍ صِفةً مِنَ الصِّفاتِ تعَدَّدَتْ بتَعدادِها ، ولكُلٍّ منها مُتعلَّقٌ بتكويناتِ العَوالمِ تِسعةٌ وتِسعونَ ، كما أنَّ الأَسماءَ تِسعةٌ وتِسعونَ .

وهٰذا العِلمُ اختَصَّ بهِ نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو أَقصَىٰ ما احتَوَتْ عليهِ علومُ الأَنبياءِ ، ومِنْ وَراءِ تلكَ عَوالمُ في طَيِّ الغيوبِ استَأثرَ اللهُ تعالىٰ بها ، ولمْ يوسِّعْ لها إدرَاكاتِ الأَنبياءِ ؛ لتَستَقِلَّ أَنتَ أيُّها الفَلسفيُّ عِلمَكَ وإدرَاكَكَ بالنِّسبةِ إلى العلومِ ، فلا تَغتَرَّ بإدراكِكَ وإحاطتِكَ بعلمِ الهيئةِ وأَبعادِ الأَفلاكِ مِن كُرةِ الأَرضِ الكُريَّةِ[1] ، معَ غَيْبتِكَ وجَهلِكَ بالأَراضي السَّبعةِ .

ثمَّ اعلمْ أنَّ إدراكَكَ لعلومِ بواسِطةِ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ جُزءٌ مِن أَجزاءِ السِّحرِ تعليماً بواسِطةِ القَهرِ الأَزليِّ ـ كتعليمِ السِّحرِ لهاروتَ ومارُوتَ ـ مُوجِبٌ ذٰلكَ الطَّردَ والبُعدَ ، وقدْ وَرَد في الخبرِ : أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ تَعَلَّقَ بِشُعْبَةٍ مِنَ ٱلنُّجُومِ . . فَقَدْ تَعَلَّقَ بِشُعْبَةٍ مِنَ ٱلسِّحْرِ »[2]

فيا صاحِبَ البُرهانِ ؛ مَن سَارَ إلىٰ مَقالَتِكَ المُفْضِيَةِ إلىٰ إنكارِ الجنَّةِ والنَّارِ والبَعثِ والنُّشورِ لخَارجةٍ ممَّا أَتىٰ بهِ الأَنبياءُ[3] . . فقدْ كَفَرَ ، ولٰكنْ أَنت تُظاهِرُ بالكُفرِ ، ومَنْ لا يُنكرُ كُفرَكَ واستغشىٰ ثيابَ الكُفرِ . . فهو[4] مِن مَخانيثِ الكَفَرةِ .

---

(١) في الأصل : (الكُري) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) من حديثِ سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، بنحوه .

(٣) لعل العبارة : (الخارجةِ عما أتىٰ به الأنبياء) وصف للمقالة .

(٤) في الأصل : (وهو) .

فصل

[في الردِّ على الفلاسفةِ في زعمِهم أنَّ البرهانَ احتوىٰ علىٰ سائرِ العلومِ]

يا معشرَ الجَهَلةِ الفلاسفةِ ؛ تزعمونَ أنَّ البُرهانَ احتَوىٰ علىٰ سائرِ العلومِ ، وكلَّ ما أَخبَرَ به القرآنُ ليسَ بمُبَرْهَنٍ ؛ فلا حاصِلٌ للقُرآنِ مِنَ العِلمِ شيءٌ ، فكلُّ الأَنباءِ تَمويهاتٌ ؛ ممَّا ذُكِرَ في النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ ، وهٰذا عَينُ الزَّندقةِ والإِلحادِ ، والطَّردِ والإِبعادِ ، ورأيَ العَينِ أَدركتُم احتِواءَ الضَّروريَّاتِ والبَديهيَّاتِ الَّتي هي أَقوَى الرُّتَبِ في الإِدراكِ ، ولذٰلكَ طَلَبَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ الإِدراكَ بالحسِّ .

إنَّما ثَبَت بحِسٍّ أنَّ[1] للنَّفسِ بعدَ دُثورِ القَالَبِ إدراكاتٍ محسوسةً ؛ لأنَّ الحِجابَ كانَ وَصفَ الخِلقةِ مُدَّةَ البقاءِ في الدُّنيا ؛ لبقاءِ حِجابِ الخِلقةِ ، وبانقشاعِ غَمامِ الخِلقةِ عن وَجهِ شمسِ خِلْقةِ الفِطرةِ ؛ فظَهَرَ المحسوسُ ، وصارَ المُدرَكُ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ محسوساً ؛ إمَّا نعيماً ، وإمَّا عذاباً أَليماً ، إنشاءً بوَصفِ اللُّطفِ والقهرِ الأزليِّ .

وكيفَ السَّبيلُ إلىٰ تَعطيلِ النَّفسِ عنِ الإِدراكِ بعدَ بقائِها بعدَ الدُّثورِ إدراكاتٍ مُتَّصِلةً مِنْ عَهدِ البَرْزخِ إلى القِيامةِ ؟ والجَاهلُ يَحسَبُ البقاءَ الدُّنياويَّ سَرْمَديّاً[2] ، ولا يعلمُ أنَّهُ مَزرعةُ الآخرةِ ، والجهلُ بالأمورِ الأُخرَويَّةِ مَركوزٌ في جِبلَّةِ الفلاسفةِ ، لا زوالَ لهُ ؛ لأنَّ بقاءَهُ وفاءٌ لوصفِ القَهرِ الأزليِّ ، والَّذي استَخرجُوهُ بالبُرهانِ وثَبَت بِتَدبُّرِهم زائلٌ بالموتِ الطَّبيعيِّ ، لا يعودُ إليهِ البُرهانُ أَبَدَ الآبادِ ، ويَبقَى المحسوسُ مُسَرمداً ، فالمحسوساتُ الأُخرَويَّةُ مُسَرْمَداتٌ ؛ لأنَّ المحسوساتِ الأُولىٰ[3] أنشَأَتْها للفِطَرِ الصَّالحةِ ، والبَاري سُبحانَهُ وتعالىٰ

---

(١) كلمة (أن) تكررت في الأصل .

(٢) في الأصل : (سرمدي) .

(٣) في الأصل : (الأوَّلة) .

جَعلَ لها محسوساتٍ ، فعَادَ المبدوءُ بهِ للأبَديَّةِ[1] ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ وَهَب للإنسانِ وجوداً جَعَل لهُ إدراكاً بالبديهةِ والضَّرورةِ ، ولمْ يجعَلْ لهُ مُنقَطعاً ومُنتَهىً .

وهٰذا العِلمُ المُستَمِيحُ مِن بَحرِ مِشكَاةِ العِلمِ ، أَتَىٰ على العِلَّةِ الأُولىٰ[2] فأبطلَها وأَبطلَ كَمالَها ، فكَونُهُ جَعلَها النَّفسَ الكَاملةَ ومُنتَهى الكَائناتِ الشَّهاديَّةِ إليها ، وعندَها وقَفَ ، فلمْ يَثبُتْ لشيءٍ آخرَ وجودٌ ؛ لأنَّها مُنتهىٰ إدراكِهم ، فجَعلَ النَّفسَ الكُلَّ مَعلولاً علىٰ أنَّ تكُونَ الرُّوحُ عِلَّةً ، وبَطَلَ أنْ تكُونَ الرُّوحُ عِلَّةً ، فبَطَلَ أنْ تكونَ النَّفسُ معلولةً ، والمعلولُ بزَعْمِهم لهُ طَرَفٌ إلى الإيجابِ وطرَفٌ إلى الإمكانِ ، وهٰذهِ رُتبةُ[3] النَّفسِ الكُلِّي ، ولمْ يعرِفوا غيرَها ، والرُّوحُ الأَعظمُ هو الرُّوحُ الَّذي كَوَّنَهُ الحقُّ فأَدركَهُ الأنبياءُ ، فالتَّكثُّرُ وَصفُ النَّفْسِ بطَريقِ إمكانِهِ ، والتفطُّرُ بالرُّوح عبَّرَ عنهُ الجُهَّال بوَصفِ إيجابِهِ ، وأَهملوا إدرَاكَ واجبِ الوُجودِ والأَوصافِ المُتعدِّدةِ ، فلم يُثبِتوا لهُ الأَوصافَ الَّتي تَدُلُّ علىٰ تكوينِ الرُّوحِ والنَّفْسِ النَّاطقةِ ، الَّتي أُبِينَتْ مِنَ الرُّوحِ كإبانةِ حوَّاءَ مِنْ آدمَ .

فقُلْ للفلاسفةِ حتَّىٰ يَغرَقوا في تَيَّارِ هٰذا البيانِ ، ويأنَسوا إلى الِاستعدادِ للعَذابِ الأليمِ ؛ فهٰذا القُطرُ مَعمورٌ بهم ، كما القُطرُ الآخَرُ مَعمورٌ بالرُّسلِ والأنبياءِ ؛ لأنَّ الكَمالَ الأزليَّ يَقضِي بالِاعتدالِ في الوَصفَيْنِ تكويناً وتسَرمُداً .

---

(١) في الأصل : (الأبديّة) .

(٢) في الأصل : (الأوّلة) .

(٣) في الأصل : (رتبةُ الرُّتبةِ) .

فصل

[في بيانِ جهلِ الفلاسفةِ بحقائقِ الكائناتِ]

اعلمْ : أنَّ حُكماءَ الفلاسفةِ نَهَضوا للبَحثِ والتَّفتيشِ عن كُنْهِ الكَائناتِ قبلَ قِسمتِهمُ الأَجسادَ والأَعراضَ والجَواهِرَ ، فرَأَوُا التَّكثُّرَ عنِ المُمكناتِ ، والموجودُ الَّذي عنهُ التَّكثُّرُ لا بدَّ لهُ مِن مُوجِبٍ ، فاتَّخَذوا شيئاً وسَمَّوْهُ : عِلَّةَ العِلَلِ ، وقالوا : هٰذا المُمكِنُ الواجِدُ أوجَبَتْهُ[1] هٰذه العِلَّةُ ، فلما ظَفِروا بإدراكِ مُوجِبٍ ليَنسُبوا إليهِ المُوجَبَ . . قالوا : هٰذا المُوجِبُ لهٰذا الموجَبِ هو عِلَّةُ العِلَلِ .

وانتهىٰ سَيرُهم ، واكتفَوْا بذٰلكَ ، فعادوا قَهْقَرىٰ ، ورَجَعوا إلىٰ وَرا ، ورَجدوا للنَّفسِ الكُلِّ وصفاً آخرَ ؛ وهُو الإمكانيَّةُ ، فوَقعوا بعدَ ذٰلكَ في تَفتِيشِ ما يُحكِمُ أَساسَهُم وأمرَهُم[2] ، فبَذلوا التَّلاميذَ على البَحثِ في الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ حتَّىٰ أَحْكَموها ، فبعدَ ذٰلكَ قَبِلوا منهُم ما أَشاروا إليهم في الإلٰهيَّاتِ ؛ كمَن يَسلُك بمَنْ يتَّبِعُه في أَرضٍ ذاتِ أَعلامٍ ، ويَهتَدِي إلى الطَّريقِ بالأَعلامِ ، فلمَّا وصَلَ إلىٰ بيدَاءَ عَمياءَ لا عَلَمَ بها . . خَرجَ إرشادُهُ خَطأً ودَلالتُهُ باطِلاً .

هٰكذا هَلَكَ التَّلامِذةُ بإرشادِ الأُستاذِينَ ، وانسَحَبَ عليهِم هٰذا الهَلاكُ في الأَعصارِ والدُّهورِ بعلومٍ أحاط بهم سرادقها .

وحَكمَتْ علومُهُم بالجَهلِ بحَالِ الأَنبياءِ ، وبما أخبَروا بهِ في الكتُبِ السَّالفةِ والقرآنِ المجيدِ ، واستَجْهلوا أَهلَ الإيمانِ ، وجَهلوا طريقَ اقتباسِهم مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّاتِ ، فلذٰلكَ جَهِلوا أنَّ مَنبَعَ علومِهِم الضالةِ[3] مِن أين ؟ ومنابعَ علومِ الأنبياءِ

---

(١) في الأصل : (أوجبه) .

(٢) الواو زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) في الأصل : (الضلالة) ، ولعل الصواب ما أثبت .

مِن أينَ ؟ وجاءَ خَلَفُهُم ونَسَجُوا علىٰ مِنْوالِ سَلَفِهِم مِنَ اليونانيّينَ والهندِ ، ولم يَتبَيَّنْ لهم وَجهُ ضَلالِهم .

وجاءَ قومٌ مُستَبِرونَ بالإسلامِ ، وَزَنُوا قِسطاً[1] مِنَ الذَّكاءِ والفِطنةِ ، فطالَعوا علومَهم ، فعَلِقَ بهِم دَاؤُهم[2] ، وعَدا إليهم ضَلالُهُم ، وصنَّفوا مُصنَّفاتٍ زَوَّجوها[3] بامتِزاجِها بشيءٍ مِنْ أُصولِ الدِّينِ ، ولا امتزاجَ على الحقيقةِ كما لا يَمتَزِجُ المَاءُ بالدُّهنِ ؛ إذْ أصولُ الدِّينِ في حِصنِ الكتابِ والسُّنَّةِ ، ولٰكنْ قَصَدوا بالامتزاجِ إيداعَ[4] العِلَّةِ في القلوبِ عَسِرَةِ العِلاجِ ، فإذا اعتَبرَهمُ المُعتبِرُ . . يراهُم[5] مُقلِّدِينَ لأوائِلِهم .

فتَولَّدَت مِن أفكارِ الخَلَفِ علومٌ أيَّدَتْ ما قالَ سَلَفُهُم ، فكَثُرَتِ المُصنَّفاتُ ، وتشعَّبَتِ الضَّلالةُ ، وتركَّمَتِ الجَهالاتُ كسراب بقيعة يحسبها الظمآن ماء .

وربَّما جَعَلوا لعُلومِهم في المُصنَّفاتِ قُمُطاً ومُلِفَّاتٍ مِن حُسنِ العِبارةِ ؛ فاغترَّ بذٰلكَ قَومٌ مِنَ الجُهَّالِ ، فكَفروا بمُجرَّدِ تخيُّلٍ فاسدٍ ووَهْمٍ باطلٍ .

---

(١) في الأصل : (قطساً) .

(٢) في الأصل : (دواءهم) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٣) في الأصل : (زوَّجها) .

(٤) في الأصل : (إبداع) .

(٥) في الأصل : (يراه) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

فصل

[في عدمِ إنكارِ العلومِ المبرهنةِ]

مِنْ أَعظمِ الفِتَنِ المُولِّدةِ للضَّلالاتِ ما دَقَّق الفلاسفةُ النَّظَرَ فيهِ مِنَ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ المُبرهَنةِ ببراهينَ واضحةٍ لا سبيلَ إلىٰ إنكارِها ، ورُبَّما قومٌ مِنْ أهلِ الإيمانِ ـ لسلامةِ قلوبِهم ـ يُنكِرونَها ؛ فيَستَجْهِلُهُم أَتباعُ الفلاسفةِ .

والحُذَّاقُ مِن أَهلِ الإيمانِ لا يُنكِرونَ العلومَ المُبرهَنةِ ، ولٰكنْ يَعلمونَ أَنَّ ذٰلكَ حَدُّ مَطارحِ نَظرِهِم ومَسارِحِ عِبَرِهِم ، ولٰكنْ قَنَعوا مِنَ العلمِ بالحظِّ اليسيرِ ، والنَّزْرِ الحقيرِ ، فأينْ هُم مِنْ علومِ الأَنبياءِ الَّتي انعكسَتْ في مَرائي قلوبِهِم جُمَلُ علومِهم ، وأَصلُها الَّذي علومُ الفلاسفةِ فَرْعُهُ وشُعَبُه وأَوشالُه ؟! فلمَّا رأىٰ مَنْ أرادَ اللهُ تعالىٰ بهِ الضَّلالَ تلكَ المُبَرهَناتِ . . قلَّدهم في الإلٰهيَّاتِ ، فكانَتْ هٰذه مِن أَعظمِ الفِتَنِ .

فصل

[في ضيقِ علومِ الفلاسفةِ]

طارَ طائرُ أفكارِ الفلاسفةِ حتَّى انتهَوا إلىٰ قَفْرٍ مُتناهي الأَطرافِ ، انتهَتْ أطرافُهُ إلىٰ أَفكارِهِم ؛ فسَمَّوهُ : عِلَّةَ العِلَلِ ، وغَرِقُوا في بحارِ أفكارِهِم ، وفَنِيَتْ أعمارُهُم ، وانقَطَعَ سَيرُهُم دونَهُ ، وجَهِلوا كُنهَ الأَزلِ والأَبدِ ، وقضَتْ علومُهُم بمَعلوماتٍ مُنقطعةِ المَدَدِ ، وهل يُتصوَّرُ في علومِهِم ألَّا يكونَ للهِ تعالىٰ إلَّا مَشيئةٌ واحدةٌ ؟! وهلْ يَعلَمونَ غيرَ ذٰلكَ ؟!

ولمْ يعلمْ هٰؤلاءِ الجَهلةُ سِرَّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[1] .

فلو فهِموا معنىٰ ذٰلكَ ، وأدركوا طَورَهُ . . أحاطوا عِلماً بما لمْ يَمُرَّ[2] بخَواطِرِهِم أَبداً ؛ فمَعنىٰ ذٰلكَ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ الإنسانَ وأودَعَ فيهِ ما صارَ بهِ مُحاكِياً لكَمالِ اللهِ تعالىٰ ؛ وذٰلكَ أنَّهُ كَوَّنَهُ مُشتَمِلاً على القُوَّةِ النُّزُوعيَّةِ المُشتَمِلةِ[3] المُقتسمةِ على الغَضَبيَّةِ والشَّهَويَّةِ ، بخلافِ الملائكةِ ؛ إذْ هم غيرُ مُشتَمِلينَ على الصِّفتَينِ ؛ بلْ هُم إمَّا ملائكةُ الرَّحمةِ فحَسبُ ، أو ملائكةُ العَذابِ فحسبُ .

فالإنسانُ ـ باشتمالِهِ علىٰ هاتَينِ الصِّفتينِ ـ مُحاكٍ اللهَ تعالىٰ ؛ للقهرِ الَّذي هو فوقَ قهرِ الإنسانِ ، واللُّطفِ الَّذي هو فوقَ لُطفِ الإنسانِ ، حتَّىٰ لا يُشبِهُهُ شيءٌ[4] ، فعندَ هٰذا ثَبِّتْ ـ ولا تُشَبِّهْ[5] شيئاً ـ قَدَمَكَ[6] ، واخرُجْ مِنْ دَائرةِ حَدِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في الأصل : (تمر) .

(٣) في الأصل : (المشملة) .

(٤) في الأصل : (شيئاً) .

(٥) في الأصل : (يشبه) .

(٦) تحتملُ العبارةُ قراءةً أخرىٰ : (ولا تشبه شيئاً قد مات) .

عِلمِكَ ، وقِسْ على هٰذه المُحاكاةِ مُحاكاةَ الإنسانِ بمَشيئاتِهِ المُتعدِّدةِ في إحداثِ أفعالِهِ المُتكرِّرةِ مَشيئاتِ إلٰهيَّةً[1] غيرَ مُتناهيةٍ في تكوينِ كائناتٍ في عَوالمَ غيبيَّةٍ غيرِ مُتناهيةٍ ، وتطرَّقْ إلىٰ ذٰلكَ بما وَرَدَ[2] : أنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ يَغوصُ في عَيْنٍ تحتَ العَرشِ ، ثمَّ يَصعَدُ فينتَفِضُ انتفاضةً يُخلقُ مِن كلِّ قَطرةٍ منها مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ يطيرُ إلىٰ يومِ القيامةِ ؛ حتَّىٰ تَفهمَ مِن ذٰلكَ مَشيئاتٍ مُتعدِّدةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وعَوالمَ مُكوَّنةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ؛ بينَ أزلٍ لا نهايةَ لهُ ، وأبدٍ لا نهايةَ لهُ[3] .

فإنْ مرَّ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ شيءٌ مِنْ هٰذا بمَشَامِّ فِطنتِكَ . . فاعلمْ أنَّ الَّذي سمَّيتَه : عِلَّةَ العِللِ . . نتيجةُ مشيئةٍ واحدةٍ مِنَ المَشيئاتِ الأزليَّةِ ، انبسطَتْ وأنتجتِ المعلولَ الأوَّلَ والثَّانيَ والثَّالثَ والرَّابعَ مِنَ العقلِ والنَّفْسِ[4] ، حتَّى انتَهَىٰ إلىٰ غايةِ مَفهومِكَ ، ثمَّ انقطَعْتَ ، وعندَ هٰذا القولِ يَستَحْيِي أرسطاليسُ وأفلاطونُ مِن علومِهِم والجمعُ الَّذينَ حَصَرَهم أربابُ التَّصانيفِ في تَصانيفِهم ، واعتَدُّوا بعُلومِهِم ، واعتَقدُوا أنَّهُم ظَفِرُوا بالصَّحيحِ ، وما رَدَّهُم عنِ الِاعتقادِ فيهِم اضطِرابُ أنحائِهِم وتَشَعُّبُ آرائِهِم ، وما علِموا بذٰلكَ وَهْنَ أساسِهِم ، ويُنيانُهُم علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ فانهارَ بهِ في نارِ جهنَّمَ .

---

(١) في الأصل : (الإلٰـهيَّة) .

(٢) أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ في « التَّفسير » كما في « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤٢٨/٧) ، قال : (حدَّثنا أبي ، حدَّثنا هشام بن عمَّار ، حدَّثنا الوليدُ بنُ مسلم ، حدَّثنا روح بن جناح ، عن الزُّهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبي هريرةَ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « في السَّماء السَّابعة بيت يُقال له : المعمور ؛ بحِيالِ الكعبةِ ، وفي السَّماء الرابعةِ نهرٌ يقال له : الحيوانُ يدخلُه جبريلُ كلَّ يومٍ ، فيَنغَمِسُ فيه انغماسةً ، ثمَّ يخرجُ فيَنتَفِضُ انتفاضةً يَخِرُّ عنه سبعونَ ألفَ قطرةٍ ، يخلُقُ اللهُ مِن كلِّ قَطرةٍ مَلَكاً يُؤمرونَ أن يأتوا البيتَ المعمورَ ، فيصلوا فيه فيفعلونَ ، ثمَّ يخرجونَ فلا يعودونَ إليه أبداً ، ويولِّي عليهم أحدَهم ؛ يؤمَرُ أن يَقِفَ بهم مِنَ السَّماءِ موقِفاً يُسبِّحونَ اللهَ فيه إلىٰ أن تقومَ السَّاعةُ) .
وانظر : « الحبائك في أخبار الملائك » للسُّيوطي (ص ١٣ ـ ١٦) .

(٣) كلمة (له) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٤) في الأصل : (العقل والنَّفس والعقل) .

فصل

[حوارُهم في النشأةِ الأولىٰ]

نورٌ لَمُوعٌ مُقتبَسٌ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ المحمَّديَّةِ يَفُضُّ خِتامَ الحُجَّةِ الواضِحةِ المُقحمةِ لمعاشرِ الفلاسفةِ اليُونانيَّةِ والهندِ ، ويَغسِلُ دَرَنَ[1] مُصنَّفاتٍ مُشتَمِلةٍ علىٰ علومٍ مُقتبَسةٍ مِن أَدخِنةِ نارِ أنفاسِهم الكَدِرةِ ، أخطؤوا الطَّريقَ فيها وفي إثباتِها ، حتَّىٰ جمْعٌ مِنَ المُنتَمينَ المُترسِّمينَ بالإسلامِ اعتَدُّوا بها ؛ فمِنهُم تائبٌ رَاجِعٌ عمَّا قالَ ، ومنهُم مُتظاهِرٌ بالإسلامِ مُدنِّسٌ سَرِيرَتَهُ بعُلومِ الفَلاسفةِ ومُعتَقِدٌ لها ، مُعتَدٌّ بالبُرهانِ ، مُكتَفٍ بهِ ، مُنكِرٌ لكُلِّ ما لا يدخُل تحتَ مِيزانِ البُرهانِ .

فأقولُ : يا إخوانَ الجِنسيَّةِ بطريقِ الإنسيَّةِ ، لا بطريقِ الدِّينيَّةِ والعَقليَّةِ ؛ إنَّ حُجَّةَ اللهِ تعالىٰ عَظُمَتْ عليكُم ، يا معاشرَ الفلاسفةِ ، والثِّقةُ[2] محمودةٌ ؛ وذٰلكَ بأنْ تَعلَموا أنَّ اللهَ تعالىٰ أبرَزَ الموجوداتِ مِنَ العَدمِ ، وقَسَمَها شُهَّداً وغُيَّباً ؛ ليُستدَلَّ بالشَّاهدِ على الغَائبِ ؛ فعالَمُ المُلكِ ودارُ الدُّنيا عالمُ الشَّهادةِ ، والآخِرةُ هي دارُ القَرارِ عالَمُ الغَيبِ ، وجعلَ أيَّامَ الدُّنيا ذاتَ قِصَرٍ ، قليلةَ المَدَىٰ ، سَريعةَ الزَّوالِ ، وَشِيكةَ الِانتقالِ ، والآخرةَ مَديدةَ المَدَىٰ ، دائِمةَ البقاءِ .

جَعلَ المُكوِّناتِ في هٰذه الدَّارِ ـ يعني : الدُّنيا ـ علىٰ قَدْرِ زَمانِها ، وهٰكذا كلُّ ما أخرَجَ إلىٰ هٰذه الدَّارِ الدُّنيا وما فيها من النَّعيمِ وأَسبابِ المعاشِ علىٰ قَدرِ قِصَرِها كما عَلِمتَ مِن قِصَرِ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ ، وفي الآخرةِ يومٌ كألفِ سنةٍ مما تَعُدُّونَ ، ويومٌ خمسونَ ألفَ سنةٍ ، وجعلَ المُكوِّناتِ في الغيبِ والآخرةِ علىٰ قَدرِ زَمانِها ؛ ليُستدلَّ باليسيرِ على الكَثيرِ[3] ، فيكونُ ذٰلكَ طَريقاً

---

(١) في الأصل : (دون) ، ولعل الصواب ما أثبتُّ .

(٢) تقرأ في الأصل : (والشُّفْقة) .

(٣) في الأصل : (باليسير بالكثير) ، ولعل الصواب ما أثبتُّ .

مَهْيَعاً يسلكُهُ أهلُ البصائرِ والِاستِبصارِ ، الظَّافِرونَ[1] بكَنزِ الأَسرارِ .

فأيُّها الأخُ الجِنسيُّ ؛ أذكُرُ لكَ شاهداً ومشهوداً لهُ على غائبٍ مَستورٍ عنكَ ، مَنكورٍ عندَكَ ؛ أَخبِرْني عن تَقدُّمِ العِلَّةِ على المعلولِ : أهو تقدُّمٌ زَمانيٌّ أم تَقَدُّمٌ وُجودِيٌّ ؟ ولا شكَّ أنَّكَ لا تُخالِفُ أنَّهُ وُجوديٌّ لا زَمانيٌّ ، فالمعلولُ لا يُخالفُ أنَّهُ يكونُ جائزَ الوجودِ مُمكِناً ، والعِلَّةُ واجبةُ[2] الوجودِ بزَعمِكَ ، فهلَ يتوقَّفُ إيجادُ الجَائزِ على العِلَّةِ أم لا ؟

ولا شكَّ أنَّكَ تقولُ : نعمْ ، فهل يتوقفُ وجودُ العلّةِ الواجبةِ الوجودِ على وجودِ المعلولِ الجائزِ الوجودِ ؟ فتقولُ : لا .

وأنا أُبرِزُ[3] لكَ شاهداً دَليلاً مِن هٰذا العالَمِ والزَّمانِ المُختصَرِ على ذٰلكَ العالَمِ الطَّويلِ المَديدِ الَّذي يُحكَمُ فيهِ ببقاءِ النَّفْسِ[4] الإنسانيَّةِ النَّاطقةِ الباقيةِ بعدَ دُثورِ القَالَبِ ، وهٰذا الشَّاهدُ المشهودُ لهُ : آدم ! فتقدُّمُ[5] وجودِ آدمَ على حوَّاءَ زَمانيٌّ أم وُجوديٌّ ؟

فلا شكَّ أنَّ عقلَك يشهدُ بأنَّهُ كانَ وُجودياً لا زَمانيّاً ، كما تزعمُ أنتَ في العلَّةِ والمعلولِ ، فهل كانَ التَّكثُّر ـ أعني : الذُّرِّيَّةَ ـ مُشتركاً بينَ آدمَ وحوَّاءَ أم لمْ يكُن ؟ ولا نشكُّ[6] أنَّهُ كانَ مُشتركاً بينَهُما ، وحيثُ كانَ مُشتركاً بينَهُما فاجعلِ الِاشتراكَ بينَ العِلَّةِ والمعلولِ سَواءً ، واسلُكْ طَريقاً مَهْيَعاً يَحمِلُكَ إلى المُوجِدِ لهٰذيْنِ الشَّريكيْنِ في عالَمِ الأمرِ ، كما أنَّ آدمَ وحوَّاءَ شَريكانِ في عالَمِ الخَلقِ .

واجعلْ هٰذيْنِ ـ الرُّوحَ الأعظمَ ، والنَّفْسَ الكُليَّ ـ شريكيْنِ مُوجِبيْنِ للأَفلاكِ

---

(١) في الأصل : (الظافرين) .

(٢) في الأصل : (واجب) .

(٣) في الأصل : (أبرر) .

(٤) في الأصل : (نفس) .

(٥) كلمة (فتقدم) تكررت في الأصل .

(٦) في الأصل : (نشك له) .

وما تَحويها مِنَ الشَّمسِ والقمرِ وسائرِ الكَواكِبِ ، ثمَّ انزِلْ إلى العناصرِ والأَركانِ والأُستُقُصَّاتِ والطَّبيعةِ ، كلُّها مُضَافةٌ إلىٰ هٰذيْنِ الإثنينِ ـ العلَّةِ والمعلولِ ـ كما كوَّنَهُما شَريكانِ[1] : المُوجِدُ القديمُ ذو الأسماءِ والصِّفاتِ السَّبعةِ اللَّازمةِ لها ، والأَسماءُ الَّتي لا تُحصَى ، المُكوِّنُ بتلكَ الأَسماءِ عَوالمَ مِنها ما اطَّلعَ المُرسلونَ عليها مِن تسعٍ وتسعينَ ، إلىٰ غيرِها ممَّا لمْ يدخُلْ تحتَ أفهامِ المُرسلينَ ، بلِ استأثرَ اللهُ تعالىٰ به[2] وتَحسَبُها لهُ عوالمَ ما أدركَها المُرسَلونَ عليهِم السَّلامُ .

وهٰذا كلامٌ تَطوفُ جميعَ بِلادِ يونانَ والهندِ لا تجدُ مَنْ يسمعُ سماعَهُ ، فمَنْ سَمِعَهُ منهم وفهِم . . أذْعَنَ لا محالةَ ، ويتركُ ما تخيَّلَهُ ألَّا يُوجَدَ مِنَ الواحدِ إلَّا واحدٌ .

فاجعَلِ الواحدَ الصَّمدَ الَّذي صَمَديَّتُهُ استَحقَّهَا لمَّا كانَ لهُ أَزليَّةٌ متَّصِلةٌ بأبَديَّةٍ ، وأَبديَّةٌ متَّصلةٌ بأَزليَّةٍ ، لا يَحُلُّ نِظامَها شيءٌ ، ويتكفَّلُ بهِ : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ، والأَحديَّةُ هٰكذا ، متَّصِلةٌ أزليَّتُها بأَبَدِيَّتِها ، وأَبدِيَّتُها بأزليَّتِها ، وهي وافيةٌ بوَصفِ مَنْ ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾[3] .

واجعلْ هٰذا المُوجِبَ مُوحِّداً بهٰذا الواحدِ الصَّمدِ ، وقدْ تخلَّصْتَ وصِرتَ ذا طَوْقِ الإنقيادِ والإذعانِ ، تفيءُ إلىٰ أَمرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وإلىٰ طاعةِ المُرسَلِينَ ، مُؤمناً بما أُوتوا بهِ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ وسائرِ أَنباءِ الغَيبِ .

وقدْ أَبرَزْتُ لكَ شاهداً علىٰ غائبٍ لِتَثبُتَ[4] حُجَّتي عليكَ ، فأَبرِزْ أنتَ لي حُجَّةً بُرهانيَّةً تدلُّ[5] علىٰ وجودِ عِلَّةِ العِللِ ؛ حتَّىٰ أَعلمَ أنَّ ثَمَّ علَّةَ العِلَلِ بالبُرهانِ ، وأَتيقَّنَ أنَّكَ غيرُ قادرٍ على الإتيانِ بالبُرهانِ ، وأَتاكَ الخطأُ مِن حيثُ

---

(١) في الأصل : (كونها شريكين) .

(٢) كلمة (به) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) سورة الإخلاص : (٣) .

(٤) في الأصل : (ليثبت) .

(٥) في الأصل : (يدل) .

إنَّكَ تطلَّعتَ بنُورِ فِطرتِكَ علىٰ وُجودِ واجبِ الوجودِ ذي الأَسماءِ والصِّفاتِ ، ثمَّ ضَبابُ الخِلْقةِ غَشِيَتْ نُورَ فِطرتِك وحَملَتْكَ إلى البُرهانِ ؛ لتَستَدِلَّ بهِ علىٰ ما أدركتْهُ الفِطرةُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] .

فجهِلتَ اللهَ ولمْ تهتدِ إليهِ ؛ لمُزاحمةِ حِجابِ الخِلْقةِ ، فعَدلْتَ إلىٰ إثباتِ عِلَّةِ العِللِ الَّتي أدركَها العقلُ الخَلْقيُّ ، فأثبَتَ العقلُ الخَلْقيُّ موجوداً بلا أسماءٍ وصفاتٍ ، فسمَّاهُ : عِلَّةَ العللِ ، ثمَّ جَهِلَ أنَّ علَّةَ العِللِ هو الرُّوحُ الأعظمُ الَّذي خَلقَهُ اللهُ ولا شيءَ أكبرُ منهُ إلَّا العَرشَ ، ثمَّ أصدَرَ مِن هٰذا الخَلْقِ الكَثيرِ النَّفْسَ الكَبيرَ ، كما أخرَجَ حوَّاءَ مِنْ آدمَ ؛ الرُّوحُ بمَثابةِ الذَّكَرِ ، والنَّفسُ بمَثابةِ الأُنثىٰ ، فالتبَسَ عليكَ الأَمرُ ، ولِانغماسِك في بَحرِ الجَهالةِ جَعلتَ الِاثنيْنِ واحِداً .

وكما التبَسَ عليك الأَمرُ في العِلَّةِ والمعلولِ هٰذا . . التَبَسَ عليكَ الأَمرُ في لسانَيْهما ، ولمْ يَتمَيَّزْ أَحَدُ اللِّسانيْنِ عنِ الآخَرِ ؛ فلِسانُ الرُّوحِ عقلٌ فِطريٌّ ، ولِسانُ النَّفْسِ عقلٌ خَلْقيٌّ ، فالعَقلُ الفِطريُّ : مجالُ المَلَكوتِ وعالَمِ الغيبِ ، ومَجالُ العَقلِ الخَلقيِّ : عالَمُ المُلكِ والشَّهادةِ ، فمَسَحَ العقلُ الخَلقيُّ عالَمَ الخَلقِ مِنْ فَلَكِ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القمرِ ، وأَتىٰ على الإحاطةِ بالكَواكبِ وأَجرامِها وطِباعِها وتأثيراتِها ، وعلى الأَفلاكِ ومَراتبِها ، وعلى الطِّباعِ ومَصادرِها مِنَ الأَركانِ والمراكزِ والأُستُقُصَّاتِ ، فلم يزلْ حثيثَ السَّيْرِ حتَّى انتهىٰ إلىٰ جميعِ المُدرَكِ بالعِلَّةِ والمعلولِ والصَّادرِ مِنهُما ، وعندَ ذٰلكَ وَقَفَ ، وأَخَذ بيدِ الفلسَفِيِّ وحَبَسَهُ[2] في تُخومِ عالَمِ الغيبِ ، فأَدرَكَ الجنَّةَ والنَّارَ ، والصِّراطَ والميزانَ ، والبَعثَ والنُّشورَ ، وما في الجنَّةِ مِنْ نعيمٍ ، وما في النَّارِ مِنَ العَذابِ الأليمِ ، فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخَالقينَ .

---

(١) سورة لقمان : (٢٥) .

(٢) في الأصل : (وحسبه) ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

وهٰذا عِلمٌ مُقتبَسٌ مِن مِشكاةِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ العَربيِّ ، الَّذي كرَّ على المُرسَلِينَ في الأطوارِ بالإتمامِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] ؛ لأنَّهُ أكمَلَ دِينَهُ بإتمامِ أحوالِ المُرسَلِينَ فيهِ ، وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « نَحْنُ ٱلْآخِرُونَ ٱلسَّابِقُونَ »[2] حِليةٌ[3] اكتَسبَها مِن صَمَدِيَّةِ اللهِ وأَحدِيَّتِه ، في اتِّصالِ أوَّلِهِ بآخرِهِ ، وآخرِهِ بأوَّلِه ، واللهُ الهادي إلى الرَّشادِ ، ومنهُ العونُ والتَّأييدُ .

---

(١) سورة المائدة : (٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨) ومسلم (٨٥٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) هنا تنتهي الورقة (١٤٢) ، وتبدأ الورقة (١٤٠) .

فصل

[في تفصيلِ الكلامِ في قياسِ الشاهدِ على الغائبِ والغائبِ على الشاهدِ]

اعلمْ ـ أيَّدَكَ اللهُ ونوَّرَ قلبَكَ لإدراكِ الحقِّ وإدراكِ الباطلِ ـ : أنَّ القِياسَ للشَّاهدِ على الغائبِ والغائبِ على الشَّاهدِ يحصُلُ باشتراكِ الشَّاهدِ والغائبِ إمَّا في وَصْفٍ خاصٍّ ، أو في وَصْفٍ عامٍّ .

وبيانُ ذلكَ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لهُ الكمالُ الأزليُّ ، فاقتَضىٰ هٰذا الكمالُ أنْ يكونَ مَوصوفاً باللُّطفِ والقَهرِ : لُطفٌ لا يَلحَقُه لُطفٌ ، وقهرٌ لا يَلحَقُهُ قهرٌ ، وما لا[1] يتراءىٰ للإنسانِ مَنْ لُطفِهِ وقهرِهِ . . هو علىٰ مُقتضَىٰ قُصورِ الإنسانِ ، فلُطفُ اللهِ تعالىٰ مِنْ خزائنِ الجُودِ الأزَليِّ ، أخبرَ وقالَ : « كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً لَا أُعْرَفُ ، فَخَلَقْتُ ٱلْخَلْقَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ »[2]

فطَلَعَتْ شمسُ المعرفةِ مِنْ مَطالعِ الجُودِ الأزليِّ ، فأشرقَتْ جُدرانُ جَنانِ المُرسَلِينَ والأنبياءِ وأتباعِهِم عليهِمُ السَّلامُ موقوفاً هٰذا التَّعريفُ عليهِمْ دونَ غيرِهِم ممَّنْ نَكَبَ عن صِراطِ مُتابَعتِهِم .

وما أتَىٰ بهِ الرُّسلُ عليهِمُ السَّلامُ مُجتمِعو الآراءِ والعُقولِ فيهِ لمْ يكنْ في أصولِ المعرفةِ والعلمِ باللهِ اختِلافٌ واضطِرابٌ ؛ بلْ كلُّهُم ظَهروا بكلمةِ التَّوحيدِ ، وانتَشرتْ عُلومُهم في أتباعِهم على اختلافِ طَبقاتِهم ؛ فمِنهمُ المُقرَّبونَ ، ومِنهمُ الأبرارُ ، ومِنهم عامَّةُ المؤمِنينَ ، فمُلِئَتِ الكُتُبُ وسُطِّرَتِ التَّصانيفُ في كلِّ مِلَّةٍ علىٰ تَنوُّعِ علومِهِم ، وفي مِلَّةِ الإسلامِ رُفِعَ عَلَمُ العلمِ مِنْ أيدي العلماءِ الرَّاسِخِينَ في العلمِ ، وانتَشرَت علومُ الدِّينِ مِنَ المَذهَبيَّةِ والخِلافيَّةِ والجَدَليَّةِ ، وما تُلقِّحُ[3]

---

(١) في الأصل : (ولا) .

(٢) انظر الحاشية رقم (٣) في (ص ٢٠٩) .

(٣) في الأصل : (يلقح) .

بهِ الفُهومُ مِن علمِ الأصولِ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا استُنبِطَ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وما يُستعانُ بهِ علىٰ فَهمِها مِنْ علمِ العربيَّةِ والإعرابِ ، فتَكمَّلَتِ الشَّريعةُ وتأيَّدَتْ بذٰلكَ[1] ، مُستَمَدّاً مِنْ بَحرِ الجُودِ الأَزَليِّ واللُّطفِ الإلٰهيِّ الَّذي اتَّصَفَ بهِ الباري سبحانَهُ وتعالىٰ ، فتشبَّثَ بهِ رِضاهُ[2] .

ثمَّ اقتضى الكمالُ الأزليُّ قهراً لا يُشبهُهُ قهرٌ ، فظهرَ بمُوجبِ ذٰلكَ غَسَقٌ مِنَ الجهالةِ باللهِ تعالىٰ وبأسمائِهِ وصِفاتِهِ وقَدَرِهِ وآياتِهِ ، وسَبَبُ هٰذهِ الجهالةِ علومٌ فِكريَّةٌ أنتَجَتْها أفكارُ أهلِ الضَّلالِ ، فنَبتَتْ لهُم علومٌ هي نتائجُ أفكارِهِم ، مُستَمَدَّةٌ تلكَ العلومُ مِنْ خزائنِ قَهرٍ هو وَصفُ القَهَّارِ الأزليِّ ، فاختصَّتْ تلكَ العلومُ بعالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وانحبَسَتْ في عالَمِ المُلكِ ، وأحاطَ بهِ سُورُ البُرهانِ ؛ مِن فَلَكِ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القَمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصرُ والأركانُ والأُستُقُصَّاتُ .

واختَصَّ بهٰذا العِلمِ ـ الَّذي هو عِلمُ عالَمِ المُلكِ ـ أقوامٌ بخَواطرَ ذكيَّةٍ ، وإدراكٍ هو استِدراجٌ بمُوجبِ القَهرِ ، وجميعُ مُتفرِّقاتِ فُهومِهِم وعُلومِهِم انتَقَشَ في استِعدادِ قلوبِ المُرسَلِينَ ، وعَزَّتْ أوقاتُهُم أن يُفصِّلُوها أو يُعِيروا أطرافَهُم إيَّاها ، فبإقبالِهِم[3] على العالَمِ الأزليِّ ، وأُنسِهِم بهِ اتَّسعَتْ[4] أوعيةُ قلوبِهِم بالعلمِ باللهِ وقَدَرِهِ وآياتِهِ ، وصارَتِ العلومُ الفِكريَّةُ مَوقوفةً علىٰ وَصفِ القَهرِ الأزليِّ ؛ ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[5] ، وجَعلَ العقلَ الَّذي هو مَناطُ التَّكاليفِ ، والَّذي هو قُوَّةٌ غَريزيَّةٌ مُهيَّأةٌ لدَرَكِ العلومِ . . مُشترَكةً بينَ الفَريقَيْنِ مِن أهلِ العلمِ والجهلِ ، والرَّشادِ والضَّلالِ .

---

(١) في الأصل : (ذٰلك) .

(٢) كذا في الأصلِ ، وتقرأ : (قضاه) .

(٣) في الأصل : (فإقبالهم) .

(٤) في الأصل : (اتسع) .

(٥) سورة الأنفال : (٤٢) .

ولم يَزلِ المُرسَلونَ يَستمِدُّونَ مِنْ بحرِ الجُودِ الأزليِّ واللُّطفِ الإلٰهيِّ ، والطَّائفةُ الأُخرىٰ يَستَمِيحونَ مِنْ بَحرِ القهرِ [1] الأزليِّ بعُلومٍ صارَتْ حِجاباً بينَهُم وبينَ اللهِ تعالىٰ ؛ ليَتحقَّقَ الفِئتانِ بأداءِ حقِّ اللُّطفِ والقَهرِ ، ولكلٍّ مِنهُم مُستقَرٌّ ؛ فلأهلِ العلمِ باللهِ عِلِّيُّونَ ، وللجاهِلينَ والمحجُوبينَ عنهُ سِجِّينٌ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ وُرودَ أتباعِ الأنبياءِ في النَّارِ بمُوجَبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [2] للتَّهذيبِ والتَّطهيرِ ، لا للخلودِ ، وإنَّما الخلودُ مَقصورٌ علىٰ أهلِ الضَّلالِ الَّذين خالَفوا الأنبياءَ وراغَموهُم ، ولم يُلَبُّوا دَعوتَهُم ، وتَلبيَّةُ دعوتِهِم واجبةٌ ؛ لأنَّها مِنَ اللهِ ، ومَنْ لمْ يُجِبْ دَعوتَهم . . تكونُ النَّارُ سِجنَهُ الأبَدِيَّ ومَنزِلَهُ السَّرمَدِيَّ ، وذٰلكَ أثَرُ القهرِ الَّذي لا يُشبِهُهُ قهرٌ ، ومُنادِي الكبرياءِ مِنْ مِئذَنةِ الإستِغناءِ يُنادي : « هَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلجنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَهَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلنَّارِ وَلَا أُبَالِي » [3] .

عَمِيَتْ أبصارُ أهلِ الضَّلالِ والفلاسفةِ والدَّهرِيِّينَ الأوَّلِينَ وعَبَدةِ الأصنامِ ، ومَنْ لمْ يُلبِّ دعوةَ المرسَلِينَ ؛ ممَّنْ قالَ باليَزْدانِ وأهْرِمَنَ [4] ، وكلِّ مَنْ أخطأَ طريقَ المرسَلِينَ .

واتَّضَحَ بهٰذا البيانِ أنَّ عِلمَ الرَّشادِ مِنْ خزائنِ الجُودِ واللُّطفِ ، وعِلمَ أهلِ الضَّلالِ مِنْ خزائنِ القَهرِ والسُّخطِ ، وكما لا بدَّ مِنَ الوَصفَيْنِ . . لا بدَّ مِنَ الفريقَيْنِ ، حُكماً مِنَ اللهِ تعالىٰ وأمراً منهُ ، ولا اضطِرابَ فيهِ ولا تَغييرَ ولا تبديلَ ، ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟! [5] .

---

(١) في الأصل : (قهر) .

(٢) سورة مريم : (٧١) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (١٧٦٦٠) ، وابن حبان في « الصحيح » (٣٣٨) من حديث سيدنا عبد الرحمٰن بن قتادة السلمي رضي الله عنه .

(٤) قال تاج القُراء الكرماني في : « غرائب التفسير وعجائب التأويل » (١/٣٥٠) : (يزدان : خالق النور ، يعنون : الله ، وأهرمن : خالق الظلمة ، يعنون : إبليس) .

(٥) سورة الأنعام : (٨١) .

فإذا وقفتَ على هٰذا المعنىٰ . . عَلِمْتَ أنَّ الأنبياءَ اقتَبسوا العِلمَ بالأرواحِ القُدُسيَّةِ ، وأنَّ الفلاسِفةَ اقتَبسوا العلومَ بالنُّفوسِ الإنسيَّةِ ، وعَلِمْتَ أنَّ امتدادَ نَظَرِ الأنبياءِ إلى العقلِ الفِطريِّ الَّذي هُو لسانُ الرُّوحِ الأعظمِ ، ووجودُ الرُّوحِ في آدمَ عَكَسَ الرُّوحَ الأعظمَ ، ووجودُ الإنسيَّةِ عَكَسَ وجودَ النَّفْسِ الكُليِّ في مِرآةِ حوَّاءَ ، فالأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم اقتَبسوا العلومَ بالعقلِ الخَلقيِّ الَّذي هو لسانُ النَّفْسِ الكُليِّ المُودَعِ عكسُها في حوَّاءَ ، فصارَ مَطارِحُ نَظرِهِم أَجزاءَ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، فمَسَحوا أَدِيمَ عالَمِ الأجرامِ حتَّى انتهَوْا إلىٰ عِلَّةِ العِلَلِ وانقَطَعَ سَيْرُهُم ، وهٰذا مُنتهىٰ نَظَرِ الفلاسفةِ ، وهي العتَبةُ الَّتي وقفَ الفلاسِفةُ دُونَها ، مُستَنِدَةٌ تلكَ الواقِعةُ إلىٰ ضَعفِ أُنوثةِ النَّفْسِ المُنعكسةِ في وجودِ حوَّاءَ .

فحظُّ الأنبياءِ بواسطةِ العقلِ الفِطريِّ بالعِيانِ الَّذي هو حَشوهُ . . تماثيلُ عالَمِ الغيبِ ، فأدرَكوا الجنَّةَ والنَّارَ والصِّراطَ والميزانَ والبعثَ والنُّشورَ ، والفلاسِفةُ وقَفوا وراءَ عتَبةِ علَّةِ العللِ ، فدَخلوا مَرابِعَ عالَمِ الغيبِ ، فمَنْ فهِمَ الإشارةَ[1] وأدركَ المعنىٰ . . عَلِمَ إدالةَ العِيان على البُرهانِ .

---

(١) تُقرأ في الأصل : (الاسنارة) .

فصل

[في طرفٍ من الحديثِ عن المتشابهِ وتأويلهِ]

سَبَقَ شرحُ الشَّاهدِ على الغائبِ[1] ، تعالى اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أنْ يُوصَفَ بالغائبِ ، ولكنَّ الغَيْبةَ مِنْ حيثُ الخَلقُ ، وَوَجهُ القِياسِ فيما أسلفْنا ممَّا قدْ وَرَد في أخبارِ المتشابهاتِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ آدمَ علىٰ صُورتِه ، فمِنْ علماءِ الأُمَّةِ مَنْ لمْ يركَنْ إلى التَّأويلِ ؛ وهم خَلقٌ مِنَ السَّلفِ لم يُلِمُّوا بالتَّأويلِ ، وقالوا : ذَرُوها كما جاءَتْ منهم[2] ، ومَنْ[3] قالَ : الإستواءُ معلومٌ ، والكيفيَّةُ مجهولةٌ[4] ، والإيمانُ بهِ واجبٌ ، والسُّؤالُ عنهُ بِدعةٌ[5] .

وقولي في ذٰلكَ : إنَّ مِنْ أسماءِ اللهِ : الظَّاهرَ ، والباطنَ ، فمِنْ قَضِيَّتِهِ الظَّاهريَّةِ[6] : أنَّهُ تجلَّىٰ لعبادِهِ ودَنا منهُم ، ثمَّ بَطَن بما عقَّمَ فُهومَ الخَلْقِ عن كيفيَّةِ تلكَ الصِّفاتِ ، فلا يُستَرُ منهُ ما ظَهَر ، ولا يُستكشَفُ منهُ ما بَطَنَ ، وقلْ :

---

(١) تقدم (ص ٢٥١) .

(٢) يشيرُ إلىٰ ما أخرجه الآجُريُّ في « الشريعة » (٧٢٠) ، وابنُ بطَّةَ في « الإبانة » (١٨٣) من طريقِ الوليدِ بنِ مسلمٍ قال : سألتُ الأوزاعيَّ ، والثَّوريَّ ، ومالكَ بنَ أنسٍ ، واللَّيثَ بنَ سعدٍ : عنِ الأحاديثِ الَّتي فيها الصِّفاتُ ؟ فكلُّهم قال : أمرُّوها كما جاءت بلا تفسيرٍ .

(٣) في الأصل : (من) .

(٤) في الأصل : (مجهول) ، والتَّصويبُ مِن مصادرِ الأثرِ .

(٥) أخرجه اللَّالكائي في « شرحِ أصولِ اعتقادِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ » (٦٦٤) وغيره ، من طريقِ جعفرِ بنِ عبدِ الله ، قال : جاء رَجُلٌ إلىٰ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ ، فقال : يا أبا عَبدِ اللهِ ؛ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] كَيفَ اسْتَوَىٰ ؟ قال : فما رَأيتُ مَالِكاً وَجَدَ مِن شَيْءٍ كَمَوْجِدَتِهِ مِن مَقَالَتِهِ ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ - يَعْنِي : الْعَرَقَ - قال : وَأَطْرَقَ القَومُ ، وَجَعَلُوا يَنتَظِرُونَ مَا يَأْتِي مِنهُ فِيهِ ، قالَ : فَسُرِّيَ عَن مَالِكٍ ، فَقَالَ : الكَيفُ غَيرُ مَعقُولٍ ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنهُ غَيرُ مَجهُولٍ ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنهُ بِدْعَةٌ ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالّاً ، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ .

(٦) في الأصل : (الطاهرية) .

آمنَّا بما قالَ اللهُ وقالَ رسولُ الله كما يَليقُ بجلالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ ، واجمَعْ في ذٰلكَ بينَ الذَّاتِ والصِّفاتِ .

أمَّا الذَّاتُ : فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[1] ، وجودُهُ مُنزَّهٌ عنِ الشِّبْهِ والمِثلِ ، والكَيفُ مُنزِّهٌ كعبةَ الجلالِ والذَّاتَ القَديمَ الأزليَّ أنْ يطوفَ بهِ طائفُ التَّأويلِ والتَّخييلِ والتَّمثيلِ .

وأمَّا الصِّفاتُ : فتَمتَدُّ يدُ التَّأويلِ إليها بالباعِ الطَّويلِ ؛ فحيثُ أخبَرَ الحقُّ بأنَّهُ ﴿ جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] أودَعَ الإنسانَ سِرَّ الخلافةِ ، فكانَ ذا قُوَّتَيْنِ كما وصَفْنا ، مُثبِتُ ذٰلكَ حسَبَ الوَصفَيْنِ مِنْ جلالِ اللهِ تعالى : القهرُ واللُّطفُ ، ومِنْ أشمَخِ الوَصفَيْنِ : التَّمليكُ والتَّسخيرُ .

ثمَّ أودَعَ ذٰلكَ حكايةَ الصُّورةِ مِنْ حيثُ المعنىٰ ، فيأتي الآنَ شاهدُ الغائبِ على الحاضرِ ، أليسَ مَنْ وصَفَ الإنسانَ مَشِيئاتٌ مُتعدِّدةٌ مُتعذِّرةُ الحصْرِ بمُقتضَىٰ طوارقِهِ وعَوارضِهِ في أمرِ مَعاشِهِ ومَعادِهِ ؟!

ومَشِيئاتُهُ تَصدُرُ[3] مِنْ إرادتِه ، مَوهوبةً لهُ ، مُؤيَّدةً بقُوَّةٍ مَوهوبةٍ لهُ ، فأثبتْ للهِ تعالىٰ بقَضِيَّةِ قولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[4] مَشِيئاتٍ متعدِّدةً مُستَنِدةً إلىٰ إرادةٍ قديمةٍ مُتوحِّدةٍ ، ثمَّ احكُمْ بالحدوثِ في المُراداتِ ، لا في المُريدِ .

فإذا عَلِمتَ ذٰلكَ . . اجعلْ تكوينَ العِلَّةِ والمعلولِ مُنشَأً مِنْ مشيئةٍ واحدةٍ مِنْ مشيئاتِهِ تعالىٰ بأسرعَ مِنْ طَرْفةِ عَينٍ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) سورة القصص : (٨٨) .

(٢) سورة البقرة : (٣٠) .

(٣) في الأصل : (يصدر) .

(٤) سورة الرحمٰن : (٢٩) .

فَيَكُونُ ﴾[1] ، ثمَّ اجعلِ المُولَّدَ مِنَ العِلَّةِ والمعلولِ الَّذي هو فَسِيحُ مَجالِ طَرْفِ الفَلسَفِيِّ عالَماً مِنَ العالَمِ ، ثمَّ اجعلْ للمَشيئاتِ الأزَليَّةِ عوالمَ ، غيرَ مُصطادٍ بشَبكةِ فَهْمِ الفلسفيِّ ، وإنَّما هي فَسَحَاتُ مجَالاتٍ لمَراكبِ فُهومِ المُرسَلِينَ وأنباءِهِمُ المُقرَّبينَ والشُّهداءِ والصِّدِّيقين .

فقُلْ للفَيلسوفِ : اغسلْ يدَكَ بماءِ الإفلاسِ عنْ أمتعةِ إدراكِ الحقائقِ ، ثمَّ امتَطِ طَرْفَ مُتابعةِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ العربيِّ ، وطُفْ في سائرِ بلادِ يونانَ والهندِ مُعتقلاً رُدَيْنيَّ[2] الاحتجاجِ ، وقلْ : هل مِنْ مُبارزٍ ؟ فإنَّكَ لا تجدُ مُبارزاً .

---

(١) سورة النحل : (٤٠) .

(٢) هي رماحٌ تُنسَب إلى امرأة من رُدَيْنَةُ . انظر : « فقه اللغة » للثعالبي (ص ١٧٤) .

فصل

[في الفرقِ بينَ علومِ الإلهامِ وعلومِ الأفكارِ]

علومُ الإلهامِ عُصارةُ الأرواحِ القُدُسيَّةِ ، وعلومُ الأفكارِ عُصارةُ النَّفْسِ الإنسيَّةِ ، وليسَتْ هٰذه الأَنفُسُ ما أشارَ إليهِ الفلاسفةُ ؛ فإنَّهم سَمَّوُا الرُّوحَ : نفساً ، وإنَّما هٰذه الأنفُسُ الَّتي شَرحناها أوَّلاً بأنَّها الأرواحُ المُشارِكةُ لأرواحِ الحيَواناتِ ، وإنَّما امتازَتْ عنها لكونِها[1] محَلَّ الأرواحِ القُدُسيَّةِ ، فَلِوُرودِ الأرواحِ القُدُسيَّةِ عليها امتازَتْ عن أرواحِ الحيَواناتِ وأُلبِسَتْ خِلعةَ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[2]

---

(١) هنا تنتهي الورقة (١٤٠) ، وتبدأ الورقة (١٣٩) .

(٢) سورة الشمس : (٨) .

فصل

[في اختلافِ الناسِ في الأفهامِ على اختلافِ مراتبِهم]

قدْ تقرَّرَ في أَوعيةِ أَفهامِكَ علومٌ ؛ منها وَهْميَّةٌ ومنها ظنِّيَّةٌ ، ومنها رَبَّانيَّةٌ ومنها لَدُنِّيَّةٌ ، ومنها مجهولةٌ ومنها معلومةٌ ، فما لا غَناءَ بكَ عنها : علومُ الشَّريعةِ ، وما أتَىٰ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونَطَق بهِ القُرآنُ ، هي الدِّينُ ، هي الدُّنيا ، هي الوجودُ بأَسرِهِ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا شَهِدَ لهُ القرآنُ .

وقدْ يختلفُ أهلُ الدِّينِ والشَّريعةِ في الفَهمِ ، فتَتراءىٰ[1] عرائسُ أسرارِ القرآنِ للمُقرَّبينَ علىٰ هيئةٍ ، وللأبرارِ علىٰ هيئةٍ ، ولعَوامِّ المؤمنينَ علىٰ هيئةٍ .

وما دارَ عليهِ سُورُ الشَّرعِ كلُّه مقبولٌ .

وفي إيماءِ القرآنِ إشاراتٌ بعيدةُ الغَوْرِ ، لا تكادُ تُستنبَطُ إلَّا بفُهومٍ تَقفُوها[2] التَّقوىٰ ، ثمَّ الزُّهدُ في الدُّنيا ، ثمَّ دوامُ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ إدبارٍ ، فيلوحُ في مَطاوي أَغوارِ بعضِ الآياتِ إشاراتٌ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[3] .

يأتي الفَلسفيُّ النَّافي للصِّفاتِ ، ويُغيِّرُ هٰذا السِّرَّ ؛ فلا يُدرِكُ منه شيئاً ، ويأتي المُتكلِّمُ ويُدرِكُ منهُ حقيقةً ، ويأتي المُحَدِّثُ حَاملُ الفِقهِ إلىٰ مَنْ هو أفقَهُ منهُ فيتكَلَّمُ فيهِ ، ويأتي الأَفقَهُ منهُ إلىٰ مَنِ ارتَقىٰ في مَعارجِ التَّزكيةِ والتَّحليةِ ويُسقَىٰ مِن مِسكِ سَلسَبيلِ العِنايةِ ويقولُ في : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ : أَمَشِيئاتٌ تَعَدَّدَتْ أم مُرادَاتٌ تعَدَّدَتْ ؟ فيُكشَفُ[4] لبَصيرتِهِ عَوالمُ في طَيِّ الغُيوبِ غيرُ

---

(١) في الأصل : (فيتراءىٰ) .

(٢) في الأصلِ (تقفها) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ : مِنَ القفو .

(٣) سورة الرحمٰن : (٢٩) .

(٤) في الأصل : (فكشف) .

مَحصورةٍ لعَدمِ حَصرِ القُدرةِ ، فيَتراءَىٰ لهُ مِنْ كَثرةِ العَوالمِ الَّتي أَبرَزتْها المشِيئةُ مِنْ مَكانِ الغَيبِ هٰذا الكَونُ المُصوَّرُ لهُ المُحِيطُ بهِ عِلمُهُ الَّذي هو بينَ فَلَكِ البُروجِ وفَلَكِ القَمرِ ، اللَّذيْنِ مَصدَرُهما الرُّوحُ الأَعظَمُ والنَّفسُ الكُلُّ ، وهو أَثَرُ مَشِيئةٍ مِنْ مَشِيئاتِ اللهِ تعالىٰ غيرِ مَحصورةٍ .

وقدْ وَرَد أنَّ موسىٰ عليهِ السَّلامُ قالَ : يا ربِّ ؛ لو أنَّ السَّماواتِ والأَرضَ [حين][1] خُوطِبَا بـ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾[2] أَبَيا . . ماذا كنتَ صَانعاً بهما ؟ قالَ : كنتُ آمُرُ دابَّةً مِن دَوابِّي تَبتَلِعُهما ، قالَ : يا ربِّ ؛ وأينَ تلكَ الدَّابَّةُ ؟ قالَ : في مَرْجٍ مِنْ مُروجي ، قالَ : يا ربِّ ، وأينَ ذٰلكَ المَرْجُ ؟ قالَ : في غامِضِ عِلمِي[3] .

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من « تفسير القرطبي » (١٥/٣٤٤) .

(٢) سورة فصلت : (١١) .

(٣) أورده القُرطبيُّ في « الجامع لأحكامِ القرآنِ » (١٥/٣٤٤) ، وعزاه للثَّعلبي ، وهو في « الكشفِ والبيانِ » (٨/٢٨٧) بلفظ : (وبلغنا أنَّ بعضَ الأنبياءِ . . .) فذكره .

فصل

[في بيانِ تدرُّجِ أصحابِ النبيِّ ﷺ وعلماءِ الأُمَّةِ في المنازلِ إلىٰ بلوغِ المعرفةِ]

لمَّا قُضيَ التَّناسُبُ بينَ قَلبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبينَ قلبِ أصحابِه وغيرِ أصحابِهِ مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ . . نالوا بذٰلكَ حَظّاً مِنْ نُورِ الفِطرةِ ، فدَعاهم ذٰلكَ إلىٰ صرفِ الإيمانِ بالأُمورِ الأُخرَويَّةِ ، وكانَ هٰذا أوَّلَ حَظٍّ رُزِقوا ، ثمَّ قَوِيَ ذٰلكَ بخَالصِ التَّقوىٰ والتَّوبةِ النَّصوحِ حتَّىٰ تَنزَّهَتْ جَوارِحُهُم وأعضاؤُهُم عن لَوْثِ المعصيةِ ومَناهي الشَّرعِ ، وتمكَّنوا مِنْ تَطهيرِ الجوارحِ مِنَ الآثارِ بِصِدقِ الإنابةِ والإلتجاءِ إلى اللهِ تعالىٰ ، للمُحاسبةِ في كلِّ قولٍ وفعلٍ ، كما وردَ : (حاسِبوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تُحاسَبوا)[1] ، وجَمَع همَّهُم صَولَةُ قولِهِ[2] تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[3] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[4] ، فجَمعَ أبيانَ الخواطرِ المُتفرِّقةِ والهمومِ المُتشعِّثةِ حتَّى اجتمعَتْ[5] وحضَرَتْ بينَ يدَيِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ في أوائلِ مَقامِ المُشاهدةِ .

ثمَّ لمَّا استقرَّ بهِم هٰذانِ ـ يعني : خالصَ الإيمانِ ، وخَالصَ التَّقوىٰ ـ انجلَتْ[6] مِرآةُ قلوبِهِم مِنْ خُدوشِ الهَوىٰ ، فانتعشَ فيها كُنهُ الآخرةِ والدُّنيا ، فاختَاروا البَاقيَ على الفَاني ، واستَحقَروا الحظوظَ الفانيةَ ، وعلِموا قُصُورَ الهمَّةِ

---

(١) أخرجه ابنُ المباركِ في « الزُّهدِ والرَّقائق » (٣٠٦) ، وابنُ أبي شَيبةَ في « المصنَّف » (٣٥٦٠٠) ، وأحمدُ في « الزُّهد » (٦٣٣) وغيرُهم ، من طُرقٍ عن سيدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) كلمة (قوله) تكرَّرت في الأصل .

(٣) سورة قٓ : (١٨) .

(٤) سورة الزخرف : (٣٦) .

(٥) في الأصل : (اجتمع) ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٦) في الأصل : (انجلىٰ) .

المرتهَنةِ بمَحبَّةِ المالِ والجَاهِ ، وارتقَوْا ذُروةَ الزَّهادةِ في الدُّنيا ، كما وَرَد : (إذا أقبلْتُ علىٰ عَبدي بوجهي كُلِّه . . زَوَيْتُ عنهُ الدُّنيا كُلَّها)[1]

فلمَّا[2] حصَلَ لهم هٰذا الثَّالثُ وتحقَّقوا به . . دعَاهمُ اجتماعُ هٰذه الثَّلاثةِ إلى الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ والتَّبتُّلِ إليهِ ، والعُكوفِ علىٰ أعتابِ الجَلالِ الأَزليِّ ، فصارَتْ هٰذه الأَربعةُ باجتِماعِها مُوجِبةً للوِلادَةِ المعنويَّةِ ، كما أنَّ الطِّباعَ الأَربعَ مَحتِدُ الوِلَادةِ الطَّبيعيَّةِ[3] ، مُستنبِطةً ذٰلكَ عمَّا ورد : (لَن يَلِجَ مَلَكوتَ السَّماءِ مَنْ لمْ يُولَدْ مرَّتيْنِ)[4] .

فهٰذه[5] الولادةُ المعنويَّةُ فَتحَتْ لهُم أَبوابَ المَلَكوتِ ، فصاروا مِن ذوي المَلَكوتِ ، كما صاروا بالوِلادَةِ الطَّبيعيَّةِ مِن ذوي المُلكِ ، فَوَرِثوا ببرَكةِ مُتابعةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذه الأَربعةِ حَظّاً مِنْ نُورِ الفِطرةِ ، فصَحَّ ارتباطُهم برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واستحَقُّوا بذٰلكَ مَقامَ الدُّعاءِ إلى اللهِ تعالىٰ .

ومَن بَقِيَ عليهِ مِن هٰذه الأَربعةِ بَقِيَّةٌ . . ما كَمُلتْ وِلادتُـهُ ، وما[6] أُطلِقَ بالكُلِّيَّةِ مِنْ مَشِيئةِ الجَهالةِ بخُروجِهِ منها ، ولمْ يُعتَقْ مِنْ رِقِّ الهَوىٰ ، فإذا أُعتِقَ مِن رِقِّ الهَوىٰ . . انصَبَّ إليهِ قِسطُهُ مِنَ العِلمِ ، وخَلَّصَ شَمسَ فِطرتِهِ مِنْ كُسوفِ الفِطرةِ الخَلِقَةِ ، فصارَ هَادياً مَهدِيّاً ، مَوهوباً لهُ تكميلُ النَّفسِ ، ويكونُ في حِصنٍ

---

(١) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في « الزُّهد » (٣٩٨) من طريقِ يحيى بنِ يَمانٍ ، قال : مَرَّ مُوسىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ بِرجُلٍ قَد مَاتَ تَحتَ رَأسِهِ لَبِنَةٌ ، وَرَأسُهُ وَلِحيَتُهُ فِي التُّرَابِ ، فقال : رَبِّ ؛ هَٰذَا عَبدُكَ ضَاعَ . فقال : « يا مُوسَىٰ ؛ إِنِّي إِذَا أَقبَلتُ عَلَىٰ عَبدِي بِوَجهِي زَوَيتُ عَنهُ الدُّنيَا بِحَذَافِيرِهَا » .

(٢) في الأصل : (فلم) .

(٣) في الأصل : (الطبيعة) .

(٤) لم أقف عليه في دواوين السنة المعتمدة ، وأوردَه الشيخ نِظام الدِّينِ النَّيسابوري في : « غرائبِ القرآنِ ورغائبِ الفُرقانِ » (٣٧٥/٥) عن سيدنا عيسىٰ عليه السَّلام .

(٥) في الأصل : (فهٰذا) .

(٦) في الأصل : (ما) .

مِنَ العِلمِ لا تبدو عَورتُهُ بمُتابعةِ الهَوىٰ ، ولا يَطيرُ عنهُ لباسُ التَّقوىٰ ، في مَقامِ الصِّدِّيقينَ ، ومَقامُ الصِّدِّيقيَّة تِلوَ النُّبوةِ .

فيا صَاحبَ الحِكمةِ والفَلسَفةِ ؛ أينَ[1] أنتَ مِنْ تَدرُّجِ هٰذه المَنازلِ والدَّرَجاتِ وقدْ نَكَبْتَ عنِ الدَّرجةِ الأُولىٰ ؛ وهي الإيمانُ بالغَيبِ ؟! فضيَّعتَ التَّوبةَ والزَّهادةَ والإقبالَ على اللهِ ؟ ومِنْ أينَ لكَ الإقبالُ على اللهِ ؟ ومِنْ أينَ أنتَ ؟ واللهِ ؛ أنتَ قدْ وَقعْتَ في حَبائلِ العِلَّةِ الأُولىٰ ورَبَطتْكَ ، ما لكَ منها بُروزٌ ، ولا لكَ منها تَخلُّصٌ ، وصَارَ العَقلُ الخَلقيُّ يُطابِقُ قَهرَ الأَزليِّ[2] علىٰ قَدرِ[3] فَهمِكَ ، وحُرِمتَ الاِطِّلاعَ على المَلَكوتِ ، فلمْ تُؤمِنْ بالغَيبِ ، وغَشَّىٰ بَصيرتَكَ عِلمُ الكائناتِ ، فغَرِقْتَ فيها وفي تيَّارِها .

فانهَضْ واعمَلْ في عُلومِ النُّجومِ والطِّبِّ وعلمِ الهيئةِ وتَوابعِ ذٰلكَ ، وارقُدْ رقدةً لا يُرقِدُكَ[4] إلَّا الموتُ الطَّبيعيُّ ، وإذا استَيقظتَ . . قيلَ لنَفسِك الباقيةِ بعدَ دُثورِ القالَبِ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[5] .

وأربابُ الإيمانِ بالغَيبِ انطَلقتْ أقدامُهُم مِن وَثاقِ العَقلِ الخَلقيِّ ، ورَفَعَ عن أقدَامِهِم همُّهُم قَيْدَ لَوْثِ الخِلْقةِ ، فجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ الغَيبَ والمَلَكوتَ بأنوارِ العَقلِ الفِطريِّ ، فعَايَنوا الجنَّةَ والنَّارَ والصِّراطَ والميزانَ بعَينِ بَصَائرِهِم[6] ، وأنت بَقِيتَ في أوطانِ البُرهانِ ، وهو مِيزانٌ كلُّ رُجَحانِه نُقصانٌ ، فأدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

---

(١) في الأصل : (فأين) .

(٢) في الأصل : (أزلي) .

(٣) في الأصل : (فهم) .

(٤) في الأصل : (يوقدك) .

(٥) سورة قّ : (٢٢) .

(٦) في الأصل : (بصرائهم) .

فصل

قوله تعالىٰ للملائكة : «فإذا سويته»[1]

أتدري ما التَّسويةُ ؟ تركيبُ الإعتدالِ ؛ وهو الإعتدالُ في القَهرِ واللُّطف ، اعتدالاً لكَفَّتَي المِيزانِ ، اعتِدالاً في نَفسِها بالسَّواءِ مِنْ غيرِ أن يَرجِحَ العَدلُ بالفَضلِ أوِ الفَضلُ بالعَدلِ ، ثمَّ اعتدالاً في الإرتقاءِ والهبوطِ ، فارتقاءُ[2] كَفَّةِ الفَضلِ إلىٰ طبقاتِ السَّماواتِ ، وهُبوطُ كَفَّةِ العَدلِ إلىٰ سَبعِ طَبقاتِ الأَرضِ ، وفي كَفَّةِ العَدلِ الجَحِيمُ في بعضِ طَبقاتٍ ، وفي كَفَّةِ الفَضلِ الجِنانُ والفَرادِيسُ العُلا .

والنَّفسُ بتَسويتِها تَنجَذِبُ إلى الهُبوطِ والإرتقاءِ ، فإذا هبَطَتْ بطَبعِ الرُّسُوبِ المُستَعارِ مِنَ التُّرابِ . . تَلقَىٰ في طَريقِ الهُبوطِ إبليسَ ؛ فتكونُ بوَضعِها مُلهَمةً للفُجورِ مِنَ الصَّغائرِ ، وهي مِنْ قِسمِ العَدلِ وشَارَةِ كَفَّتِهِ ، ومِن إلهامِها التَّقوىٰ عندَ ارتِقائِها إلى السَّماواتِ ، فإذا انطَلَقَت مِن وَثاقِ الطَّبقةِ السَّابعةِ . . يَصِلُ نُورُ اكتِسَابِها إلى السَّماءِ الدُّنيا ، وتأنَسُ إلىٰ إلمامِ المَلَكِ ، وتأخذُ الحظَّ مِنَ القَبولِ .

والسَّماواتُ مَرابِعُ الأَملاكِ ومَراتِعُ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ الَّتي رُفِعَ بها كَفَّةُ الفَضلِ ، وهي في دَرَجاتِها مُنطويةٌ في دَرَجاتِ الجِنَانِ ، والأَرواحُ عندَ الإرتقاءِ في طَبقاتِها مُؤانِساتٌ إلىٰ أَرواحِ الأَنبياءِ والصِّدِّيقِينَ ، وفي مَراتبِ الإرتقاءِ تَرتقي أَرواحُ المُقرَّبينَ إلىٰ أَعتابِ القُربِ ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[3] ،

---

(١) سورة الحجر : (٢٩) .

(٢) في الأصل : (فارتقىٰ) .

(٣) سورة فاطر : (١٠) .

ويَنكَشِفُ سِرُّ التَّسويةِ باعتِدالِ اللُّطفِ والقَهرِ ، ذٰلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ ، وأَربابُ مَنازِلِ هٰذا الإرتِقاءِ لا تُقطَعُ ولا تُفتحُ لمَنْ حُرِمَ مُتابعةَ الأَنبياءِ ، ويبقَىٰ مُؤبَّدَ السَّجنِ[1] في خُطَّةِ الإنحِطاطِ في كَفَّةِ العَدلِ .

---

(١) قد تُقرأ في الأصل : (مُؤبداً لسجنٍ) .

فصل

[في بيانِ جهلِ الفلسفيِّ بمجاري الأقدارِ في بدءِ تكوينِ آدمَ]

أوَتعلمُ ـ أيُّها الفَلسفيُّ ـ مجاريَ الأَقدارِ في بَدْءِ تكوينِ آدمَ ؟ أَحَضَرْتَها أمْ لمْ تحضُرْها ؟ وهلْ عَلِمْتَ أنَّ مِنَ الأَزمانِ المَاضيةِ زَمانَ إسكانِ الجنَّةِ بعدَ تكوينِ الأرضِ ، ونَظرِ اللهِ إلى الجَوهرةِ وذَوَبانِها بالماءِ ، وارتفاعِ الدُّخَّانِ الثَّائرِ منهُ جِرمُ السَّماءِ ، فهلْ حَضَرْتَ بحَقِيقتِكَ أو أدرَكْتَ بعِلمِكَ وعَقلِكَ ؟ وهلِ ارتمَىٰ إدرَاكُكَ إلىٰ قَبلِ إنشاءِ المَشيئةِ الأَزليَّةِ تلكَ الجَوهرةَ ؟!

والعَهدُ الَّذي سَبَق ذٰلكَ العهدَ مِن عُهودٍ ما مرَّتْ بمَسامعِكَ ، ولا قيَّدتْها أوهامُكَ ، وإلىٰ قَبلِ ذٰلكَ ، قَبلَ قَبلِ القَبلِ ، وقَبلَ قَبلِ ذٰلكَ القَبلِ ، وقَبلَ ذٰلكَ القَبلِ إلىٰ قَبلٍ ينتهي إدراكُ القَبلِ ، وإلىٰ مَكنوناتٍ وعَوالمَ مُستَمِرَّةِ الإيجادِ ؛ بحيثُ يَفنَى الحَكيمُ الفَلسفيُّ ولا تَنتَهي تلكَ القَبْلاتُ .

فيا غَريقَ بَحرِ إدراكِ الأَزليَّةِ والأَبديَّةِ ؛ اخسَأْ وصِرْ جَليسَ مَكمَنِ الجَهالةِ ، واعرِفْ قَدْرَكَ .

وقدْ وَرَد[1] : أنَّ[2] مُوسىٰ عليهِ السَّلامُ في بعضِ سُلوكِ سِياحَاتِهِ في عَوالمِ مُناجَاتِهِ . . غَلَتْ مِرجَلُ طَلبِهِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ منذْ كمْ أنتَ في الإلٰهيَّةِ ؟ قالَ : يا مُوسىٰ ؛ أَدرِكْ نفسَكَ ، والزَمْ حَدَّكَ ، فلولَا رَحمَتي سَبَقت غَضَبي . . لأَرسلتُ عليكَ ناراً احترَقتْكَ ، ولو أنتَ خَليلي إبراهيم ، ليسَتْ مَدارِعُ أَزليَّتي مُقَدَّرةً علىٰ قدورِ أَفهامِكَ وأَوهَامِكَ ، ولٰكنْ سَلنِي عن مَقدوراتي ومُكَوَّناتي ، واعلمْ بأنِّي خَلقْتُ مَدينةً مثلَ دُنياكم هٰذه تِسعينَ مرَّةً ، ثمَّ مَلأتُها[3] خَردلاً ،

---

(١) لم يرد في شيءٍ من دواوينِ السُّنَّة المُعتبرة ، وفي لفظه نَكارةٌ ظاهرةٌ .

(٢) هنا تنتهي الورقة (١٣٩) ، وتبدأ الورقة (١٤٣) ، وقد تكرَّرت كلمة (أن) .

(٣) في الأصل : (أملأنها) .

وخَلقتُ طَائراً أَعرجَ أعورَ ، وجَعلتُ رِزقَهُ كلَّ خَرْدلَةٍ ، فعَمَّرتُهُ حتَّى استَوفىٰ تلكَ المَدائنَ ، ثمَّ قضَيْتُ عليهِ بالمَوتِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ جَعلْتَ عُمُري قَصيراً ، ورِزقِي يَسيراً .

أيُّها الحَكيمُ الفلسفيُّ ؛ اطوِ بِساطَ التَّقديرِ والتَّدبيرِ ، وعُدَّ عِلمَكَ ودِرايتَكَ وما تلفَّتَّ إليهِ مِنَ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ أَحقرَ مِنْ كُلِّ حقيرٍ .

أَوحَى اللهُ تعالىٰ إلىٰ مُوسىٰ فقالَ : يا مُوسى ؛ اتَّخِذْ نَعلَيْنِ مِنَ الحديدِ ، وسِحْ في الأَرضِ واطلُبْني [1] ، هٰذا معَ مُكالمتِهِ لهُ كِفَاحاً .

فاحتقرْ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ ما وجدتَهُ بالنسبةِ إلىٰ [2] ما لمْ يجدْهُ الحكيمُ الفيلسوفُ ، جَمَعَ الكَائناتِ ، وقَطَعَ دابرَ المعلوماتِ والموجوداتِ ، واترُكْها في كِيسِ عِلَّةِ العِللِ الذي خيَّطَهُ بمِخيَطِ الأَفكارِ وخَيْطِها ، وتأَبَّطَ رئيسَهُ أَرسطاطاليسَ وأَقرانَهُ [3] مختَالاً في مَيدانِ الِاغترارِ ، مُغترّاً بِتَباعةِ المشَّائينَ مِنْ فَلسِ سُوقِ الزَّواقِ .

---

(١) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في « التَّفكُّر » كما في « تفسيرِ القرآنِ العظيم » لابنِ كثير (٥/٤٣٨) ، من طريقِ مالكِ بنِ دينارٍ قال : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السَّلام : أن يا مُوسى ؛ اتَّخذ نَعلَينِ مِن حديدٍ وعصاً ، ثمَّ سح في الأرضِ ، واطلُبِ الآثارَ والعِبَرَ ، حتَّىٰ تَتخرَّقَ النَّعلانِ وتُكسَرَ العصا .

(٢) كلمة (إلىٰ) : زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) في الأصل : (وأحرانه) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ ، وانظر : « التَّفسيرَ الكبير » للرَّازي (٢/٣٣٧) .

فصل

[في عزَّةِ علومِ الأنبياءِ]

لو فَهِمتَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ مِنَ ٱلْعِلْمِ كَهَيْئَةِ ٱلْمَكْنُونِ ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا ٱلْعُلَمَاءُ بِٱللهِ »[1] . . علِمتَ بأنَّ وَراءَ مَعلومِكَ ومَفهومِكَ علوماً[2] غابَتْ عنكَ ، وهي مِنَ العلمِ المكنونِ ، لا يُدرَجُ في صَحائفِ البُرهانِ ، ولا يُصطادُ إلَّا بشَبائِكِ الوِجدانِ .

فمِنْ ذٰلكَ : ما قدْ وَرَد[3] أنَّ إبليسَ مَسَحَ الأرضَ حينَ أُهبِط إليها ودارَ فيها ، فمِنها ما صارَ بينَ قَدَميْهِ ، ومنها ما صارَ تحتَ قَدَمِهِ ، وكانَتْ[4] نُفوسُ الأنبياءِ والرُّسلِ والصِّدِّيقِينَ والمؤمِنينَ ممَّا لمْ تصلْ[5] إليهِ قَدَمُ إبليسَ .

ومِنْ ذٰلكَ : ما ذَكرْنا أنَّ اللهَ تعالىٰ مَسَحَ ظهرَ آدمَ وهو ببَطنِ نَعمانَ بعدَ التَّكوينِ بالتَّخميرِ ، فسَالَتِ الذَّرَّاتُ مِنْ ظهرِ آدمَ ؛ بعَدَدِ كلِّ إنسانٍ ذَرَّةٌ ، ثمَّ خُوطِبَتِ الذَّرَّاتُ بخِطابِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[6] ، وكانَ الجَوابُ مِنَ الذَّرَّاتِ الَّتي ما قُمِطَتْ بقِماطِ الأَشباحِ[7] ، ولا برَزَتْ مِنَ الفِطرةِ إلى الخِلْقةِ ، فلمَّا برَزَتْ إلى الأَشباحِ . . تميَّزَ[8] المُجِيبونَ اختياراً مِنَ المُجِيبينَ اضطِراراً مَقهورِينَ للسَّطوةِ الأَزليَّةِ ، فالمُختارونَ أهلُ السَّعاداتِ ، والمُضطرُّونَ أهلُ الشَّقاوةِ .

---

(١) أخرجه السُّلَمِيُّ في « الأربعينَ في التَّصوُّفِ » (ص ١٣) ، مِن حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه .

(٢) في الأصل : (علوم) .

(٣) لم أقف علىٰ هٰذا فيما بين يدي من المصادر .

(٤) في الأصل : (وكان) .

(٥) في الأصل : (يصل) .

(٦) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٧) القِماط : الحبل والخرقة ، والمراد : أنها ما زالت في عالم الذرِّ .

(٨) في الأصل : (تميزت) .

واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أودَعَ السَّماواتِ والأَرَضينَ سِرّاً مِن سِرِّهِ بخِطابِهِ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[1] ، وكانَ هٰذا الجوابُ مِنْ خُلاصةِ جَوهَريَّةِ السَّماواتِ والأَرَضِينَ ، فرَكَّبَ منها قالبَ آدمَ عليهِ السَّلامُ بعدَ أنِ استَنْزَعَ ذٰلكَ السِّرَّ مِن جَوهريَّةِ الأَرضِ والسَّماءِ ، وذٰلكَ مَفهومٌ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[2] .

وكانَ استِنزاعُ ذٰلكَ السِّرِّ بالقَبضةِ المأخُوذةِ مِنَ الأَرضِ ، وهٰذا عِلمٌ لا يسَعُ مِيزانَ البُرهانِ ، ولا يُدرَكُ إلَّا ببَصيرةِ العِيانِ ، فأدَالَ العِيانُ على البُرهانِ .

---

(١) سورة فصلت : (١١) .

(٢) سورة الأحزاب : (٧٢) .

فصل

[في بيانِ قِلَّةِ موزوناتِ ميزانِ البرهانِ بالنسبةِ إلى المدركاتِ بالعيانِ]

صَغُرَ مِيزانُ البُرهانِ ، ما وُسْعُهُ إلَّا العِيانُ الحِسِّيَّةُ .

ما أشبَهَ العِيانَ الأُخرَويَّ والبُرهانَ الدُّنياويَّ بالوجودِ العَينيِّ معَ الوجودِ الذِّهنيِّ ، فمُدرَكاتُ الوُجودِ العَينيِّ مَحدودةٌ ، ومُدرَكاتُ الوجودِ الذِّهنيِّ غيرُ مَحدودةٍ ، فالمُتخيَّلُ مِنْ توابعِ الوجودِ الذِّهنيِّ ، وعَرْصةُ المُتخيَّلاتِ متَّسِعةٌ ، وليسَ كذلكَ الوجودُ العَينيُّ ، فهٰكذا مَوزوناتُ مِيزانِ البُرهانِ بالنِّسبةِ إلى المُدرَكاتِ بالعِيانِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، الَّذي هو يَنبوعُ الحِكمةِ والمطَّلِعُ علىٰ عالَمِ الغيبِ والشَّهادةِ ؛ ليُهدِيَ إلى الأفهامِ نِسبةَ العِيانِ إلى البُرهانِ ؛ بقوله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي ٱلْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ ؟! »[1] .

فالدَّهريَّةُ حَكَموا بأنَّ الميِّتَ[2] لا يُحشَرُ ولا يُبعَثُ ، وأنَّ الأجسامَ بعدَ الدُّثورِ لا إعادةَ لها ، فهُم بمَثابةِ الدِّيدانِ والذُّبابةِ علىٰ وجهِ الأرضِ بأجسامٍ لا أرواحَ فيها ، وقَوالبَ لا عقلَ لها ، وهٰكذا مَنْ أخَذَ العَظمَ وفتَّتَهُ بيدِهِ وقالَ : أيزعُمُ محمَّدٌ أنَّ هٰذا يُعادُ ويُحيا ؟[3] .

هٰكذا كُلُّ غَبيٍّ وصَبيٍّ ، وامرأةٍ ناقصةٍ ، وقَرَويٍّ وسَوادِيٍّ ، وكُرْدِيٍّ وتُركيٍّ لا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث سيدنا المستورِد بن شدَّادٍ رضي الله عنه ، بنحوه .

(٢) كلمة (الميِّت) زيادةٌ يقتضيها السِّياقُ .

(٣) أخرجه الطَّبريُّ في « جامع البيان » (١٩/٤٨٧) ، وابن أبي الدُّنيا في « الأهوالِ » (٨٨) من طريقِ سعيد بن جُبيرٍ قال : جاء العاصُ بنُ وائلٍ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعَظمٍ حائلٍ فَفَتَّه ، وقال : يا محمَّدُ ؛ يبعثُ اللهُ هٰذا ؟! قال : « نعم ، يُميتُك ، ثمَّ يُحييك ، ثمَّ يُدخِلُك نارَ جهنَّم » .

عقلَ لهُ ، لو اعتبَر مفهومَهم . . لقَبِلوا ما قالَ ذٰلكَ في العَظمِ الرَّميمِ ، وهو أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ[1] .

ولٰكنْ كُنتُم ـ يا معشرَ الفلاسفةِ ـ أَثبَتُّم بقاءَ النُّفوسِ الإنسيَّةِ النَّاطقةِ ـ يعني : الرُّوحَ الرُّوحانيَّ ـ بعدَ دُثورِ الأَجسامِ ، فكأنَّكُم سَلَكتُم بالنِّسبةِ إلى الجُهَّالِ في أَضواءِ شيءٍ مِنْ فُهومِ الأَنبياءِ ، وكأنَّ علومَكم ظِلالُ قَوالبِ علومِ الأَنبياءِ ، غيرَ أنَّكُم حُرِمتُم مُتابعتَهُم ؛ فبَقِيتُم في ظُلمةِ آراءِ أوائلِكم ؛ مِنَ اليونانِيِّينَ والهندِ ، وتَنعتُم مِنَ العلومِ بإدراكِ عالمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وأتيتُم باليدِ البيضَاءِ في إقامةِ البُرهانِ ، ولٰكنْ كَفَرتُمُ النِّعمةَ ، وغضَضْتُم طَرْفَ فُهومِكُم[2] عن إدراكِ ما أخبَرَ بهِ الأنبياءُ مِنَ العَوالمِ الغَيبيَّةِ ، فكلُّ ما مَسَحتُم بأَقدامِ أَفكارِكُم مِنْ أَبعادِ الأَفلاكِ وأَجرامِ الكَواكبِ ؛ كقولِكم[3] : إنَّ الشَّمسَ نيِّفٌ وسِتُّونَ مثلَ الأَرضِ ، وغيرِ ذٰلكَ . . كلُّه صَحيحٌ ومُسَلَّمٌ لكم مِنْ جميعِ المُدرَكاتِ بالبُرهانِ ، ولٰكن : أين أنتم ممَّا تواترَتْ بهِ الأَخبارُ النَّبويَّةُ والأَنباءُ[4] الرُّسُليَّةُ في أَجرامِ الملائكةِ وعَظيمِ خَلقِهِم ، وأنَّ بينَ كَعبِ أَحدِهم ورُكبتَيْهِ مَسيرةَ كذا سَنةٍ ؟! فيَصغُرُ ما أَدركتُموهُ بالنِّسبةِ إلىٰ ما أَخبَرَ عنهُ الأَنبياءُ عليهمُ السَّلام .

وناهِيكُم ما قدْ سَبَق في بعضِ فُصولِ هٰذا الكتابِ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : إنَّ السَّماواتِ والأَرَضِينَ لو عَصَيَا ولم يُطيعا . . أَمرتُ دابَّةً مِنْ دوابِّي تَبتَلِعُهُما ، قالَ موسىٰ : وأينَ تلكَ الدَّابَّةُ ؟ قالَ : في مَرْجٍ مِنْ مُروجي ، وقالَ : يا ربِّ ، وأينَ ذٰلكَ المَرجُ ؟ قال : في غامِضِ عِلمِي[5] .

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان » (١٩/٤٨٦) عن مجاهد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) في الأصل : (فهومك) .

(٣) في الأصل : (لقولكم) .

(٤) في الأصل : (والأنبياء) .

(٥) تقدم قريباً (ص ٢٦٠) .

فالمُدرَكُ بالبُرهانِ أَمَدُهُ قَصِيرٌ وأيّامُهُ قليلةٌ[1] ، ومَشِيدٌ مُهدَّمٌ بالموتِ الطَّبِيعيِّ ، فعن قريبٍ لا عَينٌ ولا أَثَرٌ ، وأيّامُهُ ضَيِّقةُ العَرْصَةِ ، فاللَّيلُ والنَّهارُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، فما هي نِسبتُهُ إلىٰ يومٍ مقدارُهُ خمسونَ[2] ألفَ سنةٍ ؟!

فقِسْ علىٰ هٰذا مُدرَكَاتِكَ بالبُرهانِ الدُّنياويِّ علىٰ قَدرِ مُدرَكاتِ[3] الأنبياءِ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والمِيزانِ ؛ حتَّىٰ تَعلَمَ إدالةَ العِيانِ على البُرهانِ .

---

(١) في الأصل : (قليل) .

(٢) في الأصل : (خمسين) .

(٣) في الأصل : (مدركاتك) .

فصل

[أثرُ العبادةِ في العلمِ]

قَصُرَت خُطَىٰ أكثرِ الفلاسفةِ وأتباعِهم ؛ أنَّهم إذا خُوطِبوا . . عَلِموا ، وإذا نُودُوا . . لَبَّوْا ، وما غَشِيَتْهُم مِنْ ضَبابِ الجَهالاتِ سَدَّتْ مسَامِعَ قُلوبِهِم .

وألفاظُ النُّبوَّاتِ هي الَّتي [1] تَفتَحُ خُروقَ المسامِعِ ؛ فمَنْ أحسَنَ الاقتداءَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ينالُهُ حَظٌّ مِنَ القَبُولِ والفِعالِ ، وجعَلَهُ اللهُ دَاعِياً إليهِ ، وكلَّما تكرَّرَ رُكوعُهُ وسُجودُهُ . . يزدَادُ قولُهُ نَفاذاً وسِرَايةً ، ويَدِبُّ في الدِّماءِ والأَبشَارِ كما يَدِبُّ أثرُ الدَّواءِ في الجسَدِ ، وكُلَّما تلَا القُرآنَ حقَّ تلاوتِهِ . . يَمتَزِجُ [2] نورُ القُرآنِ والعِلمِ بدِمائِهِ وأبشَارِه ، وتَتصوَّبُ سِهامُ ألفاظِهِ إلىٰ أهدَافِ الاستِعداداتِ [3] ، فيَرشُدُ بالقَولِ ، ويدعو بالهُدَى المُستقيمِ ، ويكونُ دَاعياً إلى اللهِ بقَولِهِ وفِعلِهِ ، فإنْ ظَفِرَ بمِثلِ هٰذا ذو استِعدادٍ . . يُنقذُهُ مِنْ بَحرِ الضَّلالِ ، فيَحظَىٰ بحُسنِ الحالِ وسلامةِ المآلِ .

---

(١) في الأصل : (التي هي) .

(٢) في الأصل : (ويمتزج) .

(٣) في الأصل : (استعدادات) .

فصل

[في جهلِ الفلاسفةِ بعوالمِ اللهِ المودعةِ في طيِّ الغيوبِ]

جهلَ الفلاسِفةُ عوالمَ اللهِ المُودَعةَ في طَيِّ الغُيوبِ ، وقنَعوا بعلمِ واحدٍ ؛ وهو ما يحتوي عليهِ الفَلَكُ : البُروجُ وما دُونَها مِنَ الأفلاكِ ، وفَلَكُ القَمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ ، فهلْ للفلاسفةِ أن يَنظروا في العناصرِ والكواكبِ ؛ أَحَكَمَتِ العناصرُ على الكواكبِ ، أمِ الكواكبُ على العناصرِ ؟

وهٰذا مِن عَويصِ ما يَرمِيهم في بَحرِ الحَيْرةِ ؛ فهم جَهِلوا أنَّ ما تَحصَّنوا بهِ وتَحصَّنَتْ بهِ علومُهُم واحدٌ مِنْ عَوالمِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُم بمَثابةِ طَيرٍ في قَفَصٍ لا يَرىٰ إلَّا جِهاتِ القَفَصِ ، أو[1] بمَثابةِ جَنينٍ في بَطنِ الأُمِّ لا عِلمَ لهُ بالأَرضِ والسَّماءِ وما يَحتويانِ عليهِ ، فالفلاسفةُ ذٰلكَ الجَنِينُ مُقيَّدُ اليدَيْنِ في حَبْسِ أجَلٍ مُقَدَّرٍ بأيَّامٍ دُنياويَّةٍ يَسيرةٍ ، وبالموتِ الطَّبيعيِّ تَبرُزُ أرواحُهُم ونُفوسُهُم مِنْ ذٰلكَ القَفَصِ ، ويُكوَّنونَ تَكويناً في عالَمٍ ما رأَوْهُ ولا حَديثٍ بهِ أفكارُهم .

أيُّها الحكيمُ ما ذكَرْنا ؛ آمَنْتَ بما وَرَدَ مِنْ خَلْقِ الملائكةِ أولي أجنحَةٍ مثنىٰ وثُلاثَ ورُباعَ ، وأنَّ منهم مَلَكاً رِجلاهُ في تُخومِ الأَرضِ السُّفلىٰ ورأسُهُ تحتَ العَرشِ ، ومَلَكاً ما بينَ كَعبيْهِ إلىٰ رُكبتَيْهِ مَسيرةُ ثلاثِ مئةِ عامٍ ، وعَوالمَ ما احتَوىٰ عليها فَهمُك ، وما عَلِمْتَ منها شيئاً ، وسلَّمتَ الغَيبَ بما فيهِ ، وعلِمتَ أنَّ الأرضَ الكُرِيَّةَ[2] الَّتي أنت تَدِبُّ عليها ومَنْ يُشاكِلُك بمَثابةِ دِيدانٍ وذُباباتٍ . . سَبعُ أرَضِينَ في إحداها[3] الجَحيمُ ، وعَلِمْتَ أنَّ ما أخبَرَ التَّنزيلُ بهِ مِنَ النَّعيمِ

---

(١) في الأصل : (أم) .

(٢) في الأصل : (الكريّ) .

(٣) في الأصل : (إحديهما) .

المُقيمِ والحُورِ والوِلدانِ والقُصورِ وأَنهارٍ مِن ماءٍ غيرِ آسِنٍ وأَنهارٍ مِن عسَلٍ مُصَفّىً ، وقضَيْتَ علىٰ نفسِك بالجَهلِ ، وعلِمْتَ أنَّكَ ما فهمتَ شيئاً ، وأنَّكَ جاهلٌ لا عِلمَ لكَ ولا مَعرِفةَ ؟!

فصل

[عجزُ الفلسفيِّ عن إدراكِ عالمِ الملكوتِ]

فعندَ ذٰلكَ أقولُ لكَ : إنَّ الَّذي سَمَّيتَه : عِلَّةَ العِلَلِ ، ونَشَرْتَ لهُ مَناشِيرَ ، وسَطَّرتَ لهُ طَوامِيرَ ، وحلَلْتَه مَحَلَّ الأثرِ والمُؤثِّرِ . . هو غيرُ ما سمَّيتَهُ ، وغيرُ ما فَهِمتَهُ ، وغفَلتَ بأنَّ مُوجباتِهِ بمَثابةِ مُوجِباتِ الشَّمسِ ، وما صارَ مُوجِباً أوَّلاً للمُوجباتِ ؛ بلْ هو خَلقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، كوَّنَهُ الحقُّ بمَشِيئتِهِ مِنْ مَشيئاتِهِ ، وهو الرُّوحُ الأعظَمُ الَّذي خَلَقَهُ اللهُ تعالىٰ ، وما في خَلقِهِ أعظَمُ منهُ إلَّا العرشُ ، ولو أمَرَهُ أنْ يَبتَلِعَ السَّماواتِ والأرضَ دَفعةً واحدةً . . لابتَلَعَهُ .

فالمعلولُ الأوَّلُ : لسانُهُ ؛ وهو العقلُ الفِطريُّ ، والمعلولُ الآخَرُ : النَّفْسُ الكُلِّيُّ ؛ وهو بالنِّسبةِ إليهِ كَنِسبةِ حوَّاءَ إلىٰ آدمَ ؛ خَلَقَها منهُ ، فهٰكذا النَّفسُ كوَّنَها مِنَ الرُّوحِ الأعظمِ .

هٰذا ازدِواجٌ في عالَمِ الأمرِ ، وهٰذا ازدِواجٌ في عالَمِ الخَلقِ ، والأفلاكُ والكَواكبُ مُولَّداتُ هَٰذيْنِ .

فاللهُ تعالىٰ جَعَلَ الرُّوحَ مُفتَتَحَ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وهو العالَمُ المحسوسُ ، ولُبابُهُ المَلَكوتُ ، وهو عالَمُ الأملاكِ المُوكَّلةُ بالأفلاكِ المدبِّرةِ[1] لها ، فليسَ دَوَرانُها اختِياراً ولا طَبيعيّاً[2] ، وإنَّما هي مُسَخَّرةٌ .

وهٰذه الكواكبُ لها أملاكٌ مُدبِّراتٌ غيرُ مُدرَكةٍ لكَ ، فعالَمُ الحِسِّ والشَّهادةِ مُدرَكٌ لكَ ، وهو عالَمُ الحكمِ والأسبابِ والوسائطِ ، والمَلَكوتُ : عالَمُ الغَيبِ والقُدرةِ ، وغيرُ مُدرَكٍ لكَ ؛ لأنَّ عقلَك هو العقلُ الخَلْقيُّ ، وهو لِسانُ النَّفسِ ،

---

(١) في الأصل : (المدبر) .

(٢) في الأصل : (طبيعاً) .

ولمكانِ نِسبَتِهِ إلى النَّفسِ لها رُتبةُ الأُنوثةِ ، وضَعُفَ سَيْرُهُ للبُروزِ مِنْ عالَمِ المُلكِ[1] .

والعقلُ الفِطريُّ نِسبَتُهُ إلى النَّفسِ الذُّكورةُ ، فلهُ بروزٌ إلىٰ عالَمِ الغيبِ والمَلَكوتِ ، وإحاطةٌ بعالَمِ الأملاكِ وأَجرامِها وكيفيَّتِها ، وهو مُدرَكٌ للأنبياءِ ، اطَّلعوا علىٰ ذٰلكَ بالعقلِ الفِطريِّ .

وليسَ جِرمُ الأملاكِ كما تقيسُ أنتَ على الأَجرامِ ؛ فعينُكَ مكفوفةٌ عن إدراكِ ذٰلكَ العالَمِ ، فكأنِّي بكَ تَضحَكُ عندَ هٰذا القولِ ، فتَظُنُّه فُشاراً وهَذَياناً ، وحَقٌّ عقلِكَ أنْ يُرىٰ كذٰلكَ ، فكما يَضحَكُ القَرَويُّ مِن عقلِكَ ويَحكُم بسَفاهتِكَ إذا خُضْتَ عندَهُ في شَرحِ عِلمِ الهيئةِ ، وذكرتَ لهُ أنَّ جِرمَ الشَّمسِ بمِقدارِ الأَرضِ مِئةٌ ونيِّفٌ وسِتُّونَ مرَّةً ، فأنت بالنِّسبةِ إليهم كهٰذا القَرَويِّ ، ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾[2] .

---

(١) كُتب بعدها في الأصل : (الخلقي) ، ثمَّ ضربَ عليها النَّاسخُ بكتابة : (من ... إلىٰ) فوقها .
(٢) سورة المطففين : (٣٤) .

فصل

[في أنَّ النفسَ باقيةٌ مثلَ بقاءِ الجنَّةِ والنارِ]

ألستَ ـ أيُّها الحكيمُ الفلسفيُّ ـ قَضَيتَ بأنَّ النَّفسَ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ باقيةٌ ؟ أمَا تقولُ : إنَّ الحِكمةَ في بقائها لماذا ؟ أهي مُعطَّلةٌ في بقائِها أم لها عِلمٌ ولها إدراكٌ ؟ وأنَّ القبرَ رَوضَةٌ مِنْ رِياضِ الجنَّةِ أو حُفرةٌ مِن حُفَرِ النِّيرانِ ، وأنَّ لها إدراكاتٍ تَنتهي بها إلىٰ يومِ البَعثِ والنُّشورِ ؟

وحيثُ فَطِنتَ لها ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ وانقَطَعْتَ بهٰذا العلمِ عنِ الدَّهريِّ ، فلِمَ لا تُواصِلُ الأنبياءَ وتوافِقُ فيما قضَوا به مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ والصِّراطِ وجميعِ أحوالِ الآخِرةِ ، وتَعلمُ أنَّ لكَ مُكوِّناتٍ بعدَ هٰذا التَّكوينِ الدُّنْياويِّ الَّذي يَقطَعُه الموتُ الطَّبيعيُّ ، مُكوَّناتٍ في البَرْزَخِ والقِيامةِ ، والجنَّةِ والنَّارِ ؟!

فصل

[في أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ خلقَ الروحَ علىٰ صفتِهِ]

اعلمْ : بأنَّ اللهَ تعالىٰ كما خَلَقَ آدمَ علىٰ صُورتِهِ بالشَّرحِ الَّذي ذكرنَاهُ . . خَلَقَ الرُّوحَ علىٰ صِفتِهِ في التَّكوينِ ، وقولُكَ : لا يُوجدُ مِنَ الواحدِ إلَّا الواحِدُ ، فالواحِدُ هو الأوَّلُ ، والواحِدُ الآخَرُ هو الرُّوحُ ، ولٰكنْ في وِجهةِ إدراكِ عقلِكَ للهِ تعالىٰ أَحداثٌ [1] غيرُ مُتَناهِيةٍ بمَشِيئاتٍ غيرِ مُتناهيةٍ دائمةٌ بدَوامِهِ باقيةٌ ببقائِهِ ، لها حَدٌّ في خَلقيَّتِهِ ، وللهِ استقلالٌ لخالقيَّتِهِ .

وعندَ ذٰلكَ ذابَتْ عُلومُكَ ، فعادَ عِلمُكَ جَهلاً ، ودِرايتُكَ حَيْرةً ، وعُدتَ إلىٰ مُتابعةِ الأَنبياءِ صِفرَ اليَديْنِ عن مَعلوماتِكَ ومَفهوماتِكَ ، وأَذعَنتَ للشَّريعةِ ، وآمنتَ بما أخبَرَ بهِ الأنبياءُ والقُرآنُ ، وأثبتَّ الأشياءَ علىٰ هيئتِها ، وآمنتَ بحَشرِ الأجسَادِ بعدَ الدُّثورِ ، وحشرِها مِنَ القُبورِ ، وحَظِّها مِنَ النَّعيمِ والقُصورِ ، وقِسطِها في الجَحيمِ مِنَ الوَيلِ والثُّبورِ .

---

(١) في الأصل : (وأحداث) .

فصل

[في بيانِ أنَّ الروحَ الحيوانيَّ غيرُ الروحِ الروحانيّ]

أيُّها الحَكيمُ الفلسفيُّ ؛ أَثبَتَّ وجودَ النَّفْسِ بعدَ الموتِ الطَّبيعيّ ، فاعلمْ أنَّ الرُّوحَ الحيَوانيَّ ـ الَّذي هو مُشارِكٌ لسائرِ الحيَواناتِ ـ غيرُ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ الَّذي سَمَّيتَهُ : النَّفْسَ النَّاطِقةَ ، وما عدا ما تُصوِّرُهُ أنتَ مِنْ بقاءِ القُوَّةِ : الخياليَّةِ والوهميَّةِ ، واستِصحَابِ النَّفسِ ذٰلكَ ، كلُّ ذٰلكَ[1] تَوهُّماتٌ وخَيالاتٌ لا حاصِلَ لها .

والعجَبُ أنَّهُ ما لاحَ لكَ مِنْ حالِ النَّومِ لَوائِحُ بذٰلكَ على شيءٍ مِنْ أحوالِ نفسِكَ بعدَ الموتِ ، أَمَا يَتَبيَّنُ لكَ أنَّ بعضَ المَناماتِ غيرُ أَضغاثِ أَحلامٍ ، بلْ هو فُرْجةٌ مَفتوحةٌ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ الَّذي يَصِلُ إليهِ بعدَ الموتِ ، وتلكَ الفُرجةُ تتَّسعُ بالموتِ الطَّبيعيّ ؟! وشيءٌ ممَّا مرَّ بكَ في مَنامِك يَتجسَّدُ بالموتِ ، ويُكسَىٰ كِسوةً وُجُودِيَّةً مِنْ جِنسِ ما اكتَسَبتَ في أيَّامِ الدُّنيا ، حتَّىٰ تُؤمِنَ بحَقائقِ ما أَخبَرَ الأنبياءُ بهِ مِنْ أحكامِ الآخرةِ والأُمورِ الأُخرويَّةِ .

---

(١) في الأصل : (ذٰلك كل) .

فصل

[في انقطاعِ علومِ البرهانِ بالموتِ الطبيعيّ]

يا مَنْ سَعةُ عُلومِهِ في مَضيقِ البُرهانِ والحدِّ ؛ ألسْتَ بسَلْبِ الموتِ الطَّبيعيّ تُسلَبُ[1] بُرهانَكَ ومُبَرْهَناتِكَ ، وتَصِلُ إلىٰ عُلومٍ وِجدانيَّةٍ غيرِ البُرهانيَّةِ ؟ فالبُرهانيَّةُ مَمزوجةٌ بمُكتَسباتٍ مِنَ الحواسِّ الخَمسِ الَّتي هي فرائضُ المحسوساتِ ، وبينَها وبينَ العُلومِ الَّتي سَمَحَ بها العَقلُ الخَلقيُّ مناسبةٌ ؛ فوَجَبَ امتِزاجُها ، وكذٰلكَ حَصَلَ لها ضَعفٌ لا تَستَصحِبُها النَّفسُ بعدَ الموتِ ، فلماذا[2] البِناءُ عليها ؟ ولماذا[3] الِاعتدادُ بها وهي طَوالِعُ سَريعةُ الأُفولِ ، يَسلبُها[4] الموتُ الطَّبيعيُّ ؟

فما أَغفلَكَ[5] أيُّها الحكيمُ الفلسفيُّ ! وما أقلَّ حظَّكَ مِنَ العلمِ وبَحرِهِ إلَّا وَشلٌ يَسيرٌ ! فلهٰذا المعنىٰ ما لَمْ يَسَعْ مِيزانُ[6] بُرهانِكَ للأَحكامِ الأُخرويَّةِ ؛ فأنكرتَها وجَهِلتَها .

والعجَبُ مِنكَ أنَّكَ أثبتَّ ضَروريَّاتٍ وبَديهيَّاتٍ ما دَخلَتْ[7] في مِيزانِ البُرهانِ ، وتُنكِرُ عُلوماً لا يَسَعُها مِيزانُ البُرهانِ !

---

(١) كلمة (تسلب) زيادةٌ يقتضيها السِّياق .

(٢) في الأصل : (فماذا) .

(٣) في الأصل : (وماذا) .

(٤) في الأصل : (يسلبها) .

(٥) في الأصل : (أعقلك) .

(٦) في الأصل : (الميزان) ، وضربَ النَّاسخُ على الألف واللام .

(٧) في الأصل : (دخل) .

فصل

[في سؤالِ الفلاسفةِ عن برهانِ انتهاءِ الكائناتِ]

أيُّ البُرهانِ لكَ على انتهاءِ الكائناتِ وانقِطاعِها ؟ وأيُّ البُرهانِ لكَ علىٰ وُجودِ عالَمٍ آخَرَ غيرِ الكائناتِ الَّتي انتهَتْ بانتهاءِ أُستُقُصَّاتٍ ؟ وكُلُّ ذٰلكَ مِنِ ارتماءِ الوَهْمِ ، وإلَّا . . لا وُجودَ بعدَ ذٰلكَ ؛ فإنَّ العالَمَ غيرُ مُتحيِّزٍ[1] ، إذْ يَلزَمُ مِنْ ذٰلكَ التَّسلسلُ ، ممَّا تَبيَّنَ لكَ بهٰذا الشَّأنِ قُصورُ عَقلِكَ وعِلمِكَ .

فما هٰذا العَمىٰ ؟! وما هٰذا الجهلُ ؟! وكيفَ رَضِيتَ بأنَّكَ عِشتَ وما أيقَنْتَ في عُلومِكَ ؟ وهٰذا الخِطابُ لأئمَّتِك ؛ كابنِ سِينا والفارابيِّ ، وأئمَّتِهم ؛ كأرسْطاطاليسَ وأفلاطونَ ، فكم يدنُونَ في أضواءِ عُلومِهم مُقلِّدِينَ كافِرينَ باللهِ وآياتِه وبرُسُلِه .

---

(١) في الأصل : (متحيّز في) ، وما أثبتُه مِن « تفسيرِ الرَّازي » (٣٩٩/٢١) .

فصل

[فيمن وجدَ البحرَ . . استقلَّ السواقيَ]

يَنابِيعُ العُلومِ الدَّفَّاقةُ[1] بماءِ الحياةِ تَصوَّبَتْ إلى مُنقَعِراتِ استِعداداتِ الرُّسُلِ كسَيْلِ أخذَتْهم حتَّى أَلقَتْهُم في بَحرِ العلمِ الأَزَليِّ ، فشَخَصَتْ بصائرُهُم مُطالِعةً الجمالَ الأزليَّ ، وتصاعَدَتْ أنفاسُ حُنُوِّهم مُدارِكةً المَددَ ؛ ممَّا أعادَتْ بصائِرَهُم لمُطالعةِ[2] الكَائناتِ في تَفاصِيلها ، واستَغنَوْا بانعكاسِ حَمَلتِها في مِرآةِ استِعدادِهِم ، ولَمْ يرضَوْا مِنْ نُفوسِهِم إضاعةَ الزَّمانِ والوقتِ في تَصَفُّحِ تَفاصيلِ الكَائناتِ ، ومُطالعةِ العُلومِ البُرهانيةِ وعُلومِ الهيئةِ وغَيرِها ؛ كالطَّبيعيَّاتِ والرِّياضيَّاتِ ، واستَقذَرَتْها[3] عِزَّةُ أوقاتِهِم ، وقالوا بلِسانِ الحالِ : [الطويل]

ومَن وَجَدَ البَحرَ استقلَّ السَّواقِيا[4]

---

(١) في الأصل : (الدَّقاقة) .

(٢) في الأصل : (مطالعة) .

(٣) في الأصل : (واستقدرتها) .

(٤) هذا عَجُزُ بيتٍ شهيرٍ لأبي الطَّيِّبِ المتنبِّي ، وصدره :

قواصِد كافورٍ تَوارِكَ غيرِهِ

وهو من عيونِ الأمثالِ السَّائرة في شِعرِه . ينظر « الأمثال السَّائرة من شعرِ المتنبِّي » للصَّاحب ابن عبَّاد (ص ٥٨) ، وفي « الديوان » : (ومَن قَصَدَ) .

فصل

[في سعةِ علمِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ومَنِ اقتبسَ منهم]

أَصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومَنِ اقْتَبسَ منهُم حَظُوا بقِسطٍ مِنَ العلمِ ، ورَكِبوا بذلكَ غَوارِبَ اجتهادٍ بالرَّوْبِ[1] في العُبوديَّةِ ، فلهُم بكُلِّ سَجدةٍ اقتِباسٌ مِنْ نُورِ العلمِ ، وبكُلِّ آيةٍ مِنْ كلامِ اللهِ تعالى اقتِباسٌ ، وبكُلِّ رُكوعٍ اقتِباسٌ ، ولهُم في الدَّرَجاتِ الإلـهيَّاتِ في الصِّراطِ مَعارِجُ وارتِقاءٌ مِنْ مَهواةِ[2] الوُجودِ الإمكانيِّ إلىٰ قُربِ الوُجودِ الوُجوديِّ ، ولهم في سَاعاتِ زَمانِهم مُرورٌ بالوَادِ المُقدَّسِ وسَماعٌ مِنْ شاطئِ الأَيمنِ بقُربِ أَسماعِهم ، ويَنظرونَ مِنْ ذُرَا مَعالي مَقاماتِهم إلىٰ عَرْصةِ الجَهَالةِ مُتَّسعةِ الأَطرافِ يَدِبُّ فيها حُكَماءُ الفلاسفةِ ، يَمشُونَ زَحْفاً مُعرِضينَ الكَلالَ ، رَاكِبينَ غَوارِبَ سُوءِ المآلِ ، يُنادُونَهم : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾[3] ، ارجِعوا إلىٰ أوطانِ الفِطرةِ ، وامْحُوا كُلَّ ما انتَقَشَ في أَلواحِ أَذهانِكُم[4] ؛ عسَاكُم تُنشَؤُوا نَشاءَ مُستَأنَفاً ، وتجدوا وجوداً أُنُفاً .

---

(١) رَابَ يَرُوبُ رَوْباً ؛ أَيْ : أَدْرَك . انظر « تاج العروس » (٥٤٢/٢) .

(٢) في الأصلِ : (مَهمواة) .

(٣) سورة الحديد : (١٣) .

(٤) في الأصل : (أذهانك) .

فصل

[في غفلةِ الفلاسفةِ عنِ انتهاءِ ما أثبتوا أزليتَهُ مِنَ الأجسامِ]

أيُها الحَكيمُ[1] الذَّكيُّ الَّذي يُراجِعُ فِكرَهُ في إثباتِ أَوَّليَّةِ الأَجسامِ ، ويَرِدُ دِرايةً ورأيَ مَنْ يَحذو حَذوَهُ فيهِ في الإستنباطِ بالأَفكارِ ؛ اختَلفتُم في الماءِ والنَّارِ والهواءِ ، وقَطعتُم جُزءاً يَسِيراً مِنْ أَذيالِ الأَزليَّةِ ، ثمَّ أثبتُّم مِنْ أَوَّليَّةِ الأجسامِ ، فلِمَ غَفَلتُم عنِ انتِهائِها ؟! فما لهُ مَولِدٌ مِنْ قُدرةِ الأَزَلِ يكونُ لهُ مدفَنٌ في عَرْصةِ الأَبدِ .

فلماذا التَّحيُّرُ والغَيبةُ عن حقيقةِ العلمِ ؟!

ثمَّ كمْ سَبَقَتْ أَوائلُ مُختَلِفةٌ عنِ الأَزليَّةِ ، وكم أَواخِرُ مَحجوبةٌ في أَستارِ الأَبديَّةِ ، فقدْ صَنَعتَ مِيزانَ بُرهانِكَ ، وكَسَرْتَ مِعيارَ حَدِّكَ ، وغَفَلتَ بأنَّ مِيزانَ بُرهانِكَ ومِعيارَ حَدِّكَ مُعلَّقٌ بعَلَّاقةِ الحياةِ الطَّبيعيَّةِ ، وبالموتِ الطَّبيعيِّ تَنقَطِعُ العَلَاقةُ ، فلا يَبقَىٰ حَدٌّ ولا بُرهانٌ ، ولو أنَّ البُرهانَ والحدَّ صَلُحا وِعاءً للعلمِ . . لارتَسَما في النَّفسِ النَّاطقةِ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ كارتِسامِ الأمورِ الأُخرويَّةِ فيها كالعِلمِ باللهِ تعالىٰ ؛ لِتَعلمَ أنَّ السَّماءَ انفطرَتْ ، والكَواكبَ انتَثرَتْ ، وبَدَّلَ الأرضَ غيرَ الأَرضِ ، وطوَى السَّماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ .

هٰذا تجدُه في البَرزخِ قبلَ أنْ يُطوَىٰ بالكُلِّيَّة عندَ النَّفخِ في الصُّورِ ، و« مَنْ مَاتَ . . فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »[2] ، و« ٱلْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ ٱلْآخِرَةِ »[3] .

---

(١) في الأصل : (الحليم) .

(٢) هو حديثٌ أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » (١٧٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٣٠٨) من حديث سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وحسّنه .

فيا أَرِسْطاطاليسُ ومُشاكِلوهُ ، وأَتباعُهُم المُقلِّدونَ لهم ، المُقتبِسونَ مِن نارِهِمُ الخامِدةِ سَريعاً ؛ قدْ[1] خرِبَتْ أَعشاشُ طُيورِ أَفكارِكُم ، وبَقِيتُم رَهائنَ حَنادِسِ أَوزَارِكُم ، يا ضالُّونَ يا مُضِلُّونَ .

(١) في الأصل : (وقد) .

فصل

[في عالَمي الملكِ والشهادةِ والغيبِ والملكوتِ وعلمائِهما]

هٰذه الأرضُ الكُريَّةُ ـ كما زعَمْتَ وأثبتَّ ـ مَزرَعةٌ للنُّفوسِ الإنسيَّةِ ، أُخرِجَتْ بُذُورُها[1] مِنَ الغَيبِ بعدَ أنْ تَهيَّأتِ المزرعةُ بنَظرةٍ مِنْ نَظَراتِ المشيئةِ الأَزليَّةِ ، وأُودِعَ في أَجزاءِ تُرابِها خاصِّيَّةُ الحياةِ الأَبديَّةِ ، ثمَّ استُنزِعَتْ تلكَ الخاصِّيَّةُ لتَركيبِ قالَبِ الإنسانِ ، فانقَسَمَتْ عالَمَيْنِ : عالَمُ المُلكِ والشَّهادةِ ، وعالَمُ الغَيبِ والمَلَكوتِ .

ولكلِّ عالَمٍ مِنَ العَالَمَيْنِ عُلماءُ يَشتَغِلونَ بهِ ، وهم عُلماءُ الدُّنيا والآخرةِ ؛ فلِعالَمِ الدُّنيا عُلومٌ اشتَملَتْ علىٰ فَلَكِ البُروجِ إلى الفَلَكِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ وعلىٰ أَجزائِها وتَفاصِيلِها ، ويَجولُ في مَيدانِهِ نُورُ الفِطرةِ المُنتقَشُ في صَحِيفتِهِ العلومُ الأُخرويَّةُ ، ويَقَعُ الفُرقانُ بينَ العَالَمَيْنِ بالموتِ الطَّبيعيِّ .

وكانَ سَهمَ الجامِدينَ على العَقلِ[2] الخَلْقيِّ عُلومٌ تَحيَّرَتْ في الحدِّ والبُرهانِ ، وحَظُّ أَربابِ العقلِ الفِطريِّ العلومُ الأُخرويَّةُ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، فتَفاصِيلُ الجنَّةِ : حُورُها[3] وقُصُورُها وأَشجارُها وأَنهارُها ، وتَفاصِيلُ النَّارِ : الأَنكالُ والأَغلالُ وغيرُ ذٰلك ، فالنُّفوسُ المُفارِقةُ الأَبدانَ مُكاشَفونَ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ بمَجالِهِم في الجنَّةِ والنَّارِ ، ويُحيطونَ بذٰلكَ عِلماً ، لا يُحَدُّ ذٰلكَ العِلمُ إلَّا بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ ، وتُستَبدَلُ النُّفوسُ عن هٰذه العلومِ ـ عُلومِ عالَمِ الشَّهادةِ ـ عُلوماً هي في خَزائنِ علمِ الغَيبِ ، فلا يَبقَىٰ حَدٌّ ولا بُرهانٌ ولا مَحسوسٌ .

فخُذْ أنتَ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ ما وقَعَتِ الإشارةُ إليهِ ، فعن قَريبٍ تُخلِّفُ وراءَكَ

---

(١) قد تُقرأ في الأصل : (بسورها) .

(٢) في الأصل : (العقول) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٣) في الأصل : (وحُورها) .

عُلومَك ومَعلوماتِكَ ، وتَقدُمُ علىٰ عُلومٍ ومَعلوماتٍ هي في خَزائنِ الغَيبِ لا يُفتحُ بابُها إلَّا عندَ الموتِ الطَّبيعيِّ ، وعندَ ذٰلكَ يَتبَيَّنُ لكَ أنَّ الرُّوحَ الأَعظمَ ـ الرُّتبةَ الأُولىٰ ـ هو المبدأُ الَّذي فتَحَ الإلٰهُ القدِيمُ والصِّفاتُ والأَسماءُ بهِ بابَ عالَمِ الشَّهادةِ ، وجَعْلُ الرُّوحِ الأَعظمِ الرُّتبةَ الأُولىٰ هي أنْ عَمَّكَ طَرَفُ الإيجابِ ، ثمَّ تَلَاهُ الإمكانُ وأَجزاؤُهُ وأَبعاضُهُ ، وأنَّ مِنْ أَجزائِهِ النَّفْسَ الكُلِّيَّ الَّتي كُوِّنَتْ مِنَ الرُّوحِ كتكوينِ حوَّاءَ مِنْ آدمَ .

وكلُّ ما تَحيَّر في فُهومِكَ وأَحاطَ بهِ عِلمُكَ الدُّنياويُّ المربوطُ بعَلَّاقةِ الموتِ الطَّبيعيِّ مِنَ الأَفلاكِ والكَواكبِ . . ولائذُ الرُّوحِ الأَعظمِ والنَّفسِ الكُلِّيِّ ، فتَبقَىٰ ـ أيُّها الحكيمُ الفَلسفيُّ ـ مَحروماً عن لَذَّةِ الحياةِ الأَبديَّةِ ، فكَمْ تَصولُ بعلمِكَ الَّذي تَبقَىٰ منهُ صِفرَ اليديْنِ ، وتقولُ عندَ ذٰلكَ : يا حسرتَا علىٰ ما فرَّطتُ في جنبِ اللهِ ، ويا حسرَتا علىٰ[1] ما فاتَني مِنَ العلمِ ، ويَحظَى العَالِمونَ بالعلمِ الأُخرويِّ بنَعِيمِهِمُ المُقيمِ ، ويَظهَرُ فيهِم أَثرُ الفَضلِ الأَزليِّ ، ويَظهَرُ في الآخَرينَ أَثرُ العَدلِ الأَزليِّ ، ويقولُ[2] خَطِيبُ الكِبرياءِ الأَزليِّ : « هَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَهَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلنَّارِ وَلَا أُبَالِي »[3] ، يا معشرَ الأَنبياءِ ؛ خُذوا ذاتَ اليَمينِ أَنتم وأَتباعُكُم ، ويا مَن حُرِموا متابعةَ الأَنبياءِ ؛ خُذوا ذاتَ الشِّمالِ .

ويُؤتَىٰ بالموتِ علىٰ صُورةِ كَبشٍ أَملحَ يُذبَحُ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ ، ويُنادي مُنادي الإستغناءِ : خلودٌ بلا موتٍ يا أَهلَ الجنَّةِ ، وخُلودٌ بلا مَوتٍ يا أَهلَ النَّارِ[4]

---

(١) كلمة (علىٰ) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٢) في الأصل : (ويكون) .

(٣) تقدَّم تخريجه (ص ٢٥٣) .

(٤) أخرجه البُخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) من حديثِ سيدنا أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه .

فصل

[في سعةِ ميدانِ العلمِ]

اعلمْ : أنَّ الأَنبياءَ والرُّسُلَ صلواتُ اللهِ عليهِم مَسلَكُهُم نُورُ اليقينِ والإيمانِ ، يَنتَهي بهِم ذٰلكَ إلى الكَشفِ والعِيانِ ؛ لقولِ قائلِهِم[1] : لو كُشِفَ الغِطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً ، ولقولِهِ : لا أَعبدُ ربّاً لمْ أَرَهُ[2] ، ويقولُ : ما زِلتُ أُردِّدُ الآيةَ علىٰ قَلبي[3] حتَّىٰ سَمِعتُها مِنَ المُتكلِّمِ بها ، يُنقَلُ ذٰلكَ عن جعفرِ الصَّادقِ[4] رضيَ اللهُ عنهُ ، ويقولُ قائِلُهُم : لقدْ تجلَّىٰ في كَلامِهِ ولٰكنْ لا تبصرونَ .

ومَسلَكُ الأُخرىٰ مِنَ الفلاسفةِ : بُرهانٌ يُتدرَّجُ إليهِ بالمبادئ مِنْ عُلومِ الرِّياضِيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ حتَّىٰ يُوصِلَانِهِم إلى البُرهانِ ، فيكونُ لهمُ البُرهانُ ؛ يوقِفُهُم على المركَّباتِ والحدِّ .

والعِلمُ مَيدانٌ فَسِيحٌ متَّصِلُ الطَّرفيْنِ بالأَبدِ والأَزَلِ ؛ لأَنَّهُ مُستمَدٌّ مِنْ كَلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتي يَنفَدُ البحرُ دونَ نَفادِها ، وتَنفَدُ أَعدادُ الرِّمالِ دونَ أَعدادِها .

والبُرهانُ سِكَّةٌ مِنْ هٰذا الميدانِ ، والحَدُّ زَوايةٌ مِنْ تلكَ[5] السِّكَّةِ ، فقضَى العِيانُ إدالةً على البُرهانِ ؛ لأَنَّ البُرهانَ قليلُ الجَدوَىٰ ، والعِيانَ بعِيدُ المدَىٰ .

---

(١) نسَبه القُشيريُّ في « الرِّسالة » (٣١٩/١) إلىٰ عامرِ بنِ عبدِ القيسِ .

(٢) أخرجه الكُلَينيُّ الشِّيعِيُّ في « الكافي » ٩٨/١ : قال : عِدَّةٌ مِن أصحابنا ، عن أحمد بن محمَّد بن خالدٍ ، عن أحمد بن محمَّد بن أبي نَصرٍ ، عن أبي الحسنِ الموصلي ، عن أبي عبد اللهِ عليه السَّلام قال : جاء حَبرٌ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ صلوات اللهِ عليه فقال : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ هل رأيت ربَّك حين عَبدتَه ؟ قال : فقال : ويلَك ! ما كنتُ أعبدُ ربّاً لم أره ، قال : وكيف رأيتَه ؟ قال : ويلَك ! لا تُدرِكُه العُيونُ في مُشاهَدَةِ الأبصارِ ، ولٰكن رأته القلوبُ بحقائقِ الايمانِ .

(٣) قوله : (علىٰ قلبي) : زيادةٌ لازمةٌ أضافها الإمامُ الغزاليُّ في « الإحياء » (٢٨٧/١) .

(٤) أورده المكي في « قُوتُ القلوبِ في مُعاملةِ المحبوب وصفُ طريقِ المريدِ إلىٰ مَقامِ التَّوحيد » (٨٨/١) ، والغزالي في « الإحياء » (٢٨٧/١) .

(٥) قوله : (من تلك) تكرَّر في الأصل .

يَطِيرُ البُرهانُ والمُبرهَنُ بالموتِ الطَّبيعيّ كأَنْ لمْ تغنَ بالأمسِ ، يُطوَىٰ بالمَوتِ الطَّبيعيّ جَريدةُ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وتَخفُقُ رَاياتُ البقاءِ الأَبديّ ، ويُنادَىٰ : لمنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ للهِ الواحدِ القهَّارِ ، ونُفخَ فِي الصُّورِ فصعقَ مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ ، فكلُّ إنسانٍ قامَتْ قِيامتُهُ بمَوتِهِ بلا بُرهانٍ ، وأَربابُ العِيانِ عندَ ذٰلكَ لدَى القَهرِ وظُهورِهِ يَسلُكونَ في المَاءِ بما أُتِيحَ لهمُ الحُظوةُ بالعِيانِ ، فالعِيانُ ثابتٌ ثُبوتَ الجبالِ ، والبُرهانُ يَزولُ بِزَوالِ الآلِ .

فأهلُ البُرهانِ سَنَدُهُم أَفكارُ الطَّبيعةِ[1] ، أَخذَتْهُم في مَيادينِ البحثِ والتَّفتيشِ حتَّىٰ أَدرَكوا ما بينَ فَلَكِ البُروجِ وفَلَكِ القَمرِ ، وانتهَوْا إلىٰ مَركزِ النَّارِ ، ثمَّ احترَقَتْ عُلومُهُم وبُرهانُهُم ، ولم يَعلَموا أنَّ ما أدرَكوهُ وُجُودٌ مُتناهٍ ، ولا أُطلِقوا مِنْ عِقالِ عالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ ، ولا بَرَزوا إلىٰ فَسيحٍ فيهِ أملاكٌ ؛ أَحدُهُم قَدمُهُ إلىٰ تُخومِ الأرضِ ، ورأسُهُ تحتَ العَرشِ .

وقدْ وَرَد أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّ لِلّٰهِ أَرْضاً بَيْضَاءَ ، مَسِيرَةُ ٱلشَّمْسِ فِيهَا ثَلَاثُونَ يَوْماً مِنْ أَيَّامِكُمْ ، مَحْشُوَّةٌ خَلْقاً ، لَو سَمِعَ زَجَلَهُمْ أَهْلُ ٱلْأَرْضِ . . لَمَاتُوا مِنْ ذَٰلِكَ ، فِيهَا خَلْقٌ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ خَلَقَ آدَمَ ، وَلَا إِبْلِيسَ »[2]

أَينَ أَنتَ أيُّها الحكيمُ الَّذي غابَ عن مَعرفةِ نفسِهِ ، ومَعرفةِ رَبِّهِ ، ومَعرفةِ

---

(١) في الأصل : (الطَّبيعيَّة) .

(٢) أخرجه أبو الشَّيخ الأصبهاني في « العَظَمةِ » (٤/١٤٤٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ ، عن رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، قال : « إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَىٰ أَرْضاً مِنْ وَرَاءِ أَرْضِكُمْ هَٰذِهِ ، بَيْضَاءَ نُورُهَا ، وَبَيَاضُهَا مَسِيرَةُ شَمْسِكُمْ هَٰذِهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً » . قَالوا : كَانَ رَسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعني مِثلَ الدُّنيا أربعينَ مَرَّةً ، « فِيهَا عِبَادٌ لِلّٰهِ تَعَالَىٰ ، لَمْ يَعْصُوهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ » . قَالوا : يَا رسُولَ اللهِ ؛ أَمِنَ الملَائِكةِ هُم ؟ قَال : « مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ » . قَالُوا : يا رَسولَ اللهِ ؛ أَفمِن وَلَدِ آدَمَ هُمْ ؟ قَالَ : « مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَفَمِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ هُمْ ؟ قَالَ : « مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ إِبْلِيسَ » . قَالُوا : يَا رَسولَ اللهِ ؛ فَمَن هُم ؟ قَال : « هُمْ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمْ : الرَّوْحَانِيُّونَ ، خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ضَوْءِ نُورِهِ » .

مَلائكتِهِ ومَلكُوتِهِ ؟ استَجلِسْ مُستَقِرَّ الطَّردِ ومُنقَعرَ الحَملِ ، وأَدِرْ بهمَّتِكَ القاصِرةِ بأَيدِي أَفكارِكَ سَريسَ [1] الفُلكِ كالنِّسوانِ .

فأينَ أنتَ مِنْ مَبادِئ المَلَكوتِ يَتطارَدُ فيها شُجعانُ العِيانِ ، يُدبِرونَ كُرَةَ الأَطوارِ الدَّهريَّةِ بصَولجانِ الكَشفِ والعِيانِ ، ويَحتَسُونَ شَرابَ العلمِ اللَّدُنِّيِّ بِكَبِدٍ عَطشانَ ، يُنادُونَ بلِسانِ الإفتِقارِ والطَّلبِ : هل مِنْ مَزيدٍ ؟ ولا يُزادُ وَقودُ الرَّبَّانيَّةِ عليهِم مِنْ بِحارِ المَزيدِ حتَّى ماجَتْ أَبحُرُ العلمِ ، فتَتَجاوزُ أَوعِيةُ النُّفوسِ الإنسيَّةِ الحدَّ .

ففي ذٰلكَ الحِكمَةُ البالِغةُ لتَقِفَ النُّفوسُ الإنسيَّةُ عندَ حَدِّها ؛ إذْ لو لمْ تكُنْ كذٰلكَ . . لَشَطَحَتْ ، حتَّى لاقَى ساحِلَ الجَبروتِ وتَصَوَّرَ في مِرآةِ إدراكِ وُجودِ جَائزِ [2] الوُجودِ عكسَ آثارِ جَلالِ واجبِ الوجودِ ، ومِنْ ذٰلكَ كبا في ذَيلِ التَّعدِّي مَنْ قالَ : أَنَا الحقُّ ، وسُبحاني [3] .

والعِلمُ الكُلِّيُّ مِنْ سَعتِهِ مُنقَسِمٌ على طَبقاتِ السَّماواتِ وأَهلِها ، وبالعُروجِ الرُّوحانيِّ نَيْلُ الحُظوةِ في كلِّ سَماءٍ ، ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَخَذَ الحبلَ بِطَرَفَيْهِ بعُروجِ ظَاهرِهِ وباطنِهِ ، فاحتَوى على الحظِّ الوافرِ المُودَعِ في طَبقاتِ السَّماواتِ ، فأُوتيَ جَوامِعَ الكَلِمِ ، وأُروِيَ مِنْ عُلومٍ ما مرَّ منها نَسمَةٌ بمَشامِّ فَلسَفِيٍّ أَبداً ، فصارَ مِحقَنَ عُلومٍ عِيانيَّةٍ بذٰلكَ .

والفَلسفيُّ استَكثَرَ ما اطَّلَعَ عليهِ مِنْ عالَمِ المُلكِ ، واستَعظَمَ عِلمَهُ بأَنَّ الشَّمسَ نَيِّفٌ وسِتُّونَ مَرَّةً مِثلَ الأَرضِ ، فما أَثبتَهُ مِنْ علمِهِ يَسيرٌ مِنْ كَثيرٍ ، فأَينَ البُرهانُ مِنَ العِيانِ ؟

---

(١) السَّريس : هو الضعيف هنا . انظر : « لسان العرب » (س ر س) .

(٢) في الأصل : (حائز) .

(٣) وكأنَّه يعني الحلَّاجَ ومَن لفَّ لفَّه ، ودارَ في فَلَكِه مِن زُمرتِه ، ومِن أَقوالهم الشَّنيعة : أنا الحقُّ ، سُبحاني ما أعظمَ شاني ، وما في الجبَّةِ إلَّا الله ، فظاهرُ كلامِهم أنَّهم لا يُثبِتونَ الوَحدانيَّةَ للهِ تعالى ، وهم بذٰلك مُتعدُّونَ على حُرمَةِ اللهِ تعالى .

فكما أدالَتِ الآخِرةُ على الدُّنيا . . أدالَ العِيانُ على البُرهانِ ، وقدْ وَرَد في الخبرِ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ كَمَثَلِ غَمَسَ إِصْبَعَهُ فِي ٱلْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ »[1]

(١) سبق تخريجه (ص ٢٧٠) .

فصل

[في منتهىٰ إدراكِ العقلِ الخَلْقي والعقلِ الفِطريّ]

الهِمَمُ تَسابَقَتْ في نُهوضِها ؛ فمِنْ هِمَمٍ نَهضَتْ مِنْ أَغساسِ[1] المَلَكوتِ ، لها قَوادِمُ وخَوافي مِنَ الأَرواحِ القُدُسِيَّةِ ، وهِمَمٌ نهَضَتْ مِن أَفكارِ المُلكِ ، لها قَوادِمُ وخَوافي مِنَ الأَرواحِ الحيَوانيَّةِ المُحتَبِسةِ المُمتارَة[2] مِنْ أَرواحِ الحيَواناتِ ؛ لكَونِهِ مَحَلاً للرُّوحِ الحيَوانيّ مُتَحلِّي[3] بحِليةِ الإلهامِ الموصوفِ بالنُّطقِ ، لمْ يَعدِمْ ثِقالاتٍ مانِعةً مِنَ الطَّيرانِ ؛ لتَخلُّفِهِ مِنَ الفِطرةِ ، واحتِجابِهِ[4] بحِجابِ الخِلْقةِ ، واستِمدادِهِ مِنَ العقلِ الخَلْقيّ .

والهِمَمُ النَّاهِضةُ مِنْ أَفكارِ المَلَكوتِ قَطَعَتْ عَرْصةَ عالَمِ المُلكِ في أَسرعِ وَقتٍ ، ثُمَّ أَخَذَتْ في السَّيْرِ في عالَمِ المَلَكوتِ حتَّىٰ جَمَعَتْ بينَ الإدراكِ[5] الدُّنياويّ والإدراكِ الأُخرَويّ ، فبقيَتْ مُخلدةً[6] ، فعالَمُ الدُّنيا مُدرَكٌ بالعَقلِ الخَلْقيّ ، وبهِ يُنتهىٰ إلىٰ عالَمِ العِلَلِ ، وهٰذا غايةُ إدراكِ العَقْلِ الخَلقيّ ومُنتهَاهُ ، فإدراكُ العلَّةِ الأُولىٰ ومَعلولِها الأَوَّلِ ، والفَرقُ بينَ العِلَّةِ والمعلولِ : بالسَّبقِ الذَّاتيّ ، لا بالسَّبقِ الزَّمانيّ .

ثمَّ يَنزِلُ إلى المعلولِ الثَّاني ؛ وهو النَّفسُ الكُلِّيُّ ، وإلىٰ مَعلولِهِ ، والمعلولُ الثَّاني غابَ عنِ الفَلاسفةِ ، فعبَّروا عنهُ بأنَّهُ : المُوجبُ ذا طَرفَيْنِ إلى الإيجابِ

---

(١) أغساس : جمع غسّ ، والمقصود بها هنا : الضُّعفاء في آرائهم وعُقولهم . انظر « لسان العرب » (١٥٤/٦) (غ س س) .

(٢) في الأصل : (الحيوانيّ المحتبس الممتاز) ، والإمتيار : بمعنى الاستِلالُ ، حكاه في « تاج العروس » (م و ر) .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) في الأصل : (واحتجاجه) .

(٥) في الأصل : (إدراك) .

(٦) في الأصل : (يبقىٰ مخلداً) .

والإمكانِ ، وفرَّقوا بينَهُ وبينَ ما زعَموا أنَّهُ العِلَّةُ الأُولَى الَّتي لا يُوجَدُ منها[1] إلَّا واحدٌ وسَلِمَ منهُ التَّكَثُّرُ ، ولم يَعلَموا أنَّهُ العقلُ الفِطريُّ ، وهُو لِسانُ الرُّوحِ ، والمعلولُ بعدَهُ النَّفسُ الكُلِّيُّ ، والمعلولُ بعدَهُ العقلُ الخَلْقيُّ ، ولا يُعرَفُ العقلُ الخَلْقيُّ في اصطلاحِهِم ، وهو لِسانُ النَّفسِ الكُلِّيِّ ، فالنَّفسُ لها رُتبةُ الأُنوثةِ ، والرُّوحُ الأَعظَمُ لا يُدرِكُ وُجُودَهُ الفلاسِفةُ ؛ لأنَّهُ لا يُدرَكُ إلَّا بالعقلِ الفِطريِّ ، وما لهم إلَّا العقلُ الخَلْقيُّ .

والعقلُ الخَلْقيُّ مُوكَّلٌ بعالَمِ المُلكِ ، ومَبدؤُه : العِلَّةُ الأُولىٰ ، وهُو مُفتَتَحُ عالَمِ المُلكِ ، فلَا يَزالُ يَطوِي بِساطَ البَسائطِ والمُركَّباتِ بينَ فَلَكِ[2] البُروجِ وفَلَكِ القَمرِ .

والعقلُ الفِطريُّ يُدرَكُ بهِ المَلَكوتُ ، ومُنتهاهُ إلى العِلمِ باللهِ ذي الأَسماءِ والصِّفاتِ ؛ القَادرِ الَّذي مِنْ أَثَرِ قُدرتِهِ تَكوينُ الرُّوحِ الأَعظمِ الَّذي هُو مُنتهىٰ عالَمِ المُلكِ ، فلا يُسلَكُ بَوادِي عالَمِ الغَيبِ إلَّا بالعقلِ الفِطريِّ ، وهو الَّذي مَسَحَهُ قَدَمُ الرُّسلِ وأَتباعِهم ، وليسَ للفَلاسفةِ سَيرٌ[3] فيه رأساً ؛ لأَنَّ العقلَ الخَلْقيَّ حصَرَهُم في حِصنِهِ ، ولا بُروزَ لهم منهُ ، فالعقلُ الخَلْقيُّ ضَئيلُ السَّيرِ لِنسبَتِه إلىٰ أُنوثةِ النَّفسِ ، والعقلُ الفِطريُّ عَظيمُ السَّيرِ جاسَ خِلالَ دِيارِ الغَيبِ لِنسبَتِهِ إلىٰ ذُكورةِ الرُّوحِ .

والرُّوحُ الأَعظمُ والنَّفسُ الكُلِّيُّ هما زَوجانِ في عالَمِ الأَمرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[4] ، ومنهما كوَّنَ اللهُ تعالى الكائناتِ مِنَ الأَفلاكِ والكَواكبِ ، وكلُّ ذٰلكَ ولائِدُ هٰذينِ الزَّوجَينِ ، ثمَّ سَرى التَّكوينُ مِنْ عالَمِ الأمرِ إلىٰ عالَمِ الخَلقِ ، وتَجسَّدَ في آدَمَ المُستَحِقِّ لخِلافةِ اللهِ تعالىٰ واستئهالِهِ مَسجُودَ

---

(١) في الأصل : (منه) .

(٢) في الأصل : (الفلك) .

(٣) في الأصل : (سيراً) .

(٤) سورة الذاريات : (٤٩) .

الملائكةِ ، وخَلَقَ منهُ حوَّاءَ ، فصارا زَوجيْنِ في عالَمِ الخَلقِ ، ومنهما الذُّرِّيَّةُ ، وخَلَقَ الأَرواحَ قبلَ الأَجسَادِ ، فتعلمُ أنَّ السَّنةَ عندَ اللهِ اثنا عشَرَ شهراً ، والشَّهرَ ثلاثونَ يوماً ، واليومَ كألفِ سَنةٍ ، وتعلمُ عندَ خَلْقِ الرُّوحِ وسَبْقِهِ على العِلَّةِ الأُولى الَّتي هي مَحصورةٌ بالعَقلِ الخَلْقيِّ ؛ لتَعلَمَ سَبْقَ القُدرةِ القَديمةِ على العِلَّةِ الأُولىٰ ، فتَبيَّنَ بذٰلكَ أنَّ القُدرةَ القَديمةَ لها علاماتٌ أَوَّليَّاتٌ لعَوالمَ غيرِ مُتناهيةٍ .

وهٰذا العالمُ قَضِيَّةُ مَشيئةٍ واحدةٍ مِنْ مَشيئاتِ اللهِ المُستنِدةِ إلى الإرَادةِ القَديمةِ ، فيَعلمُ الفلاسِفةُ أنَّ مُدرَكَهُم ومَعلومَهُم عالَمٌ هو ما[1] قَضَتْهُ مشيئةٌ واحدةٌ ، فأينَ هُم مِنْ عَوالمَ ما أَدرَكُوها ولا لهم عنها خَبَرٌ ولا أثَرٌ ؟ فيَبقَى الحُكماءُ والفلاسِفةُ مُتوطِّنِينَ في عالَمٍ يُحِيطُ بهِ سُرادِقُ العَقلِ الخَلْقيِّ ، والأنبياءُ وأَتباعُهم بَرَزوا مِن هٰذا الحِصنِ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ الَّذي يُحِيطُ بهِ العقلُ الفِطريُّ ، وفيهِ الأَملاكُ ذوو أَجنحةٍ مَثنَىٰ وثُلاثَ ورُبَاعَ ، وفيها عَينٌ تحتَ العَرشِ ، ويَنزِلُ فيها جَبْرَئيلُ ثمَّ يَصعَدُ فينتَفِضُ انتفاضَةً يُخلَقُ مِنْ كلِّ قَطرةٍ مِنِ انتِفاضَتِه مَلَكٌ يَطِيرُ إلىٰ يومِ القيامةِ .

ولهٰذا يُنادَىٰ في مَنازِلِ الجنَّةِ : وسقاهُمْ ربُّهُم شراباً طهوراً ، مِنَ الحيِّ الَّذي لا يموتُ ، إلى الحَيِّ الَّذي لا يموتُ ؛ هٰذا لأَربابِ العِيانِ .

وأَربابُ البُرهانِ راجِعونَ قَهْقَرىٰ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ ، ناكِسو رُؤوسِهم في الهُبوطِ إلىٰ سِجِّينٍ ؛ وَفاءً لحقِّ صِفةِ القَهرِ ، والأَوَّلونَ يَتوَقَّلونَ ذُرَا الاِستِعلاءِ إلىٰ عِلِّيِّينَ ؛ وَفاءً لحقِّ صِفةِ اللُّطفِ الإلٰهيِّ الأَزَليِّ .

فالعقلُ الخَلْقيُّ نِسبَتُهُ منها قاصِرٌ خَطوُهُ ، ضَعِيفٌ سَيرُهُ ؛ لنِسبَتِهِ إلىٰ أُنوثةِ النَّفسِ ، لا يزالُ يتَعثَّرُ في أَذيالِ الكَائناتِ الَّتي هي أَمَتْ مَيدانَهُ ، فأنَّىٰ لهُ الوُصولُ إلىٰ إدراكِ كُنْهِ المُكوِّنِ ؟!

---

(١) كلمة (ما) : زيادة لِاستقامةِ السِّياقِ .

والعقلُ الفِطريُّ صَيقلٌ حُسامُهُ ، يَكادُ يَخِفُّ بصَوَّانِهِ إلىٰ مَعدِنِهِ ، كما خَفَّ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةَ المِعراجِ ؛ لنِسبتِهِ إلىٰ ذُكورةِ الرُّوحِ ، ففي شعرٍ[1] : [من الكامل]

ثَقُلَتْ زُجَاجَاتٌ أَتَتْنَا فُرَّغاً حَتَّىٰ إِذَا مُلِئَتْ بِصِرْفِ ٱلرَّاحِ

خَفَّتْ فَكَادَتْ تَسْتَطِيرُ بِمَا حَوَتْ وَكَذَا ٱلْجُسُومُ تَخِفُّ بِٱلْأَرْوَاحِ

فأخَذَ العقلُ الفِطريُّ في تَصحِيفِ صَحائفِ الغَيبِ ، فاكتَحلَ بالحُورِ والقُصورِ ، والوِلدانِ والغِلمانِ ، لا يزالُ بذٰلكَ قَريرَ العَينِ ، والعَقلُ الخَلْقيُّ مُتوَطِّنٌ أوطانَ نِيرانِ البُرهانِ ، أحرَقَتْهم سَمائمُ القَهرِ الأَزَليِّ ، وأدرَكَتْهُم شَقاوةُ[2] السَّابقِ الأَوَّليِّ ، يَودُّونَ أنَّهم ما عُلِّموا وما نَطَقوا ولم يُملُوا صَحائفَ الكُتُبِ ، كما قالَ قائلٌ : شعرٌ[3] : [من الكامل]

وَلَقَدْ سُرِرْتُ بِمَا جَهِلْتُ وَسَاءَنِي عِلْمِي كَمَا قَدْ[4] سَرَّنِي مَا أَعْلَمُ

مَنْ لِي بِعَيْشِ ٱلْأَغْبِيَاءِ فَإِنَّهُ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ مَنْ لَا يَفْهَمُ

فَٱلصَّعْوُ[5] يَرْتَعُ فِي ٱلرِّيَاضِ وَإِنَّمَا حُبِسَ ٱلْهَزَارُ[6] لِأَنَّهُ يَتَرَنَّمُ

---

(١) انظر « معجم الأدباء » (٢٢/٤) .

(٢) في الأصل : (الشَّقاوة) .

(٣) للأرجاني ، انظر « ديوانه » (١٣٤١/٣) .

(٤) كلمة (قد) ليست في الأصل .

(٥) الصعو : طائر أصغر من العصفور ، أحمر الرأس . انظر « لسان العرب » (ص ع ا) .

(٦) الهزار : طيرٌ جميلُ الشَّكلِ والصَّوتِ . انظر « لسان العرب » (هـ ز ر) .

فصل

[في انشغالِ الأنبياءِ بمطالعةِ الملكوتِ عن مطالعةِ المُلكِ]

أُبِينَتِ النَّفسُ النَّاطقةُ مِنَ الرُّوحِ القُدُسِيَّةِ إبانةَ حوَّاءَ مِن آدمَ ، فصارَتِ النَّفسُ النَّاطِقةُ بمَثابةِ الأُنثىٰ ، والرُّوحُ بمَثابةِ الذَّكَرِ ، فالرُّوحُ مُشتَمِلٌ على العُلْوِيَّاتِ المُكوِّناتِ ، والنَّفسُ مُشتَمِلةٌ على الأَركانِ والعناصِرِ والأُستُقُصَّاتِ .

والبُرهانُ لِسانُ النَّفسِ النَّاطقةِ ، فاحتِواءُ النَّفسِ النَّاطقةِ على الكائناتِ الخَلقيَّاتِ صارَتْ دَلِيلاً إلى العلومِ ؛ فمُنتَهى البُرهانِ ـ الموتُ الطَّبِيعيُّ ، وتَنفَرِدُ الفِطرةُ بالعلومِ بعدَ الموتِ ، وتُدرَكُ العُلومُ إدراكَ الضَّروريَّاتِ والبديهيَّاتِ .

وبعدَ الموتِ الطَّبِيعيِّ تَنقَسِمُ الإدراكاتُ الفِطريَّةُ مُرتَّبةً على الوَصفَيْنِ : صِفةِ اللُّطفِ ، وَصفةِ القَهرِ ، فيَأنَسُ الأَنبياءُ وأَتباعُهم إلىٰ قَضايا وَصفِ اللُّطفِ مِنَ النَّعيمِ المُقيمِ ، ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[1] ، وأَمثالِ ذٰلكَ ، والفلاسفةُ والضَّالُّونَ أَجمَعُهم يَستَقِرُّونَ في العذابِ الأليمِ ، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[2] ؛ وَفاءً لوَصفِ القَهرِ الأَزليِّ ، فزَمانُ الحياةِ الدُّنيا زَمانٌ قليلٌ ، وأَمَدٌ يَسِيرٌ ، سَرِيعُ النَّفادِ ، حَقِيرُ الاعتدادِ .

والأَنبياءُ وأَتباعُهُمُ الصِّدِّيقونَ أَحاطوا عِلماً بالزَّمانِ اليَسيرِ ، ولَمْ يَكتَرِثوا بمَقالاتِ الفلاسفةِ وأَنحائِهِم ، ويُحاجُّونَ بإبطالِ حُجَجِهِم ؛ لأنَّ عُلومَهُم بأَسرِها انتَقشَت علىٰ أَلواحِ قُلوبِهِم ، فلَمْ يكُ للرِّياضيَّاتِ والطَّبِيعيَّاتِ عندَهُم قدرٌ يتسوَّرونَ[3] بهِ إلىٰ مَعرفةِ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، فَطِباعُ الكَواكبِ وخاصِّيَّةُ الأفلاكِ وتَميُّزُ بعضِ الأفلاكِ عنِ البعضِ ؛ فكلُّ ذٰلكَ طَرحوه اطِّراحَ الشَّيءِ الَّذي لا قَدْرَ لهُ ولا وَزنَ ، وشَغَلَهُم مطالعةُ الملَكُوتِ عن مُطالعةِ المُلكِ ، فأَنِسوا إلى

---

(١) سورة الواقعة : (١٩) .

(٢) سورة النساء : (٥٦) .

(٣) في الأصل : (يتسوروا) .

العلومِ المَلَكوتيَّةِ ، وسَكَنوا إلىٰ مُطالعةِ أَعيانِها مِنَ الجنَّة والنَّارِ والأَملاكِ ؛ فصارَ للفلاسفةِ : الخَلْقيَّاتِ ، وللأَنبياءِ وأَتباعِهم : الفِطريَّاتِ ، وهم يَعِيشونَ بالعلومِ الفِطريَّةِ الَّتي تَنبُعُ مِنَ الأَرواحِ القُدُسِيَّةِ .

والفلاسفةُ أَنِسوا إلى العلومِ الخَلْقيَّة المُوكَّلِ بها العَقلُ الخَلْقِيُّ ، فمُسِحَ عالَمُ المُلكِ ؛ فانتَهىٰ إلىٰ مُنتَهىٰ ؛ وهُو النَّفسُ النَّاطقةِ ، فسَمَّوْها : العِلَّةَ الأُولىٰ وعِلَّةَ العِلَلِ ، وجَعلوا لها مَعلولاً لهُ طَرَفٌ إلى الإيجابِ وطَرَفٌ إلى الإمكانِ ، وتخَبَّطوا خَبْطَ عَشوَاءَ ، ولم يَدرِ الجاهلُ المِسكِينُ أَنَّها النَّفسُ النَّاطِقةُ الَّتي تُفارِقُ البَدَنَ بالمَوتِ الطَّبِيعيِّ ، وَوَراءَ النَّفسِ النَّاطقةِ الرُّوحُ الأَعظَمُ ، بمَثابةِ آدمَ ، يَدرُجُ في عَوالمِ الغُيوبِ بالِاطِّلاعِ الإلٰهيِّ .

فبَقِيَ الفلاسِفةُ والضَّالُّونَ في بَيداءِ الجَهالةِ مُنقَطِعٌ أَثَرُهُم ، مَطمُوسَةٌ[1] مَعرِفَتُهُم ، وَزَنوا الكَائناتِ الفَانِيةَ بالبَراهينِ ، فلمَّا وَصَلوا إلىٰ غيرِها . . لمْ يَجِدوا بُرهاناً ، فذَابَ البُرهانُ بالمَوتِ ذوَبانَ الملحِ بالمَاءِ ، وانقِطاعَ الحياةِ الموقوفةِ على الرُّوحِ الحيَوانيِّ المُتصرِّفِ فيهِ بعلمِ الطِّبِّ ، المُكوَّنِ باعتدالِ مِزَاجِ دَمِ القَلبِ ، وهُو محَلُّ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ الَّذي نزَلَ بهِ ، فالموتُ الطَّبِيعيُّ يُفقِدُ الرُّوحَ الحَيوانيَّ ، ويَبقَى الرُّوحُ الرُّوحانيُّ أَبدَ الآبادِ : إمَّا مُعَذَّباً ، وإمَّا مُنعَّماً عليهِ ، مُخرَّجاً على الصِّفتَيْنِ مِن لُطفٍ وقَهرٍ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[2] ، فالتَّسويةُ : تَكوينُ النَّفسِ النَّاطقةِ ، وبعدَ تكوينِ النَّفسِ النَّاطقةِ نفْخُ الرُّوحِ ، فالنَّفسُ انصَبَغَتْ بنُورِ الرُّوحِ القُدُسيِّ ، واتَّخذَتْ خاصِيَّةَ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[3] ، فمِنْ فُجورِها ظَهَرَتْ مَذَابُّ الضَّالِّينَ ، وعن تقوَاها ظَهَرَتْ مَذَابُّ الهَادِينَ .

---

(١) في الأصل : (مطموس) .

(٢) سورة الحجر : (٢٩) .

(٣) سورة الشمس : (٨) .

فصل

[في إدراكِ الأنبياءِ قبلَ الموتِ ما يُدرَكُ بالموتِ الطبيعيّ]

للإنسانِ وَصفُ فِطرةٍ تَحتوي على المعلوماتِ وتُحِيطُ بها بعلمٍ مُتأصِّلٍ فيهِ ، يَسلُكُ بأضوائِها الأنبياءُ عندَ انسِلاخِهم عن وَصفِ الخِلْقةِ ، حتَّىٰ يَطَّلِعوا على الأملاكِ والجنَّةِ والنَّارِ ، ويتَّسِعَ وِعاءُ عقلِهم ، فيَرتَقونَ إلىٰ أنوارِ العِنايةِ الأزليَّةِ ، ويكونُ إيمانُهُم ضَروريّاً .

ويُدرِكونَ قبلَ الموتِ ما يُدرَكُ بالموتِ الطَّبيعيِّ اطِّلاعاً عليهِ ، كما اطَّلع إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ علىٰ إحياءِ الموتَىٰ ، وما رآهُ إبراهيمُ عليه السَّلامُ عِياناً كانَ مُخمَّراً إلىٰ قَلبِ محمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ جَمَعَ فيهِ سائرَ المِنَحِ الغَريزيَّةِ ، فكانَ إحياءُ المَوتَىٰ أشدَّ تَمكِيناً في قَلبِهِ مِنْ قَلبِ إبراهيمَ ، وعِلمُهُ باللهِ تعالىٰ أكثرَ مِنْ علمِ مُوسىٰ ، وأقوَىٰ مِنْ علمِ إبراهيمَ .

فالإحاطةُ بالعُلومِ العِيانيَّةِ نَتِيجةُ العَقلِ الفِطريِّ ، والمُستخرَجُ مِنَ العُلومِ بالأفكارِ نَتِيجةُ العقلِ الخَلْقِيِّ ، فكانَتْ تلكَ العُلومُ فائدةَ البُرهانِ ، والاِطِّلاعُ على المعلومِ مِنْ غيرِ بُرهانٍ فائدةُ العِيانِ .

فالبُرهانُ سَرِيعُ الأَمَدِ ، قليلُ الجَدوَىٰ ، والعِيانُ كَثِيرُ الجَدوَىٰ ، وقدْ وَرَدَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ »[1] ، فنُورُ الفِطرةِ شَارِعٌ إلىٰ إثباتِ العِلمِ بالعِيانِ ، ثمَّ طَرَأَ علىٰ نُورِ الفِطرةِ ظُلمةُ الخِلقةِ ، فغَابَ العِلمُ في غَياباتِ الجَهالةِ ، حتَّىٰ تَسوَّرَ المُتسوِّرُونَ إلى استِكشافِهِ بالبُرهانِ ، فلمَّا استَرشَدوا بهِ . . وَضَعوا المُركَّباتِ في مِيزانِ البُرهانِ ، والمُفرداتِ في قَوالبِ الحَدِّ ، فكانَ مِيزانُ العِلمِ عَرْصَةً فَسِيحةً مُمتَدَّةَ الأطرافِ بينَ الأزلِ والأبدِ ، والبُرهانُ سِكَّةٌ في هٰذا المَيدانِ ، والحَدُّ زاويةٌ في تلكَ السِّكَّةِ .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣٢) .

هٰذا مَحصُولُ الفَلاسفةِ .

والأنبياءُ صلواتُ الله عليهم ـ بالقُوَى النَّبوِيَّةِ والأَمدادِ الإلٰهيَّةِ ـ سَحَبوا ذُيولَ كمالِ الإستعدادِ في فَسيحِ مَيدانِ العِلمِ ؛ فانصَبَّتْ إليهِمُ العُلومُ انصِباباً ، وانقَشَعَتْ عنهم حُجُبُ الجهالةِ حِجاباً ، وبرَزَ جَنِينُ فِطرَتِهِم مِنْ مَشيمةِ خِلْقَتِهِم ، فصارَ إدراكُهُم بنُورِ الفِطرةِ عِياناً ، فعايَنوا الجنَّةَ والنَّارَ والأُمورَ الأُخرويَّة ، وعَمِيَتْ أَبصارُ أَربابِ البُرهانِ ؛ فأدَالَ العِيانُ على البُرهانِ .

فصل

في بيان فضيلة العلم المقتبس من مشكاة النبوّة مستودع الأسرار، وفضله على العلم المقتضب[1] بدنس الأفكار

حدَّثنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ ضِياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهِرِ السُّهْرَوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ[2]، قالَ: أخبرَنا الشَّريفُ أبو طالبٍ الزَّينبيُّ، قالَ: أخبرَتْنا كَريمةُ المَرْوَزيَّةُ، قالَتْ: أخبرَنا أبو الهيثم الكُشْمِيهَنِيُّ، قالَ: أخبرَنا أبو عبد اللهِ الفِرَبريُّ، قالَ: أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ[3]، قالَ: حدَّثنا عَبْدانُ، قالَ: أخبرَنا عبدُ اللهِ، قالَ: أخبرَنا يونُسُ، عنِ الزُّهْريِّ، قالَ: أخبرَنا أبو سَلَمةَ بنُ[4] عبدِ الرَّحمٰنِ، أنَّ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجُ ٱلْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»، ثمَّ يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[5].

اعلمْ: أنَّ للإنسان نُورَ الفِطرةِ، وحُكمَ الخِلقةِ، ولكلِّ واحدٍ منهما قضايا وتوابعُ، والنَّاسُ مُتفاوِتونَ في الحَظِّ مِنْ كُلِّ واحدٍ منهما؛ فأوفرُ النَّاسِ حَظّاً مِنْ نُورِ الفِطرةِ: المُرسَلونَ صلواتُ اللهِ عليهِم، ولنبيِّنا محمَّدٍ صلواتُ اللهِ عليهِ مِنْ

---

(١) كذا قرأتها، وهي في الأصل غير منقوطة إلا إعجام الضاد، ومن معاني الاقتضاب: الارتجال، يقال: اقتضب الكلام: إذا ارتجله.

(٢) هو عمُّ المصنِّفِ رحمهما اللهُ تعالىٰ.

(٣) في «صحيحه» (٤٧٧٥) بالإسناد المذكور.

(٤) في الأصل: (عن).

(٥) سورة الروم: (٣٠).

ذٰلكَ الحظُّ الوَافرُ ، فكانَ وافرَ الحظِّ مِنَ العِلمِ ، ووافرَ الحظِّ مِنَ الخَشيةِ ، ووافرَ الحظِّ مِنْ مَقامِ القُرْبِ .

نورُ الفِطرةِ معَ الخطابِ يَقرَعُ بابَ قلبِهِ ، فيَستَنزِلُ العِلمَ مِنْ بحارِ العِلمِ الأَزليِّ ، فيَرتَوِي منهُ ، ثمَّ يُودِعُ لِسانَ دَعوتِهِ مِنْ ذٰلكَ قِسطاً مُبرَّأً مِنَ الهَوىٰ ، ويُفرِغُهُ في أَوعيةِ قلبِهِ ، مُستَعِدَّةً لفَهمِهِ ، فتُفضِي الكلِمةُ منهُ إلىٰ قُلوبٍ واعيةٍ ، فتَتأصَّلُ فيها ، وتَسري بَرَكتُها إلىٰ بَواطنِ الأَصحابِ وظَواهرِهِم ، فتَتَزيَّنُ[1] ظَواهِرُهم بالأَعمالِ الصَّالحةِ ، وتَنجَلي بَواطِنُهُم بالصِّفاتِ المحمُودَةِ والأَخلاقِ المَرْضِيَّةِ ، فتَصِيرُ القُلوبُ بِرابطةِ العِلمِ كقَلبٍ واحدٍ مُتعاضِدةً[2] مُتعَاوِنةً ، كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[3] ، ويَسرِي مِنْ بَركةِ الوَحي المُنزَّلِ علىٰ قَلبِهِ بَرَكةٌ إلى القُلوبِ ، فتَستَنِيرُ القلوبُ ، وتَتوَجَّهُ إلى اللهِ تعالىٰ بالرَّغبةِ المُودَعةِ فيها ، الدَّاعيةِ إلىٰ صَالحِ الأَعمالِ وسَنِيِّ الأَحوَالِ ، فتَتَزكَّى النُّفوسُ ، وتُحَلَّىٰ بالفَضائلِ ، وتَتَكامَلُ بالعِلمِ ، فيدعو إلى اللهِ علىٰ بَصيرَةٍ ، كما دَعاهُم هُو صلواتُ اللهِ عليهِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ ؛ بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ [ٱهْتَدَيْتُمْ][4] »[5] .

فنورُ الفِطرةِ هُو المُوجِبُ لتَكميلِ النُّفوسِ ، وسائرٌ مِنَ الرُّوحِ الأَعظمِ إلى النَّفسِ النَّاطِقةِ .

وقدْ أَخطَأَ الفَلاسِفةُ في مَعرفةِ النَّفسِ ، وجَهِلوا حقِيقتَها ، والرُّوحَ وحَقِيقَتَهُ ،

---

(١) في الأصل : « فيتزين » .

(٢) في الأصل : « معاضدة » .

(٣) سورة الصف : (٤) .

(٤) ما بين الحاصرتين ليس في الأصلِ .

(٥) أخرجه الآجُريُّ في « الشَّريعةِ » (١١٦٧) من حديثِ سيدنا ابنِ عمرَ رضي الله عنهما ، وابنُ بطَّةَ في « الإبانة » (٧٠٢) من حديثِ سيدنا ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، وابنُ مَنده في « الفوائد » (١١) مِن حديثِ سيدنا جابرٍ رضي الله عنه .

فبالعلمِ المُقتبَسِ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ أُدرِكَ أنَّ النَّفسَ الرُّوحُ الحيَوانيُّ المُستَعِدُّ لوصولِ نُورِ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ إليهِ ؛ فالرُّوحُ الحيَوانيُّ هُو الَّذي يُتصرَّفُ فيهِ بعلمِ الطِّبِّ وبِاعتدالِ مِزاجِ دَمِ القَلبِ المُنتَشرِ في الأَعصابِ تَفِيضُ منهُ قُوَى الحوَاسِّ ، وهٰذا الرُّوحُ للحيَواناتِ كلِّها ، وامتازَ رُوحُ الإِنسانِ عن أَروَاحِ الحيَواناتِ بوُرودِ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ عليهِ ، واكتَسَبَ بذٰلكَ وَصْفَ النُّطقِ المُلهِمِ للتَّقوَىٰ والفُجورِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1]

فتسويةُ النَّفسِ بوُرودِ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ عليهِ ، فللرُّوحِ الحيَوانيِّ طَرَفٌ إلى الرُّوحِ الرُّوحانيِّ ، وبذٰلكَ يُلهَمُ التَّقوىٰ ، وطَرَفٌ إلى العالَمِ السُّفليِّ ، مُستنِدٌ ذٰلكَ إلىٰ أَصلِ خِلْقتِهِ مِنَ الطِّينةِ الَّتي خُمِّرَتْ أَربعِينَ صباحاً ؛ فأُلهِمَتِ النَّفسُ الَّتي هي الرُّوحُ الحيَوانيُّ بذٰلكَ فُجورَها ، ويُفهَمُ ذٰلكَ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾[2] .

وكما أنَّ نُورَ الفِطرةِ مِنَ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ ، وصَفاءَ[3] الخِلْقةِ مِنَ الرُّوحِ الحيَوانيِّ ؛ فمِنْ نُورِ الفِطرةِ : العقلُ الفِطريُّ ، ومِنَ الرُّوحِ الحيَوانيِّ الَّذي هو النَّفسُ : العقلُ الخَلْقِي .

فالعقلُ الفِطريُّ مُختَصٌّ بالمُرسَلِينَ وأَتباعِهِم ، والعقلُ الخَلْقيُّ مختصٌّ بالفلاسفةِ .

فالعقلُ الخَلْقيُّ يُنسَبُ إلى النَّفسِ ، والنَّفسُ لها رُتبةُ الأُنوثةِ ، والعقلُ الخَلْقيُّ لِسانُها ، فصارَ سَيرُهُ ضَئيلاً ، وما مَسَحَ غيرَ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ كما بيَّنا قبلُ .

والعَقلُ الفِطريُّ مُنتَسِبٌ إلى الرُّوحِ الأَعظمِ الَّذي لهُ رُتبةُ الذُّكورَةِ ، فسارَ في عالَمِ الغَيبِ ، واطَّلَعَ على الجنَّةِ والنَّارِ والصِّراطِ والميزانِ ، وأَثبتَ جمِيعَ ما نَطَق

---

(١) سورة الشمس : (٧ ـ ٨) .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٦) .

(٣) في الأصل : (الفطرة الرُّوح وصف) .

بهِ القرآنُ والكُتُبُ المُنْزَلةُ ؛ مِن مُنكَرٍ ونَكيرٍ وضَغْطةِ القبرِ وغيرِها مِنَ الأُمورِ الأُخرويَّةِ ، والعَقلُ الخَلْقيُّ لمْ يَطَّلِعْ علىٰ ذٰلكَ ؛ لأنَّه لمْ يَتَجاوزْ عالَمَ المُلكِ ، ولم يَطَّلِعْ على الملَكوتِ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ ، وأدالَ العِلمُ المُقتبَسُ مِنْ مِشْكاةِ النُّبوَّةِ الَّتي هي مُستودَعُ الأسرارِ على العلمِ المُقتضَبِ بدَنَسِ الأَفكارِ .

فصل

[في بيانِ أنَّ كلَّ صفةٍ تكونُ مِنَ اللطفِ وتأثيراتِهِ والقهرِ وتأثيراتِهِ]

الكَمالُ الأَزَليُّ سِرْبالُ الجَلالِ والجَمالِ ؛ جَلالٌ لا يُشبِهُ جَلالاً ، وجمالٌ لا يُشبهُ جمالاً ، جمالٌ يَتضاءَلُ دُونَهُ كُلُّ جَمالٍ ، وجَلالٌ يَتضاءلُ دونَهُ كُلُّ جَلالٍ ، لُطفٌ لا يُشبِهُ لُطفاً ، وقهرٌ لا يُشبِهُ قهراً ، جُمِعَ الضِّدانِ في جَبَروتِهِ ، فمِنْ رَشْحِ اللُّطفِ مِنْ خزائنِ الجُودِ الإلـٰهيِّ : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾[1] و : ﴿ أَنْهَرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[2] ، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3] ، ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[4] .

ومِنْ رشْحِ الجَلالِ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ ﴾[5]

وقدْ وَرَدَ[6] أنَّ جَبْرَئيلَ عليهِ السَّلامُ أَتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ لهُ : « يَا جِبْرَئِيلُ ؛ صِفْ لِيَ ٱلنَّارَ » ، فقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أَمَرَ بها ، فأُوقِدَ عليها أَلفَ عامٍ حتَّى احمَرَّتْ ، ثمَّ أُوقِدَ عليها بأَلفِ عامٍ حتَّى اصفَرَّتْ ، ثمَّ أُوقِدَ عليها أَلفَ عامٍ حتَّى اسوَدَّتْ ، فهي سَوداءُ مُظلِمةٌ لا يُضِيءُ شَرَرُها ، ولا يُطفَأُ[7] لَهِيبُها

---

(١) سورة الواقعة : (١٨) .

(٢) سورة محمد : (١٥) .

(٣) سورة الزخرف : (٧١) ، وكُتب في الأصل : (تشتهي . . . وهم) .

(٤) سورة صٓ : (٤٩ ـ ٥٤) .

(٥) سورة النساء : (٥٦) .

(٦) أخرجه مطوَّلاً من حديثِ سيدنا عمرَ رضي الله عنه : ابنُ أبي الدُّنيا في « صفةِ النَّار » (١٥٧) ، والطَّبراني في « المعجمِ الأوسطِ » (٢٥٨٣) .

(٧) قوله : (شَرَرُها ، ولا يُطفَأُ) : زيادةٌ مِن مَصادرِ التَّخريج .

وحُمرتُها ، والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ نبيّاً ؛ لو أنَّ ثوباً مِن ثيابِ أهلِ النَّارِ عُلِّقَ بينَ السَّماءِ والأرضِ . . لَماتَ مَنْ في الأَرضِ جَمِيعاً مِن حَرِّهِ ، والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ ؛ لو أنَّ خَازِناً مِنْ خَزَنةِ جهنَّمَ[1] أُظهِر لأَهلِ الأرضِ فنَظَروا إليهِ . . لَمات مَنْ في الأرضِ كلُّهُم مِنْ قُبْحِ وَجهِهِ ومِن[2] نَتْنِ رِيحِهِ ، فبكَى النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وبكَىٰ جَبْرَئيلُ ، فقالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! وَلِمَ بَكَيتَ يَا جَبْرَئِيلُ وَأَنْتَ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، أَمِينُ ٱللهِ عَلَىٰ وَحْيِهِ ؟! » ، فقالَ : أَخافُ أن أُبتلَىٰ بمِثلِ ما ابتُلِيَ[3] بهِ هاروتُ وماروتُ ، وهٰذا الَّذي مَنَعَني عنِ اتِّكالي علىٰ مَنزِلَتِي عندَ رَبِّي ، فأَكونُ قدْ أَمِنتُ مَكرَهُ ، فلَم يَزالَا يَبكِيانِ حتَّىٰ نُودِيا مِنَ السَّماءِ : أَنْ يا جَبْرَئيلُ ويا محمَّدُ ؛ إنَّ اللهَ قدْ أَمَّنَكُما أنْ تَعصِياهُ فيُعذِّبَكُمَا .

فالضَّالُّونَ انسَحَبَ عليهِم ذَيلُ القَهرِ الأَزَليِّ ، فبَقُوا مُعذَّبِينَ أَبدَ الآبادِ ، وما أَخسَرَ صَفْقةَ مَنْ لا يموتُ فيها ولا يحيا ؛ فكيفَ[4] يكونُ حالُهُ ؟!

فقدْ تقرَّر بذٰلكَ أنَّ كلَّ صِفَةٍ تكوينٍ : مِنَ اللُّطفِ وتَأثيراتِه ، والقَهرِ وتَأثيراتِه لا مَحالةَ ؛ فالأنبياءُ وأتباعُهُم عَواقِبُ مَصيرِهِمُ الجنَّةُ ونَعِيمُها ، وَقْفٌ ذٰلكَ عليهِم حَسَبَ الأَكسَابِ الدُّنياويَّةِ ، وبحَسَبِها تُقسَّمُ الدَّرَجاتُ .

ولِصفَةِ القَهرِ مُكوِّناتٌ في مَنزِلِ البَرْزَخِ ويومَ الحشرِ والقيامةِ ، مُقسَّماتٌ عليهِم حسَبَ الأَكسَابِ الدُّنياويَّةِ ، وَقْفٌ عليهِم لا مَحالةَ ، لا يُنقَلُ الأَنبياءُ وأتباعُهم إلىٰ مَنازِلِهم ، ولا هم يُنقلونَ إلىٰ مَواضعِ الأَنبياءِ .

ثمَّ ذٰلكَ مُؤيَّدٌ في الحِزبيْنِ آبادَ الصِّفتَيْنِ بأَبديَّةِ الإلٰهِ الأَزَليِّ ، فما أَعظمَ هٰذا ! وما أَدوَمَ هٰذا النَّعِيمَ ! وما أَدوَمَ هٰذا العَذابَ الأَليمَ !

---

(١) من قوله : (عُلِّقَ بينَ السَّماءِ . . . جهنَّمَ) زيادةٌ مِن مصادرِ التَّخريجِ .

(٢) من قوله : (فنَظَروا إليه . . . مِن قُبْحِ وَجهِه و) زيادةٌ مِن مَصادرِ التَّخريجِ .

(٣) قوله : (بمثلِ ما ابتُلِيَ) : زيادةٌ مِن مَصادرِ التَّخريجِ .

(٤) كلمة (فكيف) زيادة ليست في الأصل .

لو مَرَّ بعالَمِ عَقلِكَ نَسْمَةٌ مِن هٰذا الحديثِ وهٰذا القَهرِ المُستدامِ . . لَذابَ رُوحُكَ خَوفاً ، حتَّىٰ لا يُرَىٰ لكَ أثَرٌ ، وهٰذا كالشَّمسِ الضَّاحِيةِ لا رَيبَ فيهِ ، عايَنَهُ رُسلُ اللهِ واستَبصَروا ، وأخبَروا بهِ وحَذَّروا وأنذَروا ؛ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

(١) سورة النساء : (١٦٥) ، وسقطت كلمةِ (للنَّاس) من الأصل .

فصل

[في بيانِ أنَّ إدالةَ العِيانِ على البرهانِ . . كإدالةِ الأذهانِ على العِيانِ]

وممَّا لاحَ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ إبليسَ مِنْ شَرارةِ نَارِ قَهرِهِ ، فأَودَعَ في تَكوينِهِ سَراباً[1] مِنَ القَهرِ ، وأَسكنَهُ الجِنانَ كما أَسكنَ آدمَ لتكونَ الجنَّةُ مَوطِنَهُ ؛ كما صارَتْ لآدمَ مَوطِناً ؛ ليَتربَّىٰ فيهِ سِرُّ القَهرِ ، فأَودَعَ آدمَ مِنْ سِرِّ اللُّطفِ ، فظَهَرَ أَثَرُهُ في الأَكرَمِينَ مِنْ بَني آدَمَ .

ثمَّ أُودِعَ سِرُّ القهرِ في أَديمِ الأَرضِ لمَّا هَبَطَ إبلِيسُ إلى الأَرضِ ومَسَحَ أَدِيمَها بقَدَمَيْهِ ؛ فكُلُّ مَوضعٍ صارَ تحتَ قَدَمِهِ هو مُستَودَعٌ سِرّاً مِن أسرارِ القَهرِ ، فطِينةُ أَهلِ الضَّلالِ ممَّا كانَ تحتَ قدَميْهِ ، وما بينَ قَدميْهِ لمْ يُصِبْهُ حَظُّ القَهرِ ، ومنهُ طِينةُ أَهلِ الرَّشادِ ، فصارَ التَّخميرُ مُستَودَعَ سِرِّ القَهرِ .

واللُّطفُ سِرٌّ سَماوِيٌّ يُفتَحُ بهِ بابُ العِيانِ ، وسِرٌّ أَرضيٌّ[2] يُفتَحُ بهِ بابُ البُرهانِ ، فصارَ العِيانُ حَظَّ الأَنبياءِ وأَتباعِهِم ، وصارَ البُرهانُ حَظَّ الجاهِلِينَ باللهِ تعالىٰ والمُنكِرينَ لأَحكامِ الدَّارِ الآخِرةِ ، فما هو حَظُّ الأنبياءِ مِنَ العبادِ مُمتَدُّ الأَمَدِ ، وما هُو حَظُّ أهلِ الضَّلالِ مُنقطِعُ المدَدِ .

فما أَشبهَ العِيانَ والبُرهانَ بالوجودِ العَيْنيِّ والوُجودِ الذِّهنيِّ ؛ فالوجودُ العَينِيُّ مُنقَطِعُ المددِ بالموتِ الطَّبيعيِّ ؛ لأنَّهُ الحشوُ الحِسِّيُّ إلى العلَّةِ الأُولىٰ ويَنقَطِعُ ، والوجودُ الحِسِّيُّ يَتحيَّزُ في الحِسِّ ، ولا يَجوزُ البُرهانُ ، فقصَّرَ عن إدراكِ علَّةِ العِلَلِ ، ولا تَحويهِ كما حَوَتِ الوجودَ العَيْنيَّ .

فتَبيَّنَ بهٰذا الشَّرحِ إدالةُ العِيانِ على البُرهانِ ، كإدالةِ الأَذهانِ على العِيانِ ،

---

(١) في الأصل : (صراباً) .

(٢) كذا في الأصل ، ولعل حقيقة العبارة : (والقهر سرٌّ أرضي) .

أُغمِدَتْ في غِمدِ عِلَّةِ العللِ ، والأَذهانُ امتدَّتْ كامتِدادِ عالَمِ الغَيبِ المُكَنَّنِ في أَكنانِ عِلمِ اللهِ تعالى الغامِضِ .

فيَرُوغُ الفلسفيُّ إلى [1] البُرهانِ في ادِّعاءِ العلمِ المُولَّدِ منهُ المنافسةُ والمبادَأةُ ، يرُوغُ إلىٰ مَحتِدِهِ مِنْ مَركزِ النَّارِ ، ثمَّ يَرسُبُ بهِ إلىٰ مَركزِ الثَّرائِي .

وخُذِ الإشارةَ مِنْ إيماءِ القرآنِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [2] ؛ فالأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم توَطَّنوا فَسِيحَ مَيدانِ العِيانِ ، واستَقرُّوا في مَقارِّ التِّبيانِ ، واستَحمَلوا أَربابَ البُرهانِ المُنحَطِّينَ إلىٰ مَهْواةِ الخُسرانِ .

ثمَّ اعلمْ ـ أيُّها المُدرِكُ لِعالَمِ الشَّهادةِ ـ : أنَّ كلَّ ما أدرَكتَهُ مُسَلَّمٌ لكَ بالبُرهانِ المتَّفَقِ عليهِ ، وغيرُ مُسلَّم لكَ ما اختَلفتُم فيهِ ؛ كتقديمِ الأَركانِ بعضِها علىٰ بعضٍ ، ولٰكنْ وِعاءُ إدراكِكَ كعَقيرةٍ ارتفعَتْ بالحياةِ المُستَعارةِ ، ثمَّ انطَبقَتْ بالموتِ الطَّبيعيِّ كانطباقِ القَمرِ على العَقيرةِ ، ثمَّ جميعُ المُبَرْهَنِ مُنطَبِقٌ إنطِباقَ فَلَكِ البُروجِ علىٰ فَلَكِ القَمرِ ، والكائناتُ بأَسرِها مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ مُنطَمِسةُ الآثارِ في فَلَكِ البُروجِ ؛ العَالَمِ الأَبَديِّ والأَجرامِ الغَيبيَّةِ الَّتي هي [3] هيئةُ الأَملاكِ وهيئةُ دارِ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ .

فما أَخوَفَني عليكَ ـ أيُّها الحكيمُ ـ أنَّكَ تَحصُلُ في مَخالبِ قَهرٍ أَبَديٍّ تُوجِبُهُ صِفةُ القَهرِ الإلٰهيِّ ، لا يموتُ فيها ولا يحيا أَبدَ الآبادِ ، كما صِفةُ اللُّطفِ الأَزليِّ لا تَزولُ أَبدَ الآبادِ .

مِنَ العلمِ المكنونِ المجهول [4] عن قاصِري العلمِ : ما وَرَدَ أَنَّ إبليسَ سألَ السَّبيلَ إلى القَلبِ ، فقيلَ لهُ : تَحرَّمَ عليكَ ذٰلكَ ، ولٰكنْ مُكِّنْتَ في الدُّخولِ إلى

---

(١) كلمة (إلىٰ) : زيادة لِاستقامةِ السِّياقِ .

(٢) الأعراف : (١٧٦) .

(٣) زاد في الأصل بعدها : (الغيبية هي) .

(٤) في الأصل : (المجهلو) .

العُروقِ المتَّصلةِ بالقلبِ ، فإذا حَصَلْتَ في [1] العُروقِ . . عَرِقْتَ [2] فيها لضِيقِ مَجارِيها ، فيَصِلُ عَرَقُكَ إلى القلبِ ، فبذٰلكَ يَصِلُ سُلطانُكَ إلى القلوبِ ، ومَنْ جَعلتُه نَبِيّاً أو وَليّاً ومِن خَواصِّ المؤمِنينَ . . نَزَعتُ تلكَ العُروقَ مِنْ قُلوبِهِم ؛ فلا يَصِلُ عَرَقُكَ إلىٰ تلكَ القلوبِ ، ولا يَصِلُ إليها سُلطانُكَ .

فهٰذا ـ وأشباهُ ذٰلكَ ـ ممَّا لا يُدرِكُهُ المحبوسونَ في ظُلَمِ البُرهانِ الَّذي أَشرَقَ [3] ضَوءُهُ في عالَمِ المُلكِ ، وسَرىٰ في أَضواءِ المُبرهِنونَ حتَّىٰ وقَعوا في مَهْواةِ سِجِّينٍ ، ويَسلُكُ أربابُ البصائرِ بنُورِ الاقتداءِ بعِنايةٍ سابقةٍ أطلَقَتْهُم [4] مِن حَنادِسِ البُرهانِ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

---

(١) زيادة لاستقامة السِّياقِ .

(٢) في الأصل : (غرقت) .

(٣) في الأصل : (أشرقت) .

(٤) في الأصل : (أطلقتم) .

فصل

[في أنَّ لا إيمانَ بغيرِ الإيمانِ بنبوةِ سيدِنا محمدٍ ﷺ]

قدْ سَبَقَ ذِكرُ الصِّفتيْنِ للهِ تعالى : اللُّطفِ ، والقَهرِ[1] ؛ فمَنْ غَمَرَهُ طافي بَحرِ القَهرِ . . لا بُروزَ لهُ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ .

فأمَّا في الدُّنيا : مَنْ أَحاطَ بهِ سُورُ البُرهانِ . . لا بُروزَ لهُ ، ولذلكَ لا يُثبِتُ الأَحكامَ الأُخرويَّةَ .

ومَن غَمَرَهُ طافي بحرِ اللُّطفِ . . سُلِكَ لهُ في فَسيحِ مَيدانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ يَرتَوِيَ مِنْ تَيَّارِ عِلمِهِ وحِكمتِهِ ، حسَبَ تفاوُتِ رُتبةِ الأُمَّةِ ؛ حتَّىٰ إنَّ أَربابَ البِدَعِ والضَّلالاتِ ما هَلَكوا في مَعطَشةِ الضَّلالِ ، بل شَرِبوا مِن مَعِينِ الإيمانِ بأَحكامِ[2] الشَّريعةِ ، وتقيَّدوا بأحكامِ الإسلامِ ، ولَفْحُ نارِ القهرِ لَحِقَهُم حتَّىٰ نالوا مِنَ الجَحيمِ ما نالَ أَربابُ الكَبائرِ ، ولمْ يَخلُدوا في النَّارِ ، واختَطَفَهُم سَواطِعُ نُورِ العِيانِ .

ومَنْ حُرِم متابعةَ رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ الإيمانِ بمَنْ تَقدَّمَهُ مِنَ الأنبياءِ . . يَنالُهم حَظُّ القَهرِ ، وأدركَهُم حَنادِسُهُ .

والقاسِمُ لتَفاوُتِ لَفْحِ النَّارِ والقَهرِ : هَوانُ مَنْ حُرِمَ بَرَكةَ الإيمانِ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وبينَ مَنْ حُرِمَ الإيمانَ بجَمِيعِ الأنبياءِ ، وأَهلَكَهُ خِناقُ القَهرِ الأَبَديِّ .

فيا مَنْ نالَ حَظّاً مِنْ بَرَكَةِ إيمانِ آبائِه ؛ استَيقِظْ مِن رَقْدةِ القَهرِ ، ودَعْ عنكَ مُتابعةَ ضَلالِ اليُونانِ والهندِ ، وتَقلِيدَ الفارابيِّ وابنِ سِينا ، ولا يَغُرَّنَّكَ دَقيقُ نَظَرِهِم وَقُوَّةُ ذَكائِهِم في الرِّياضيَّاتِ ، واطِّلاعُهُم على الأفلاكِ وأَبعادِهِم[3]

---

(١) انظر (ص ٣٠٥) .

(٢) في الأصل : (بالأحكام) .

(٣) أي : أبعاد الأفلاك .

وعظيمِ أمرِ الكَواكبِ والشَّمسِ والقَمرِ ؛ فإنَّها حَذاقةٌ عُرِفَتْ عن مُنتَكِبِ القَهرِ الأزَليِّ ، فيأخُذَ بكَ إلى الجَحيمِ المُقيمِ ، فالحذرَ الحذرَ مِنْ لَفْحِ النَّارِ والخُلودِ فيها ، ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (١)

---

(١) سورة غافر : (٤٤) .

فصل

[في بيانِ أنَّ العِيانَ روحُ البرهانِ ، وأنَّ البرهانَ لُبابُ العِيانِ]

أَلَمْ يَتفكَّرِ الفيلَسوفُ في عِلمِهِ الَّذي انقَطَعَ مَدَدُهُ عندَ مُنتهىٰ فَلَكِ البُروجِ ، وحَصَلَ في ظَلْماءَ : لا إدراكَ[1] لهُ ولا فَهمَ ولا عِلمَ ، فيعترفَ بعَجزِهِ عنِ العلمِ ؟ فلو كانَ عِلمُهُ مُستَفاداً مِنَ العقلِ الفِطريِّ . . لوصلَ إلىٰ إدرَاكِ عالَمٍ لا نهايةَ لهُ ، مَملوءٍ مِنَ الخَلائقِ النَّاريَّةِ[2] ، ويَعلَمُ أنَّ العالَمَ المُدرَكَ بالعقلِ الخَلْقيِّ بأفلاكِهِ ونُجومِهِ وعَناصرِهِ ، كُلُّ ذٰلكَ حَشوُ السَّماءِ الأُولى[3] الَّتي نِسبتُها إلى السَّماءِ الثَّانيةِ كحَلْقةٍ بأَرضِ فَلاةٍ ؟

وشَرحُ أجرامِ الكواكبِ ذكرناهُ في كتابِ : « رَشْفِ النَّصائِح »[4] ، مُستخرَجاً مِنْ بعضِ المداخلِ النُّجوميَّةِ ، فمَنْ أرادَ ذٰلكَ . . فلْيُطالعْهُ .

وليدري[5] عَرْصةَ المُلكِ الَّذي هو ظاهرُ الكونِ ، ثمَّ يَعلَمُ نِسبةَ ظاهرِ الكَونِ إلىٰ باطنِ الكَونِ الَّذي هو عَالَمُ الملكوتِ ؛ فيَستغنِي حينئذٍ ببابِ الخَجَلِ مِنِ ادِّعائِهِ العِلمَ .

البُرهانُ مجالٌ في هٰذا الميدانِ ، أمْ لهُ تَسوُّرٌ إلىٰ عالَمِ العِيانِ ؟ العِيانُ رُوحُ البُرهانِ ، والبُرهانُ لُبابُ العِيانِ ، فالعلمُ مَيدانٌ فَسيحٌ غيرُ مَنتهي الأَطرافِ ، والبُرهانُ خَطُّهُ في ذٰلكَ الميدانِ ، والحدُّ نُقطةٌ علىٰ خطِّ البُرهانِ ، فلولا أنَّ مَيدانَ العلمِ مُحجَّرٌ بالقَوانينِ الشَّرعيَّةِ . . لَشَطَحَ[6] حتَّىٰ لمْ يُدرَكْ لهُ ساحِلٌ ، ولَشَطَحَ

---

(١) في الأصل : (دراك) .

(٢) في الأصل : (الناري) .

(٣) في الأصل : (الأوَلة) .

(٤) انظر « كشف الفضائح اليونانية ، ورشف النصائح الإيمانية » (ص ١٦٧ ـ ١٦٨) .

(٥) كذا في الأصل .

(٦) في الأصل : (لسطح) ، ولعل الصواب ما أثبتُّ ، والشطح : هو التباعد .

حتَّىٰ لاقَىٰ ساحِلَ الجَبَروتِ ، ولذٰلكَ تَعثَّرَ في أذيالِ التَّعدِّي مَنْ قالَ : أنَا الحقُّ ، وسُبحاني .

أيُّها المحبوسُ في قَفَصِ الجهَالاتِ والأَقطارِ ؛ اكسِرْ قَفَصَ البُرهانِ ، وابرُزْ بسُلطانِ العِيانِ إلىٰ عالَمٍ غيرِ مُحتوٍ على الجِهاتِ ؛ حتَّىٰ يَنبَجِسَ مِن صَمَّاءِ قلبِكَ مَعِينُ العِيانِ ، وافهمْ هٰذهِ الإشارةَ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ (١)

---

(١) سورة الرحمٰن : (٣٣) .

فصل

[في بيانِ سعةِ العلمِ ، وأنَّ الفلاسفةَ قَنِعوا بأوشالٍ منقطعةِ المردِّ منهُ]

اعلمْ ـ أيَّدكَ اللهُ بنُورٍ تَستَبِينُ به الحقَّ مِنَ الباطلِ ـ : أنَّ ذٰلكَ[1] أمرٌ يَتعذَّرُ الوصولُ إلىٰ كُنهِهِ حَسَبَ ما يسَعُ وِعاءُ قُوَّةِ النَّفسِ الإنسانيَّةِ إلَّا بخَلاصِ التَّقوىٰ ، ثمَّ بصِدقِ الزَّهادةِ في الدُّنيا ، ثمَّ بدَوامِ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ، مُقتدياً فيهِ ومتَّبعاً لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الَّذي صَدَّقَ بما جاءَ بهِ إخوانُهُ المُرسَلونَ ، فصارَ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلَّمَ معَ إخوانِهِ متَّفِقاً فيما أتَوْا بهِ ، فقاموا بأَجمَعِهم إلى الدُّعاءِ إلى اللهِ كشَخصٍ واحدٍ بكلمةٍ متَّحِدةٍ ؛ لأنَّهُم بُعِثوا مِنْ عِندِ اللهِ بنُورٍ مُبينٍ ساطعٍ بالحقِّ ، ومُنِحوا الإيمانَ بالغَيبِ بعدَ أنْ أدرَكوا مِنَ الغَيبِ ما أَطلَعَهُمُ[2] اللهُ عليهِ ؛ اصطِفاءً واجتِباءً لهُم .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهَ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3] .

وقدْ وَرَدَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ عَيْنانِ فِي رَأْسِهِ ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبدٍ خَيْراً . . فتَحَ عَيْنَيْ قَلْبِهِ حَتَّىٰ أَبْصَرَ ٱلْغَيْبَ بِٱلْغَيْبِ »[4] .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾[5] .

ففتحَ للمُرسَلينَ البصائرَ المُحيطةَ بالأُمورِ[6] الأُخرويَّةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ،

---

(١) في الأصل : (وذلك) .

(٢) في الأصل : (أطلقهم) .

(٣) سورة الحج : (٧٥) لفظ الجلالة (الله) غيرُ واردٍ في الأصل .

(٤) أخرجه أبو داوود في « الزُّهد » (٤٩٦) ، والخرائطيُّ في « اعتلالِ القلوبِ » (٤٣) وابنُ الأعرابي في « المعجم » (١٩٦٤) من قولِ خالدِ بنِ معدان رحمه الله تعالىٰ .

(٥) سورة الجن : (٢٦ ـ ٢٨) .

(٦) في الأصل : (بامور) .

والبَعثِ والنُّشورِ ، وغيرِ ذٰلكَ ، عُجِّل لهم في دُنياهم قبلَ الموتِ الطَّبيعيِّ كَشْفُ ذٰلكَ ؛ فأدرَكوا ما أدركوهُ ممَّا أراهُمُ اللهُ ، وتَرسَّخَ في قُلوبِهِم عِلمُ ذٰلكَ ؛ فحَذَّروا وأنذَروا ، وأبشَروا بالجنَّةِ وحذَّروا مِنَ النَّارِ ، وأخبَروا بالبعثِ والنُّشورِ ، فكانَتْ تلكَ العُلومُ مَوهِبةً مِنَ اللهِ تعالىٰ لهُم ، لا تَدخُلُ في مِيزانِ البُرهانِ الَّذي بيدِ الفلاسفةِ ويَزِنُونَ بهِ عالَمَ الأَجسامِ والبسائطَ والمُركَّباتِ ، ويَتَسوَّرونَ إلىٰ ذٰلكَ بالعلومِ الرِّياضِيَّةِ والطَّبيعيَّةِ الَّتي أفنَوْا في جُزئيَّاتِها وكُلِّيَّاتِها أعمارَهم ، فتَبرهَنَ عِندَهم ، وامتلأَتْ منها أَوعِيةُ أفكارِهِم ، فاطَّلعوا بها على الأفلاكِ وهَيئاتِها ، ودَرَجاتِها وأبعادِها ، والكَواكبِ وأجرامِها ، وقُوَاها وطَبائعِها وتأثيراتِها ، وأحاطُوا عِلماً بالأَمزِجةِ والطَّبائعِ وتَشريحِ الأَبدانِ ، وغيرِ ذٰلكَ مِن علمِ الهيئةِ والطِّبِّ والنُّجومِ ، ومَجموعُ ذٰلكَ يَشتمِلُ عليهِ فَلَكُ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ .

وغابَ عن عقلِ هٰؤلاءِ الرَّاكِنينَ إلىٰ عُلومِهِم ، المُغتَرِّينَ بنتائجِ أفكارِهم . . أنَّ كلَّ ما أحاطَ بهِ وأدرَكَهُ[1] أوائلُهُم وأنتجوا أواخِرَهم بأفكارٍ ذكيَّةٍ ؛ كلُّ ذٰلكَ عالَمٌ مِنْ عَوالمِ اللهِ تعالىٰ ، ولِلهِ عوالمُ لا يَسمَعُ بها[2] مِيزانُ البُرهانِ ، فرقَدوا عنِ الأَسرارِ والحقائقِ ، وغابوا في رُقادِ جهَالاتِهِم حتَّىٰ أدرَكوا الموتَ الطَّبيعيَّ ، وحِيلَ بينَهُم وبينَ مِيزانِ البُرهانِ .

والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم أدرَكوا بعَينِ البصائرِ ما أدرَكوهُ ، وامتدَّتْ أشِعَّةُ بصائرِهِم كُنْهَ قُوَّتِهِم حتَّىٰ عادَتْ كَليلةً عن كُنهِ غاياتِ القُدَرِ الإلٰهيَّةِ ، مُعترِفينَ بالعَجزِ مُلابِسَ الإفلاسِ عن كَمالِ العِلمِ ، فأدرَكَ الأنبياءُ ببَصائرِهِم مِنَ العَوالمِ ما عَلِموا أنَّ ما أحاطَتْ بهِ الأَفكارُ عالَمٌ واحدٌ ، وهم في إدرَاكِهِم هٰذا العِلمَ الواحدَ كطَيرٍ مَحبوسٍ في قَفَصٍ ، لا يُدرِكُ إلَّا جِهاتِ القَفَصِ ، ولا عِلمَ لهُ بما وَراءَ ذٰلكَ .

---

(١) في الأصل : (وأدركوه) .

(٢) كلمة (بها) : زيادةٌ لاستقامةِ السِّياقِ .

ولهذا المعنى انقَطَعَ سَيرُ الأفكارِ دونَ فَلَكِ البُروجِ .

وما تَخيَّلوهُ بأنَّهُ الأوَّلُ ، وسمَّوْهُ : (عِلَّةَ العِلَلِ) . . جَهِلوا أنَّهُ خَلْقٌ مِن خَلقِ اللهِ ، مُوجِبٌ للمُوجَباتِ ، تَولَّدَتْ منهُ الكَائناتُ بواسِطةِ المعلولِ الأوَّلِ الَّذي هو[1] التَّكثُّرُ بزَعْمِهِم ، ولم يَعلَموا أنَّ عِلَّةَ العِلَلِ أوَّلُ صَيدٍ ثارَ مِنْ بَيداءِ المشيئاتِ .

وما هذا كلامٌ يُدرِكُهُ مَن قَصُرَ عَقلُهُ ، ويَحكُمُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ مَشِيئتُهُ واحِدةٌ ، ولا يقضِي بجَوازِ مَشيئاتِ اللهِ تعالىٰ ، وعَوالمُ اللهِ لا نِهايةَ لها[2] كما لا نهايةَ لأزَليَّةِ اللهِ ؛ فللهِ تعالىٰ مَشيئاتٌ ، لهُ بكُلِّ مَشيئةٍ عالَمٌ مُشتَمِلٌ علىٰ مُكوَّناتٍ غيرِ مُتناهيةٍ .

فإذاً ؛ ما أدرَكَهُ البُرهانُ أثرُ مَشيئةٍ واحدَةٍ ؛ فللفلاسفةِ : هو العقلُ الخَلْقيُّ ، الَّذي هو لسانُ النَّفسِ ، وهو ضَئيلُ السَّيرِ بالشَّرحِ الَّذي سَبَقَ ، ولمْ يَتجاوزْ عالَمَ المُلكِ ، ولم يَلِجِ الملكوتَ .

فإذاً ؛ مَعاشرُ الفَلاسفةِ ما وُلِدوا وِلادةً مَعنويةً ؛ ليَلِجُوا مَلَكوتَ السَّماواتِ ، علىٰ ما وَرَدَ : « لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَيْنِ »[3] ، فالفلاسِفةُ لم يَبرَحوا[4] مَحبوسِينَ في مَشائِمِ الجَهلِ ، مُتردِّدينَ في عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، مَحرومِينَ وُلوجَ عالَمِ الغَيبِ والمَلكوتِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[5] .

---

(١) كلمة (هو) : زيادة لاستقامةِ السِّياقِ .

(٢) كلمة (لها) : زيادةٌ مِنَ المحقِّقةِ .

(٣) لم أقف عليه في دواوين السنة المعتمدة ، وأوردَه الشيخ نِظام الدِّينِ النَّيسابوري في : « غرائبِ القرآنِ ورغائبِ الفُرقانِ » (٣٧٥/٥) عن سيدنا عيسىٰ عليه السَّلام .

(٤) في الأصل : (يرجوا) .

(٥) سورة الأنعام : (٧٥) .

فالمُلكُ : ظاهِرُ الكَونِ ، والمَلكوتُ : باطنُ الكَونِ ، وهو عالَمُ الغَيبِ ، وفيه أَملاكٌ ذو أَجنِحةٍ مَثنىٰ وثُلاثَ ورُبَاعَ .

والفَلاسفةُ حَرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضعِهِ ، وسَمَّوْا كلَّ شيءٍ باصطلاحٍ لهم ، كما عبَّروا عنِ اللَّوحِ المحفوظِ بـ (العُنصُرِ) .

والأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم أَدرَكوا جُمَلَ ما اشتَغلَ الفلاسِفةُ بِتَفاصِيلِهِ ، باستِعدادِ النُّفوسِ القُدُسيَّةِ النَّبويَّةِ ؛ فعُلومُ الفلاسفةِ ظِلالُ قَوالبِ الأَنبياءِ ، وهي [1] مَوهِبةٌ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، ولٰكنْ قابَلوها بالكُفرانِ ؛ لِانقطاعِهِم بالنِّعمةِ عنِ المُنعِمِ .

والعِلمُ كُلِّيٌّ ، وجُزئيٌّ ، فعلومُهُم جُزءُ الكُلِّ .

والكُلِّيُّ : ما وَرَدَ في بعضِ الكتُبِ المُنزَّلةِ : (لا تقولوا : إنَّ العِلمَ في السَّماءِ مَنْ يَنزِلُ بهِ ، ولا في تُخومِ الأَرَضِين مَنْ يَصعَدُ به [2] ، ولا مِنْ وَراءِ البِحارِ مَنْ يَعبُرُ فيأتي بهِ ، العِلمُ مَجعولٌ في قُلوبِكُم ، تأدَّبوا بينَ يدَيَّ بآدَابِ الرُّوحانِيِّينَ ، وتخَلَّقوا بأَخلاقِ الصِّدِّيقِين . . أُظهِرِ العِلمَ مِنْ قلوبِكُم حتَّىٰ يَغمُرَكُم ويُعطِيَكُم) [3] .

الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم الَّذين تأدَّبوا بينَ يدَيِ اللهِ بآدابِ الرُّوحانِيِّينَ ، وتخَلَّقوا بأَخلاقِ الصِّدِّيقين ، فغَمَرَهُمُ العِلمُ وأعطَاهُم .

والفَلاسِفةُ قَنِعوا بأَوشالٍ مُنقطعةِ المرَدِّ .

فإذاً ؛ العِلمُ مَدِينةٌ فَسِيحةُ الأطرافِ ، والبُرهانُ زُقاقٌ في تلكَ المدينةِ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

---

(١) في الأصل : (وهو) .

(٢) كلمة (به) ليس في الأصل .

(٣) أورده أبو طالبِ المكِّي في « قُوتِ القلوبِ » (٢٣٨/١) .

فصل

[في بيانِ أنَّ النفوسَ الإنسيةَ لها قوىً تهوي وترتقي بحسبِها]

ثمَّ إنَّ مَعاشِرَ الفلاسفةِ أَثبَتوا وُجودَ النَّفسِ الإنسانيِّ بعدَ الموتِ ، وبقاءَهُ بعدَ دُثورِ القالَبِ ، وبايَنوا بذٰلكَ الأَوَّليَّةَ والدَّهرِيِّينَ ؛ فليُعلمْ أنَّ النَّفسَ الباقيةَ لها إدراكاتٌ وقضايا معَ اختلافِ جَماعتِهم في كَيفيَّةِ تلكَ الإدراكاتِ ، معَ ما تَخبَّطوا فيهِ مِنَ القُوَّةِ الوَهميَّةِ والخياليَّةِ ، وكُلُّ ذٰلكَ الخَبْطِ [1] يَشْهَدُ علىٰ جَهلِهم .

والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَخبَرَ أنَّ المُؤمِنَ يُفتَحُ لهُ في قَبرِهِ مُنتهَىٰ بصَرِه [2]

والقُوَّةُ في النُّفوسِ الإنسانيَّةِ في إدراكِ العَذابِ والنَّعيمِ . . قُوَّةٌ مُسَرْمَدةٌ ، تَشتَمِلُ علىٰ تَكويناتٍ مُتعدِّدةٍ ؛ كالتَّكوينِ في البَرْزخِ ، والتَّكوينِ في القيامةِ ، والتَّكوينِ في دارِ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ .

وأنتَ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ بهٰذه المدَّةِ اليَسيرةِ والعلمِ الحَقيرِ المُستَنِدِ إلى الآلةِ اليَسيرةِ الَّتي هي البُرهانُ . . قَضَيْتَ بجَهالتِكَ علىٰ مُغيَّبِ عَينِكَ ، وتَحكُمُ فيهِ بوَهْمِكَ البَاطِلِ الَّذي لا يَستَنِدُ إلىٰ أَمرٍ مُحقَّقٍ ، وإنَّما ذٰلكَ لكَلالِ استِعدادِكَ المُغرِقِ في أَودِيةِ الأَفكَارِ الَّتي سَلَبَتْ عنكَ تَكميلَ الاستِعدادِ القَابلِ لقَبضِ العِلمِ .

والأَنبياءُ لهُم معَ اللَّحَظَاتِ ارتقاءٌ في مَعارِجِ العِلمِ بحُسنِ إقبالِهم على اللهِ تعالىٰ ، فتَعجَّلَتْ آخِرتُهُم ، وأَنتَ تُنادِي مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ ، فانفَتَحَ لهُم بابُ الغَيبِ والحياةِ الأَبديَّةِ ، وتَدارَكَهُم بالمَعونةِ ؛ لكَمالِ استعدَادِهِمُ الَّذي لمْ تَنقَضِ قُوَّتُهُ بالإعراضِ عن وَاهبِ العِلمِ .

وأنت في ظُلمتِكَ وظُلمةِ حِيلَتِكَ ، وما خَرجْتَ مِنْ مَشِيمةِ خِلْقتِكَ إلىٰ فَضاءِ

---

(١) في الأصل : (الخبطة) .

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤) وغيره من حديث سيدنا البراء رضي الله عنه ، وفيه : « مَدَّ بَصَرِهِ » .

فِطرتِكَ ، ثمَّ إنَّكَ تُثبِتُ عُلوماً بالبديهةِ والضَّرورةِ ، ولا تَحتاجُ [1] إلى استِعمالِ البُرهانِ .

ثمَّ اعلَمْ أنَّ النُّفوسَ الإنسيَّةَ لها قُوىً ، ولها بِحَسَبِها هُوِيٌّ وهُبوطٌ ، وارتقاءٌ وعُروجٌ ، وليسَ ارتقاؤُها وعُروجُها من مَدارِكِ العُقولِ الخَلْقيَّةِ ؛ بل هو مِنْ مَدارِكِ العُقولِ الفِطريَّةِ المُستَنبَطِ مِنْ عالمِ الملَكوتِ ، فلها عُروجٌ بِقُواها إلىٰ خَالقِها وبارئِها بِمَكاسِبِها مِنَ الأَعمالِ : البَدَنِيَّةِ والقلبِيَّةِ ، ولها هُوِيٌّ وهُبوطٌ بِحَسَبِ مَكاسِبِها مِنَ الأَعمالِ القلبِيَّةِ والقالَبِيَّةِ .

فمِنْ مَكاسِبِها المُوجِبةِ للهُبوطِ : أفكارُها الَّتي هي مِنْ نتائجِ قُواهَا ، فيَنحَلُّ بكُلِّ فِكْرٍ جُزءٌ مِنْ قُواها ، فلا تَزالُ بها الأَفكارُ الرَّدِيَّةُ حتَّىٰ تتَّخِذَ مَنازِلَ في الهُبوطِ إلىٰ أَنْ تَنتهيَ إلىٰ سِجِّينٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [2]

هٰذا إخبارُ اللهُ تعالىٰ عن المُكذِّبينَ والقَائلِينَ في القُرآنِ ما قالوا ، وهٰذا هو نَقدُ حالِ الفَلاسفَةِ .

وللنُّفوسِ عُروجٌ بِحَسَبِ قُواها ؛ فلا تَزالُ تأخُذُ في الِارتقاءِ مَنازِلَ بأكسَابِها البدنِيَّةِ والقلبِيَّةِ حتَّىٰ تَصِلَ إلىٰ عِلِّيِّينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ . . . ﴾ [3] إلىٰ آخرِهِ [4] مِنْ حالِ المُقرَّبينَ والأَبرارِ ، وهمُ الَّذينَ تَربَّتْ [5] نُفوسُهُم الشَّريفةُ بالتَّغذيةِ [6]

---

(١) في الأصل : (تحتج) .

(٢) سورة المطففين : (٧ ـ ١٣) .

(٣) سورة المطففين : (١٨ ـ ٢١) .

(٤) في الأصل : (آخر) .

(٥) في الأصل : (ترتب) .

(٦) في الأصل : (الشَّريف بالتَّغذي) .

الرُّوحانيَّةِ ، فما برِحَتْ تَتربَّىٰ قُواها حتَّىٰ تَفوزَ بكَمالِ الفَضائلِ ، وتَستَقِرَّ في مَنازلِ عِلِّيِّينَ .

وهٰذا الاِطِّلاعُ مُقتَبِسٌ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ ، المُحيطِ عِلمُها بعالَمِ المُلكِ والمَلكوتِ .

وهٰذا الهبوطُ المذكورُ أساسٌ أَسَّسَهُ الأَوائلُ ، واستَنبَطوهُ بأَفكارِهِمُ الَّتي تَهوِي بهِم إلىٰ سِجِّينٍ ، والمُتأَخِّرونَ منهم نَسَجُوا علىٰ مِنوالِهم ، وامتَاحوا مِنْ مالِحِ بَحرِهِم لأَفكارِهِم مُستَمِدَّةً ؛ لتكونَ لهم مِنْ دَولتِهِم علومٌ ؛ بلْ قلَّدُوهُم ، وما نَطَقوا بهِ مُتولِّدٌ مِنْ عالَمِ الأوائِلِ ، فانطَبخوا في خَلِّهِم ، ولا زالَتْ قُوَاهُم تَركُضُ في فَلَواتِ الأَفكارِ ، مُتحيِّرِينَ ومُغَوِّرينَ ، ولا يزدادونَ إلَّا حَيرةً وضَلالةً وبُعداً .

والأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وأَتباعُهُم ببَصائرِهِمُ النَّافذةِ . . تُناهِزُ إدراكاتُهُم بالبصائرِ إدراكاتِهِم بالبَصَرِ ، بل أَقوَىٰ مِنْ إدراكِهِم بالبَصَرِ ؛ لأنَّ مُدرَكاتِ البصَرِ متناهيةٌ تستندُ إلىٰ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وهي بانبعاثِ الأَشعَّةِ والحَدَقةِ وانتِعاشِ المرئيَّاتِ بواسِطةِ الهَواءِ الشَّفَّافِ واعتدالِ القُربِ والبُعدِ ، وإدراكاتُ البصائرِ تَستَنِدُ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ والمَلكوتِ .

وإدراكاتُ الفلاسفةِ مُستَنِدةٌ إلىٰ بَراهِينَ[1] تَسوَّروا بها إلى العُلومِ الرِّياضيَّةِ والطَّبيعيَّةِ .

فتبيَّنَ لكَ ممَّا سَبَق : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَحاطَ ببَصيرتِهِ النَّافذةِ بحالِ الفِئتينِ ومَباداتِهم ونِهاياتِهم ، وأَخبَر عمَّا في سِجِّينٍ ، وعمَّا في عِلِّيِّينَ .

وممَّا غَلِطَتِ الفَلاسِفةُ فيهِ إلىٰ آخَرِ قولهم : إنَّ النَّفسَ هي القَابِلةُ للتَّكميلِ ،

---

(١) في الأصل : (برهانين) .

وقدْ قالَ قائِلُهُم [1] : شعرٌ : [من البسيط]

يَا عَامِرَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ وَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ

أَقْبِلْ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لَا بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

فإذا أردتَ البيانَ الواضِحَ . . فاعلمْ أنَّ الإنسانَ بالرُّوحِ إنسانٌ ، والنَّفسُ وَلِيدةُ الرُّوحِ ، وهي الَّتي يُثبِتُ الفلاسِفةُ وُجودَها .

فأَحضِرْ فَهمَكَ ؛ حتَّىٰ أوضِّحَ لكَ أنَّ النَّفسَ هي الرُّوحُ الحيَوانيُّ الَّذي شارَكَ فيهِ الإنسانُ جميعَ الحيَواناتِ ، وهي مُستَخرَجةٌ مِنْ أَخصِّ الجَواهرِ الجِسمانيَّاتِ ، وهي الَّتي خمَّرَها القَادرُ الأزليُّ أربعِينَ صباحاً حتَّىٰ مَيَّزَها واقتَطَعَها مِنْ جِنسِ أرواحِ الحيَواناتِ ، ثمَّ سَوَّاهَا بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [2] ، فَبِنفْخِ الرُّوحِ صارَ الرُّوحُ المُشارِكُ للحيَواناتِ نَفساً مُمتازَةً عن جِنسِ أرواحِ الحيَواناتِ ، فبكونِها مُستنبَطةً مِنْ أَخصِّ جواهرِ الجِسْمانيَّاتِ لها وَجهان : وجهٌ إلى الجِبِلَّةِ التُّرابيَّةِ الَّتي لها رُسوبٌ إلى العالمِ السُّفليِّ ، ووجهٌ إلى الرُّوحِ الرُّوحَاني ، وقدْ سَبَقَ شَرحُ ذٰلكَ [3] .

فإذا عَرفتَ . . فلا تُحرِّفِ الكَلِمَ عن مَواضعِهِ ، ولا تُسَمِّ النَّفسَ بغيرِ اسمِها ، والرُّوحَ بغيرِ اسمِهِ ؛ فالرُّوحُ أبو المُولَّداتِ ، والنَّفسُ أمُّ المُولَّداتِ ، مِنْ فَلَكِ البُروجِ إلىٰ ما دونَهُ .

وقدْ ذكرتُ لكَ أنَّ العقلَ الفِطريَّ لسانُ الرُّوحِ ، والعقلَ الخَلْقيَّ لسانُ النَّفسِ .

وما قالَ الفلاسِفةُ في عِلَّةِ العِلَلِ ، ودرَجوا إلى المعلولِ الَّذي منهُ التَّكَثُّرُ مِن عِلَّةِ العِلَلِ ، وقالوا : لا يُوجَدُ مِنَ الواحِدِ إلَّا الواحدُ . . فذٰلك الواحِدُ ما فَهِموهُ ؛ وهوَ اللهُ تعالى الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ ، الَّذي هو خَلَقَ الرُّوحَ وجَعَلَهُ واحِداً ، ثمَّ بَسَطَ التَّكَثُّرَ مِنْ ذٰلكَ الواحِدِ .

---

(١) الأبياتُ لأبي الفتحِ البُستي في نُونيَّتِه « عُنوان الحِكَم » (ص ٣٦) .

(٢) سورة الحجر : (٢٩) . (٣) انظر (ص ٣٠٣) .

ثمَّ قلِ : الَّذي سمَّيتَهُ : عِلَّةَ العِلَلِ ؛ أهو عالمٌ قادِرٌ مُختارٌ فَعَّالٌ ؟ أمْ ليسَ بمُختارٍ ولا قادرٍ ولا عالمٍ ؟

فإنْ قلتَ : إنَّهُ قادرٌ عالمٌ مُختارٌ . . فهُو اللهُ تعالىٰ ، فلا تُسمِّهِ إلَّا بما سَمَّىٰ بهِ نفسَهُ ، ولا تَصِفْهُ إلَّا بما وصَفَ بهِ قُدُسَهُ .

وإنْ أنتَ تُحِلُّهُ مَحلَّ الأَثرِ والمؤثِّرِ ، وتَنفِي عنهُ السَبْقَ[1] الزَّمانيَّ ، وتُثبِتُ لهُ السَّبقَ الذَّاتيَّ ، وقدْ شبَّهتَ اللهَ بالشَّمسِ . . فلا حاجةَ أنْ تُسمِّيَهُ عِلَّةَ العِلَلِ .

فقدْ بانَ جَهلُ الفلاسفةِ قاطِبةً بالبيانِ النَّبويِّ المُكتَسَبِ مِنْ فَيْضِ الإلٰهيِّ .

---

(١) في الأصل : (سبق) .

فصل

[في بيانِ أنَّ لكلِّ إنسانٍ حكمَ خِلقةٍ وحكمَ فِطرةٍ]

وإذا سلَّمتَ وجودَ النَّفسِ . . فاعلمْ أنَّ لكَ حُكمَ خِلْقةٍ ، وحُكمَ فِطرةٍ ، وهٰذا علمٌ أُخْرَويٌّ نَبَويٌّ ، لا عِلمٌ حُكميٌّ بُرهانيٌّ ؛ فالفِطرةُ : أن تَعلَمَ شيئاً ، فافهَمْ مِنْ قولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1] ، وذٰلكَ إجابةُ الفِطرةِ ، ثُمَّ قَمِّطْ جَنِينَ فِطرتِكَ في قِماطِ قالَبِكَ ؛ فبالموتِ الطَّبيعيِّ تَتَخلَّصُ الفِطرةُ مِنَ الخِلْقةِ ، ويكونُ لكَ مُطالعاتُ إدراكاتٍ اختَلفَ آراءُ الجاهِلينَ مِنَ الفلاسفةِ في كيفيَّةِ تلكَ الإدراكاتِ ؛ لأنَّهُم يَتكلَّمونَ مِنْ وراءِ حِجابٍ لا عِلمَ لهُم ، إنْ هُم إلَّا يظنُّونَ .

والرُّسلُ صلواتُ اللهِ عليهِم يَصِيرُ لهُم فُرقانٌ بينَ الفِطرةِ والخِلقَةِ ، في اليقَظةِ والمنامِ ، فيُكاشَفُونَ بالقُدَرِ الغَيبيَّةِ والآياتِ الإلٰهيَّةِ[2] ، وأنتَ بالموتِ الطَّبيعيِّ ، كما وَرَد : « مَنْ مَاتَ . . فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »[3] ، ويقالُ لك : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[4] .

فإدراكاتُكَ[5] المُستنِدةُ إلى البراهينِ مُسلَّمةٌ لا اعتراضَ بها ، ولٰكنَّ مِثالَكَ في علمِكَ المُتناهي كطِفلٍ رُبِّيَ في سِردابٍ مُظلمٍ ، لو قيلَ لهُ : إنَّ هناكَ شَمساً وقمراً وأَرضاً . . هل ينفَهِمُ لهُ ذٰلكَ أم لا ؟ فأنتَ ذاكَ الطِّفلُ ، ومِثالُ عِلمِكَ معَ عِلمِ الأَنبياءِ : كمِثلِ عِلْمِ القَرَويِّ بالنِّسبةِ لو قُلتَ للقَرَويِّ : إنَّ الشَّمسَ مِثلُ الأَرضِ نيِّفاً وستِّينَ مرَّةً . . يضحكُ القَرَويُّ مِنْ عَقلِك .

فهٰكذا مَن عِندَه العِلمُ المُقتبَسُ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ إذا قالَ لكَ : إنَّ للهِ مَشِيئاتٍ

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) في الأصل : (الإلٰهي) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٨٥) .

(٤) سورة قٓ : (٢٢) .

(٥) في الأصل : (فإدراكك) .

غيرُ مُتناهيةٍ ، وأنت حصَرَكَ ـ أيُّها الفَلسفيُّ ـ مَضِيقُ البُرهانِ ، لا بُروزَ لكَ[1] منهُ ، ولا تتَكيَّفُ لكَ مَشيئاتٌ مُتعدِّدةٌ غيرُ مُتناهيةٍ حسَبَ المشيئاتِ ، والأنبياءُ أدرَكوا ذٰلكَ ، وأَحاطوا بهِ ، بالفِطرةِ المُخالفةِ للخِلْقةِ ، في النَّومِ واليقَظةِ ، وأَدركوا الأَملاكَ وهيئاتِها .

وإنَّ جَبرَئيلَ لمَّا سألهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يُريَه نَفسَهُ كما خَلَقَهُ اللهُ . . برَزَ إلىٰ أَرضِ عَرَفاتٍ ، ونشَرَ جَناحَهُ ، فغُشيَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أَتاهُ جَبرئيلُ ، هٰذا لمَّا كانَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مَشِيمَةِ خِلْقتِهِ ، أمَّا[2] بِلَيلةِ المعراجِ ، لمَّا صَفَّىٰ فِطرتَهُ عنْ خِلْقتِهِ بُراقُ سبعِ سماواتٍ ، ونادَاهُ الحقُّ : إليَّ يا محمَّدُ . . فارقَهُ جَبرَئيلُ ، فقالَ : يا جَبرئيلُ ؛ هٰذا مَقامٌ يُفارِقُ الخليلُ الخليلَ ؟! فقالَ جَبرَئيلُ : وما منَّا إلَّا لهُ مقامٌ معلومٌ[3] ، فتأَخَّرَ عنهُ جِبرَئيلُ ، وصارَ في فضاءِ قُرْبِ قابِ قوسينِ أو أدنىٰ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ العِلمَ كُلِّيٌّ وجُزئيٌّ .

فالجُزئيُّ : صَيدُ حبائلِ الأَفكارِ ، يُتسَوَّرُ إليهِ بمُقدِّمةِ العلومِ الرِّياضِيَّةِ والطَّبيعيَّةِ ، ويُستَكشَفُ بها أَسرارُ المُلكِ ، ما بينَ فَلَكِ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القَمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ ، وليسَ وراءَهُ مَوجودٌ عندَ خاتَمِ العَقلِ الخَلْقيِّ .

والعِلمُ الكُلِّيُّ : مُمتَدٌّ إلى البحرِ المتَّصلِ بكَلماتِ اللهِ ، الَّتي تَنفَدُ البِحارُ دونَ نفادِها .

أسهمَ الرُّسلُ منهم سَهماً استَعَرَ مِن[4] شِوائِهِ الجنَّةُ والنَّارُ ، والبعثُ والنُّشورُ ،

---

(١) في الأصل : (له لك) .

(٢) زيادة لاستقامة السِّياقِ .

(٣) في الأصل : (ما منا إلا مقام معلوم) .

(٤) كلمة (من) زيادة لاستقامة السِّياقِ .

ويزدَادونَ يومَ القيامةِ عِلماً ؛ مُطالِبينَ بالتَّحقُّقِ بالمواعدِ لهُم بعِلمٍ مُستَقِرّ ، حتَّىٰ يصيرَ المُعايِنُ والمُعايَنُ في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ .

وأَصحابُ العِلمِ الجُزئيّ أَدرَكوا الأَفلاكَ وهيئاتِها ، وأَبعادَها ونِسبةَ بعضِها إلىٰ بعضٍ ، ولمَّا نالوا جَهداً فيما أَبعدَهُم مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأَخْلَدَهم نِيراناً ، وأفقَدَهُم عِياناً ، أولئكَ ينادونَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ، والرُّسلُ أَقرَبُ إلى اللهِ مِنْ حَبلِ الوَرِيدِ ، فأَدَالَ العِيانُ على البُرهانِ .

فصل

[في بيانِ أنَّ الفلاسفةَ أوعيةُ العلمِ وليسوا بعلماءَ]

امتلأتْ أوهامُ الفلاسفةِ وأوعِيةُ أفكارِهم ممَّا أدرَكوهُ ، ولمْ يَبقَ عندَهُم متَّسَعٌ[1] لأمرٍ وراءَ ذٰلكَ ، ونُقِلَ عنْ أفلاطونَ أنَّهُ مرَّت نَسْمةٌ مِنْ وراءِ هٰذا الكَونِ بمَشامِّ فَهمِهِ ، فأبرَزَ ذٰلكَ إلىٰ أرِسطاطاليسَ ، فطالبَهُ بالدَّليلِ ، فقالَ : إنِّي وَجَدتُ الشَّيءَ وِجداناً ، فما قَبِل منهُ ادِّعاءَ الوِجْدانِ .

ولولا أنَّ ادِّراكَ الشَّقاوةِ أدرَكَهُ . . لَتابعَ الأنبياءَ ، فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وإخوانُهُ[2] مِنَ الرُّسلِ نادَاهمُ الحقُّ وتَعرَّفَ إليهِم ، فعَرَفوهُ مِن غيرِ إعمالِ الأفكارِ ؛ مَوهِبةً محْضةً .

فالفلاسِفةُ فاتتْهُم هٰذه الموهِبةُ ، واللهُ تعالى اختباراً منهُم أوْفَقَهم بالَّذي أوفَقَهم[3] ، وأشغَلَهم بالعِلمِ الَّذي أشغَلَهم .

وكُلُّ ما هو مِنْ هٰذه العلومِ الجُزئيَّةِ ـ حتَّى السِّحرُ ، وغيرُ ذٰلكَ ـ تَعلِيمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إقامةً لرَسمِ القَهرِ الَّذي هُو إحدىٰ صِفتَيِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وضِدُّهُ : اللُّطفُ ، وإنْ شئتَ . . قلتَ : الرِّضا والسَّخَطُ ، أو قلتَ : الجلالُ والجمالُ .

فالمُقتضي لِاجتماعِ ضِدَّيْنِ هو الكَمالُ الأزليُّ ، ولهٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تَعالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[4] ؛ أرادَ : صُورةَ معناهُ ، لا الصُّورةَ الظَّاهِرةَ ، فلكُلِّ صُورةٍ معنىً .

فاجتماعُ الضِّدَّيْنِ في آدمَ دليلُ كَرامتِهِ ، واصطفاءِ اللهِ إيَّاهُ ، جَمَع فيهِ الضِّدَّيْنِ مِنَ الرِّضا والسَّخَط ؛ ليكونَ معناهُ مُنتسَخاً مِن وَصْفِ القَهرِ والرِّضا الإلٰهيِّ .

---

(١) في الأصل : (مشاع) ، ولا معنىٰ لها .

(٢) في الأصل : (وإخواته) .

(٣) أوفقهم : رماهم هنا .

(٤) تقدم تخريجه (ص ٢٤٤) .

فوَقَع الفلاسفةُ وطوائفُ الضَّلالِ في طريقِ القَهرِ والسَّخَطِ ، والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم في طَرَفِ الرِّضا واللُّطفِ والجمالِ .

فحَظُّ الأنبياءِ : العِلمُ الكُلِّيُّ ؛ وهو العِلمُ باللهِ تعالىٰ ، ولمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ بعضُ الصَّحابةِ : ماتَ تِسعةُ أعشارِ العِلمِ [1] ، هٰذا معَ كونِهِ وَقَفَ في معنى الأَبِّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [2] ، فقالَ : ما معنى الأَبِّ ؟ [3] ليُعلمَ أنَّ العِلمَ : كُلِّيٌّ وجُزئيٌّ .

وقدْ كانَ السَّلفُ رحمةُ اللهِ عليهِم يقولونَ : فلانٌ عالمٌ ، وفلانٌ وِعاءُ العِلمِ ، وكذا مَنْ كانَ مُتقِناً في علومِ الكِفاياتِ والعُلومِ الَّتي يُستعانُ بها علىٰ فَهمِ الكتابِ والسُّنَّةِ يُسمُّونَه : وِعاءَ العِلمِ ، ومَنْ كانَ عندَهُ التَّقوىٰ والخَشيةُ يُسمُّونَه : عالماً .

فعلىٰ هٰذا : الفلاسِفةُ أَوعِيةُ عُلومِ الهندسةِ والهيئةِ ومَعرفةِ الأَفلاكِ وأَبعادِها مِنَ الأرضِ ، ولا يَعرِفونَ الأَرضَ الَّتي هي في طَبَقاتِ جَهنَّمَ ، ويَعرِفونَ الأَفلاكَ ، ولا يَعلَمونَ أنَّ الأَفلاكَ سائرَها ، والبحارَ ، و [4] الأَرضَ الكُريَّة ، كلُّ ذٰلكَ حشْوُ السَّماءِ الأُولىٰ [5] ، ونسبةُ السَّماءِ الأَوَّلةِ إلى الثَّانيةِ كحَلقةٍ بأرضِ فَلاةٍ ، وهٰكذا على التَّرتيبِ ، كُلُّ سماءٍ بالنِّسبةِ إلى الأُخرىٰ حتَّىٰ تَصِيرَ السَّماواتُ والكُرسيُّ بالنِّسبةِ إلى القُدُسِ كحَلقةٍ بأَرضِ فَلَاةٍ .

---

(١) أخرج الطَّبراني في « المعجمِ الكبير » (١٦٣/٩) (٨٨١٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنِّي لأحسَبُ عمرَ قد رُفِعَ معه يومَ مات تِسعةُ أعشارِ العِلمِ ، وإنِّي لأحسَبُ عِلمَ عمرَ لو وُضِعَ في كِفَّةِ الميزانِ ، وعِلمُ مَن بعدَهُ . . لرَجَحَ عليه عِلمُ عمرَ رضي الله عنه .

(٢) سورة عبس : (٣١) .

(٣) أخرجه القاسمُ بنُ سلَّام في « فضائلِ القرآن » (ص ٣٧٥) ، وسعيدُ بن مَنصورٍ في « السُّننِ » (٤٣) والطَّبري في « جامعِ البيانِ » (٢٢٩/٢٤) ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قَرأ عمرُ على الْمِنْبَرِ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٣١] فقال : هٰذه الفَاكِهةُ قَد عرَفْنَاهَا ، فما الأَبُّ ؟ ثمَّ رجعَ إلىٰ نَفسِه فقالَ : إنَّ هٰذَا لَهو التَّكلُّفُ يا عُمرُ .

(٤) الواو زيادةٌ لاستقامةِ السِّياقِ ، وفي الأصل : (الكري) .

(٥) في الأصل : (الأَوَّلة) .

والرُّوحُ الأعظمُ ليسَ في السَّماواتِ والأَرَضِينَ ما يُماثلُهُ ، وليسَ أعظمَ منهُ إلَّا العرشُ ، وهو مُنتهَىٰ سَيْرِ العقلِ الخَلْقِيِّ ، وهُو الَّذي انتَهىٰ سَيرُ أَفكارِ الفَلاسفةِ إليه ورؤسائِهم وقادتِهم ، وسَمَّوْه : عِلَّةَ العِلَلِ ، وهو مُنتهىٰ سَيْرِ العقلِ الخَلْقِيِّ ، ثمَّ انتهىٰ بانتهاءِ سَيْرِ العَقلِ الخَلْقيِّ الوجودُ ، فطَلَعَ طلائعُ وُجودٍ لا يُدرِكُهُ إلَّا العقُل الفِطريُّ ، وهُو عَقلُ الأنبياءِ ، فعَرفوا مَوجوداً هُو اللهُ الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هُو الحيُّ القَيُّومُ ، والأسماءَ والصِّفاتِ ، فكانَ ما أدركَ الفلاسِفةُ داخِلاً تحتَ مِيزانِ البُرهانِ ، وما أَدرَكَهُ الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ مِنَ الأُمورِ الأُخرَوِيَّةِ والعِلمِ باللهِ تعالىٰ وصِفاتِهِ وأسمائِهِ لا يَحويهِ مِيزانُ البُرهانِ .

فالمُدرَكاتُ قِسمانِ[1] : قِسمٌ مُدرَكٌ بالعَقلِ الخَلْقِيِّ ، وقِسمٌ مُدرَكٌ بالعَقلِ الفِطريِّ .

وأنت لا تَفهمُ العَقلَ الفِطريَّ ، ولا العقلَ الخَلْقيَّ ، ولا تَعلَمُ ما هُما حتَّىٰ تَعلَمَ مَصدَرَهُما .

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ الرُّوحَ علىٰ ما وَرَدَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ الأرواحَ قبلَ الأَجسادِ بأَلفَيْ ألفِ عامٍ ، ثمَّ اعلمْ نِسبةَ كيفيَّةِ الأعوامِ عندَ اللهِ وقِسْمْها على الأعوامِ الَّتي عندَكَ ؛ فالعامُ عندك ثلاثُ مئةٍ وستةٌ وسِتُّونَ يوماً ، واليومُ عندَ الله خمسونَ أَلفَ سنةٍ ، فقِسْ كلَّ عامٍ عندَ اللهِ الَّذي خَلَقَ الأَرواحَ قبلَ الأَجسامِ بأَلفَيْ أَلفِ عامٍ على الأعوامِ الَّتي عندَك ؛ حتَّىٰ تَعلَمَ تاريخَ خَلْقِ الرُّوحِ ؛ فيَغرَقَ فَهمُكَ في غَوْرِ الأَزَليَّةِ .

فاستحي مِنْ تَحكُّمِكَ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ وادِّعائِكَ مَعرفةَ العِلَلِ ؛ فعِلَّةُ العِلَلِ ما عَرفتَهُ ، والرُّوحُ الأَعظمُ ما عرفتَهُ ، وبَنَيتَ الأَمرَ علىٰ وَهْمٍ لا حاصِلَ لهُ ، فالفلاسِفةُ سَمَّوا الرُّوحَ : نفساً ، والنَّفسُ النَّاطقةُ غابَتْ عنهُم ؛ لتَلبُّسِها بحُكمِ الخِلْقةِ حتَّىٰ شابَهَتْ أَرواحَ الحيَواناتِ .

---

(١) في الأصل : (قسمين) .

والنَّفسُ الَّتي ذكرناها لمْ يُثبِتُوها ، وهي [1] عندَهُم قابلةٌ للدُّثورِ ، وهي غيرُ النَّفسِ الَّتي اعترفوا ببقَائِها بعدَ دُثورِ القَالَبِ .

وهٰذا خطأٌ فاحشٌ ، وإنَّما قالوا ذٰلكَ لأنَّ قائدَهُم إلى العِلمِ : العقلُ الخَلْقِيُّ ، فانتهَىٰ بهم إلى العِلَّةِ الأُولى الَّتي سَمَّوْها : عِلَّةَ العِلَلِ ، وأثبَتوا لها وُجوداً مُستَقِلاً ، وجَعلوها مُوجِباً للمُوجَباتِ ، وأَقاموها مُقامَ الأَثرِ والمُؤثِّرِ ، وسَلَبوا عنها وَصفَ المَخلوقيَّةِ ، وجَعلوا لها سَبْقاً على المعلولِ الأوَّلِ ، سَبْقاً ذاتيّاً لا زَمانيّاً .

والَّذي أثبَتوا أنَّهُ مَعلولٌ أخطؤوا فيه ، فالَّذي سَمَّوْه : المعلولَ الأوَّلَ هُو العقلُ الفِطريُّ ، وهو كالجُزءِ مِنَ الرُّوحِ ، وليسَ هو مَعلولاً ، وإنَّما المعلولُ : النَّفسُ الكُلِّيُّ ، وهو مُوجِبُ الرُّوحِ في عالَمِ الأمرِ ، كما أنَّ حوَّاءَ مُكوَّنةٌ مِنْ آدَمَ في عالَمِ الخَلقِ ، وقدْ سَبَقَ شَرحُ ذٰلكَ [2] ، وهٰذا غابَ مِنَ الفلاسِفةِ .

وهم جَعلوا التَّكثُّرَ للمَعلولِ ، وجَعلوا لهُ طَرَفاً إلى الإيجابِ ، وطَرَفاً إلى الإمكانِ ، وجَهِلوا أنَّهُ مُوجِبٌ مُوجَبٌ بخالقٍ عليمٍ قادرٍ سميعٍ بصيرٍ ، وجهِلوا بارئَهُ وبارئَهُم وخالِقَهُ وخالِقَهُم .

وقدْ أحاطَ عِلماً بذٰلكَ فُرسانُ مَيدانِ العلمِ الَّذِينَ ركَضوا في فَسيحِ عَرْصةِ مُتابعةِ الأنبياءِ ، الَّذِينَ منهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، القائلُ بأنِّي : « أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ » [3] ، فمَا تفرَّقَ في الأنبياءِ اجتمَعَ فيهِ ، واقتَبسَ أتباعُهُ [4] منهُ ذٰلكَ ووَرِثوهُ ، وقدْ قالَ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِّثُ دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً » [5] ، فرَكِبوا بعِلمِهم رِقابَ الفَلاسفةِ ، وجَعلوهُم تحتَ أَقدامِهم ، وأَدحَضُوا حُجَّتَهُم ، وأَسفَلوا كَلِمتَهُم ، ونشَروا عَلَمَ العِلمِ في أَقاليمِ قُلوبِ الصِّدِّيقِينَ بعِيانٍ يَستَصغِرُ البُرهانَ .

---

(١) في الأصل : (وهم) . (٢) انظر (ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠١) .

(٤) في الأصل : (أتباعهم) .

(٥) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١) والتِّرمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حِبَّان في « الصَّحيح » (٨٨) من حديثِ سيدنا أبي الدَّرداء رضي الله عنه .

فيا صاحبَ الميزانِ البُرهانيِّ ، الفاقدَ البصَرِ العِيَانيِّ ؛ ليسَ هٰذا[1] ممَّا يُدرِكُهُ عقلُكَ الخَلْقِيُّ ؛ لأنَّهُ غمْرٌ مَحبوسٌ في عَالَمٍ لا بُروزَ منهُ ؛ لقِصَرِ خُطاهُ ، وإذا ضاقَ نِطاقُ فَهمِكَ . . تُصَرِّحُ بالإنكارِ ، وتَجفو بالاستِكبارِ ، وتقولُ : ما سمعنَا بهٰذا في آبائِنا الأوَّلِينَ ؛ إذْ هٰذا مِنْ شأنِ مَن وُلِدَ الوِلَادةَ الحقِيقيَّةَ المعنويَّةَ المشروحةَ مِنْ قَبْلِ الوِلَادةِ الطَّبيعيَّةِ البشَريَّةِ ، فمَنْ هو مُقِيمٌ في أوطانِ الوِلَادةِ البَشريَّةِ . . لا يَزِنُ إلَّا بميزانِ البُرهانِ ، فقدِ استَحلْتَ علىٰ نفسِكَ بالجهلِ ، حيثُ جعلْتَ رأسَ مالِكَ البُرهانَ ، وميزانُ هٰذا البُرهانِ تَنقَطِعُ عَلاقتُهُ بالموتِ الطَّبيعيِّ ، فلا يَبقَىٰ بُرهانٌ ولا مُبرهِنٌ ، ويَبقى العِيانُ معَ المُعايِنِ والمُعايَنُ أبدَ الآبادِ .

فأيُّها الحكيمُ الفلسفيُّ ؛ أين عِلمُكَ مِن هٰذا العلمِ المُستَنبَطِ مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ ، المفهومِ مِن قولِه تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، فعندَ غَوْرِ هٰذا الكلامِ وبُعدِ مَداهُ وغامِضِ سِرِّهِ . . يَلُوحُ لكَ أنَّ للهِ تعالىٰ مِنَ الصِّفاتِ والأسماءِ في طَيِّ الغُيوبِ ما لَمْ يُبرِزْهُ إلىٰ أفهامِ الخَلائقِ .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دُعائِهِ : « اللَّهُمَّ ، وَمَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي ، وَلَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمِي . . . »[3] ، وهو مَعدِنُ العِلمِ ؛ ليُعلمَ أنَّ في طَيِّ الغُيوبِ للهِ تعالىٰ مِنَ القُدَرِ والآياتِ ما لا عَينٌ رأتْ ولا أذُنٌ سمِعتْ ولا خَطَر علىٰ قلبِ بشَرٍ .

فاستحيِ أيُّها الحكيمُ مِنْ عِلمِكَ ، وتَبرقَعْ بالخَجلِ ، واطوِ بِساطَ الغُرورِ ، فما أحقرَكَ وأحقرَ عِلمَك !

---

(١) كلمة (هٰذا) زيادة لاستقامةِ السِّياقِ .

(٢) في الأصل بدون (لا) والآية من سورة النحل : (٨) .

(٣) أخرجه الحاكمُ الكبيرُ في « شِعارِ أصحابِ الحديثِ » (٨٠) من حديثِ سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، بنحوه .

فصل

[في بيانِ قصورِ البرهانِ]

الفلاسفةُ استَسْمَنوا مِنَ البُرهانِ ذا وَرَمٍ ، ومِنْ عِلَّةِ العِلَلِ ذا عَدَمٍ ، وأنَا مُبَيِّنٌ ذٰلكَ في هٰذا الفصلِ .

وذٰلكَ بأنَّهم اتَّخَذوا مِنْ أعوانٍ ظنُّوا أنَّهُم يَصِلونَ بهِ إلىٰ إدراكِ العلومِ ؛ وهو البُرهانُ ، فلو تَحقَّقَ ظَنُّهُم . . أدركَ المُلكَ والمَلكوتَ ، وكانَ ناظراً بالعَينينِ ، وما أدركَ الأَشياءَ مِنَ المُلكِ ؛ وذٰلكَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ كوَّنَ آدَمَ وخَصَّهُ بالتَّسويةِ ، وشرَّفَه بنَفخِ الرُّوحِ ، وأسجَدَ لهُ الملائكَةَ حينَئذٍ ؛ فصارَ آدمُ خليفةً في الأرضِ ، وصارَ عالِماً بالأَسماءِ ؛ إشارةً في ذٰلكَ إلىٰ إدراكِ ما أدرَكَ مِنَ الملكوتِ ، وأودَعَ فيه الذِّكرَ والفِكرَ ، والفِكرُ استَقرَّ فيهِ بالتَّسويةِ ، والذِّكرُ استَقرَّ فيهِ بنَفخِ الرُّوحِ ، ثمَّ وَكَّلَ الفِكرَ بعالَمِ الملكِ ، ووَكَّلَ الذِّكرَ بعالَمِ الملَكوتِ ، فصارَ البُرهانُ مُولَّداً مِنَ الفِكرِ .

ولكَونِهِ مُولَّداً مِنَ الفِكرِ . . صارَ طَرَفُهُ إلى الخِلْقةِ ، فلمَّا صارَ طَرَفُهُ إلى الخِلقةِ . . تَعاطَى الفلاسفةُ الإستِدلالَ بهِ علىٰ إدراكِ المُلكِ ؛ إذْ هُو منابٌ لهُ ومُوكَّلٌ بهِ ، فطَلَعَ نُورُ الفِطرةِ الَّذي هُو شُعاعُ الرُّوحِ وإدراكُ العِيانِ ، فزَاحمَهُ البُرهانُ ، فصارَ قِسماً مِنْ أقسامِ الخِلْقةِ ، وانسَبَلَ علىٰ نُورِ حَدَقةِ الفِطرةِ كانسِبالِ الجَفنِ على الحَدَقةِ ، فصارَ قاصِرَ الخُطا في كَمالِ نَظرِ انسِبالِ[1] جَفْنِ الحلَقةِ على الحَدَقةِ المُستمَدَّةِ مِنَ الفِطرةِ ، فأدرَكَ مِنَ المُلكِ ما أدرَكَ ، وقَصُرَ عن إدراكِ الملَكوتِ ، فصَحَّ أنَّهُ أعوَرُ ، والنَّاظِرونَ بهِ عُورٌ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[2] .

---

(١) في الأصل : (الإنسبال) .

(٢) سورة النساء : (١) .

فشَمِلَتْ حِكمةُ التَّسويةِ الزَّوجَيْنِ ، وشَمِلَهُما التَّخصِيصُ بالتَّسويةِ ، وشَمِلَهُما[1] الشَّرَفُ بنَفخِ الرُّوحِ ، ووَرِثا ما بَثَّ منهُما ، ثمَّ وَرِثَ ما بَثَّ أثرُ التَّخصيصِ والتَّشريفِ ، ثمَّ يحكُمُ بالتَّخصيصِ والتَّشريفِ الوَصفانِ مِنْ صِفاتِ اللهِ : اللُّطفُ والقهرُ ، ويَحكُمُ الصِّفَتيْنِ[2] مع ذلكَ التَّخصِيصُ والتَّشريفُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[3] ، فيُفرَدُ الإلٰهُ الواحِدُ بالأحَدِيَّةِ والصَّمديَّةِ تَفرُّداً لا شَريكَ فيهِ أبداً ، فالصَّمديَّةُ صارَتْ ضامِنةً لِمَا ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾[4] استِدلالاً دائماً سَرمداً ، والأَحَديَّةُ ضامِنةٌ بـ ﴿ لَمْ يُولَدْ ﴾[5] .

ثمَّ نابَ الصِّفتانِ في الوَصفيْنِ : الظَّاهرِ والباطِنِ ؛ فهُو الأَوَّلُ والآخِرُ ، والظَّاهرُ والباطنُ ، ثمَّ حكمَتْ هٰذهِ الأوصافُ بإرادتِهِ الأبَدِيَّةِ وقُدرتِهِ الأبَديَّةِ إدراجَ الخَلقِ مِنْ وراءِ أستارِ العَدَمِ ؛ ليَصِيروا[6] أجرَاماً لأشعَّةِ أنوارِ الجلالِ الأزَليِّ ، وقابلةً لأنوارِ الجلالِ الإلٰهيِّ ، قالَ : « كُنْتُ كَنْزاً لَا أُعْرَفُ ، فَخَلَقْتُ ٱلْخَلْقَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ »[7] .

فأينَ البُرهانُ مِنَ الِانتهاءِ إلىٰ هٰذه الأَسرارِ حتَّىٰ يَفِيَ بالوَفاءِ لإدراكِها ؟ فليَكتَفِنِ البُرهانُ في أكنانِ العَجزِ والقُصورِ ؛ ليَبرُزَ الدَّرَّاكُ الغوَّاصُ في تَيَّارِ بِحارِ الأسرارِ ، ويُبرِزَ منها دُرراً غَيبِيَّةً تَتلألأُ بها أقاليمُ الأرواحِ ثمَّ القلوبِ ثمَّ النُّفوسِ ، ويَستَقِرُّ بهٰذا العِيانِ نُورُ التَّوحيدِ وثَلجُ اليقينِ وأضواءُ المُكاشَفةِ والمُعاينةِ ، ويَظهَرُ مِنْ ذٰلكَ زِينةُ الإذعانِ والعُبوديَّةِ ، ويُتعجَّلُ للمُؤمِنينَ المُستنصِرينَ القَهرُ ،

---

(١) في الأصل : (وشملها) .

(٢) في الأصل : (الصِّفتان) .

(٣) في الأصل : (الزوجين) ، والآية من سورة الذاريات : (٤٩) .

(٤) سورة الإخلاص : (٣) .

(٥) سورة الإخلاص : (٣) .

(٦) في الأصل : (ليصير) .

(٧) انظر حاشية رقم (٣) من (ص ٢٠٩) .

ويُتعجَّلُ لهم الجنَّةُ بما يُباحُ لهم مِنَ اللَّذائذِ لهٰذه المُطالَعاتِ الَّتي هي جِنانيَّةٌ إلىٰ أَرواحٍ قُدُسيَّةٍ وتَنزُّهاتٍ خُلْديَّةٍ تَتعجَّلُ للقلوبِ الصَّافيةِ ، وتَحظَىٰ بفَواضِلِ هٰذا[1] النَّعيمِ النُّفوسُ ؛ فتَعتَدِلُ صِفاتُها ، وتَنزِلُ مِنْ مُستوعَرِ الأمَّاريَّةِ إلىٰ وِهادِ اللَّوَّاميَّةِ ، وتَنزِلُ في مَنازِلِ الطُّمأْنينةِ مُتَّصِفةً بصِفةِ القلوبِ[2] ، والقلوبُ مُتدانيةٌ مِنْ صِفةِ الأرواحِ ، ويكونُ الإحسانُ الأزليُّ شامِلاً لأَجزاءِ العَبدِ المؤمنِ ؛ ظَاهرِه وباطنِه ، فطُوبَىٰ لهم ، ثمَّ طُوبَىٰ لهم .

---

(١) في الأصل : (هٰذه) .

(٢) إشارةٌ إلى الآياتِ الكريماتِ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف/٥٣] ، و﴿ ٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة/ ٢] ، و﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر/٢٧ ـ ٢٨] .

فصل

[في أنَّ الذِّكرَ نتيجةُ الفِطرةِ ، والفكرَ نتيجةُ الخِلقةِ]

الذِّكرُ نَتِيجةُ الفِطرةِ ، والفِكرُ نَتِيجةُ الخِلْقةِ ؛ فدَوامُ الذِّكرِ والسَّيْرِ بمُلازَمةِ تُقرِّبُ جائزَ الوجودِ مِنْ واجبِ الوُجودِ ، والخَفِيرُ في ذٰلكَ السَّيرِ : العقلُ الفِطريُّ ، فيَصِيرُ الذِّكرُ ذِكرَ الذَّاتِ ، وذٰلكَ مِعراجُ الأرواحِ وقابُ قوسَيْنِهم ، ومِعراجُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِعراجُ أتباعِهِ ، فيُعلِنُ عندَ ذٰلكَ الذَّاكِرُ بألَّا أعبُدَ رَبّاً لمْ أَرَهُ .

والفِكرُ نَتِيجةُ الخِلْقةِ ، فيؤلِّفُ ويُجمَعُ مِنَ المُكوَّناتِ والخَلقِ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ والمُلكِ ، والخَفيرُ في ذٰلكَ : العقلُ الخَلْقيّ ، فتَنصَرِفُ في المكوَّناتِ حتَّىٰ تَقِفَ علىٰ كُنهِ المكوَّناتِ الَّذي مِيزانُهُ البُرهانُ ، فيَقضي بكُنهِ الأفلاكِ والكَواكبِ وأجرامِ الأفلاكِ .

فالسَّيرُ بنُورِ الفِطرةِ مُوصِلٌ إلى المكوِّنِ ، والسَّيرُ بالفِكرِ مُوصِلٌ إلى الكائناتِ باعتبارِها[1] مظهرَ نتيجةِ الفِطرةِ الَّتي تُقرِّبُ إلى المُكوِّنِ ، فتَظهرُ نَتِيجةُ الخِلْقةِ بالإحاطةِ بالمُكوَّناتِ .

فالأولُ حَظُّ الأنبياءِ وأَتباعِهِم حَسَبَ التَّفاوتِ بينَ الأبرارِ والمُقرَّبِينَ ، ونَتِيجةُ الخِلقةِ هو حَظُّ الفلاسفةِ وحُكمائِهِم .

فمَراتبُ الخِلْقةِ وظُلَمَتِها مُقسَّمةٌ إلىٰ طَبقاتِ الأرَضِينَ ، ودَرَجاتُ الفِطرةِ مُقسَّمةٌ علىٰ طَبقاتِ السَّماواتِ .

فكلَّما نَضَوْتَ[2] بأكسَابِك القَلبيَّةِ والقالَبيَّةِ غِشاوةً خَلقِيَّةً : أطلقتَ مِنْ طَبقةٍ

---

(١) في الأصل : (يعتبرها) .

(٢) أي : جردتَ وأزلتَ .

مِنْ طَبقاتِ خِلْقتِكَ المُتناسبةِ لطَبقةٍ مِنْ طَبقاتِ الأَرضِ ، وبحسَبِ ذٰلكَ لو بَقِيَتْ دَرجةٌ مِنْ درجاتِ الفِطرةِ المناسِبةِ لعُروجِ طَبَقةٍ مِنْ طَبقاتِ السَّماواتِ ، فتَستَحِقُّ أنْ يُنادِيَك لِسانُ اللُّطفِ الأزليّ : إليَّ إليَّ يا عبدُ ؛ فالآثارُ الشَّرعيَّةُ مُصَفِّياتٌ عن لَوْثِ الخِلْقةِ ، ومُطهِّراتٌ عن دَرَنِ الجهالةِ ، ومُرَقِّياتٌ في دَرجاتِ الإيمانِ .

فإياكَ ثمَّ إياكَ أن تَغفُلَ عنِ اقتناءِ هٰذه المواهبِ الَّتي تَجمعُ لكَ مُتفَرِّقاتِ السَّعاداتِ ، فشَمسُ الفِطرةِ طَلعَتْ مِنْ مَطلَعِ التَّعريفِ الإلٰهيّ ، حيثُ قالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، فاستَنارتْ جُدرانُ بُنيانِ الخِلْقةِ ؛ فـ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1] ، نداءٌ أزليٌّ رَجَعَ صَدَاهُ مِنْ مُنقَعَرِ الخِلقةِ ؛ فصارَ بينَ الخِلْقةِ والفِطرةِ إسراجٌ مَستورٌ بأستارِ الغَيبِ ، حتَّىٰ تكوَّنَ آدمُ وحوَّاءُ ؛ ففُرِّقَ بينَ الفِطرةِ والخِلْقةِ ، فظَهَرَ لكلٍّ منها حِكمةٌ ، فصارَتِ الفِطرةُ كجِرمٍ نُورانيٍّ بمَثابةِ الشَّمسِ ، والخِلقةُ كجِرمٍ ظُلمانيٍّ بمَثابةِ القَمرِ ، فصارَ حُكمُ الخَلقِ في اختلافِ أحوالِهم كبقاءِ جِرْمِ القمرِ علىٰ هيئتِهِ واستِنارةِ بعضِ جِرمِهِ بنُورِ الشَّمسِ ؛ فعلىٰ هٰذا انقسَمَتِ الحُظوظُ مِنَ الفِطرةِ بينَ الخَلقِ ، وذٰلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ .

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

فصل

[في بيانِ تفاوتِ أفهامِ الخلقِ بحسبِ الاستعدادِ والحظِّ من اللهِ تعالىٰ]

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] إشارةً إلىٰ أنَّ أفهامَ خَلقِهِ أوعِيةٌ لشيءٍ مِنَ العِلمِ يُقسَمُ علىٰ قَدْرِ الإستِعدادِ والحَظِّ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ويُفهَمُ مِن ذٰلكَ : أنَّ لكلِّ سَماءٍ وسُكَّانِها عِلماً[2] ، وأنَّ للأَنبياءِ وأَتباعِهم عُروجاً رُوحَانيّاً[3] ، ولهم بحسَبِهِ فُهومٌ وحَظٌّ مِنَ عِلمِ كُلِّ سَماءٍ ، وأنَّ للهِ خَلقاً مِنْ عِبادِهِ أَسكنَهُم حَظائرَ الإيمانِ مِنْ غيرِ عُروجٍ لبواطنِهِم ورُوحانيَّتِهِم ؛ فمنهُم مُنحصِنونَ بحِصنِ الإسلامِ ، لهم عُلومٌ أَبرَزَها[4] الحقُّ إليهِم ، وأثبتَها في عقلِهِمُ الَّذي هو غَريزةٌ يَتهيَّأُ بها دَرَكُ العلومِ ؛ وهو العقلُ الخَلْقِيُّ الَّذي يُشارِكُ فيهِ الفَلاسفةُ .

ولمَن مُنتهجٌ سَبيلَ الهُدَى اصطِلاحٌ ، وذٰلكَ الإصطلاحُ مَقصورٌ علىٰ غيرِهِ ، بواطنُ لها عُروجٌ وقلوبٌ سَماويَّةٌ .

فالأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم وأتباعُهُمُ الصِّدِّيقونَ لهمُ العُقولُ الفِطريَّةُ ، وإدراكٌ مِنْ عَظيمِ أَمرِ الحقِّ ، لهم قلوبٌ سماويَّةٌ ذاتُ مَعارِجَ رُوحانيَّة ، فربَّما قَضَتْ فُهومُ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[5] ، كما أنَّ للإنسانِ مَشيئاتٍ مُتعدِّدةً يكونُ للهِ تعالىٰ مَشيئاتٌ غيرُ مُتَناهيةٍ مُستَنِدةٌ إلىٰ مَشيئةٍ واحدةٍ هي مِن لوازمِ الذَّاتِ ، ومِثالُ ذٰلكَ : كالإنسانِ لا يكونُ أباً في نَفسِهِ ، فإذا جاءَهُ وَلدٌ . . يُسمَّىٰ : أباً ، فإذا جاءَهُ ولَدُ الولدِ . . يُسمَّىٰ : جَدّاً .

---

(١) سورة الإسراء : (٨٥) .

(٢) في الأصل : (وسكانه علم) .

(٣) في الأصل : (عروج روحاني) .

(٤) في الأصل : (أبرزه) .

(٥) سورة الرحمٰن : (٢٩) .

فعندَ ذٰلكَ يُقالُ : ما سَمَّيتُموه العلَّةَ الأُولىٰ . . هي قضِيةُ مَشيئةٍ واحدةٍ ، فيَبقى الفلاسِفةُ صِفرَ اليَديْنِ مِنْ عَوالمَ في طَيِّ الغُيوبِ ، ما مرَّ بمَشامِّهِم منها نَسْمَةٌ ، انتَهىٰ عِلمُ الخلائقِ كُلِّهِم ـ حتَّى المُتكلِّمينَ والفلاسِفةِ ، وكلِّ ذي فَهمٍ ـ إلىٰ إثباتِ مَوجودٍ ذاتاً وصِفاتٍ ، حَصَرَها المتكلِّمونَ في عَددٍ ، ونَفَوها الفَلاسِفةُ ، وانغَلقَ بابُ الفَهمِ ، وضَاقَ وِعاءُ النَّفسِ النَّاطقةِ الإنسيَّةِ عمَّا وراءَ ذٰلكَ ، وهٰكذا سُكَّانُ السَّماواتِ السَّبعِ ، بعُلومٍ مُتفاوتةٍ بتفاوتِ دَرجاتِ السَّماواتِ .

واستَقلَّ البارئُ بأُمورٍ ما تَسَعُ الكَائناتِ مِنْ خَلقِهِ ، فهلْ ثَمَّ إلَّا العَجزُ والإنقطاعُ واليأسُ مِنْ إدراكِ كُنهِ الأَزَلِ والأَزليِّ سُبحانَهُ وتعالىٰ ؟

ليلُ الأزليَّةِ[1] والأَبَدِ ما تنفَّسَ صُبحَهُ الذي فكَّرَ ونظرَ .

فليَعمَدِ العاقلُ المُوفَّقُ إلىٰ مُتابعةِ الأَنبياءِ المُستَقلِّينَ بعِلمٍ رَبَّانيٍّ مَلَكوتيٍّ عِنايَتُهُ ، وصرفُهُ علىٰ قَدْرِ فُهومِ الخَلقِ ، عن بَصيرةٍ مَوهوبةٍ لهم مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فأَقاموا رسُومَ الآخرةِ بما يُصيِّرُ الخَلقَ ، فهم خُزَّانُ عِلمِ اللهِ تعالى المقسِّمونَ عليهِم في كلِّ عَصرٍ وزمانٍ بما تَقتَضيه الحِكمةُ البالغةُ ، نتائجَ مِنَ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[2] .

وهٰذا اطِّلاعٌ إلٰهيٌّ علىٰ أَفواهِ الفُهومِ ، قاضٍ عليهِم بالعَجزِ عنِ الإدراكِ ، والعَجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكٌ .

---

(١) في الأصل : (الأزلي) .

(٢) سورة الملك : (٣ ـ ٤) .

فصل

[في صورِ الوحي]

اعلمْ : أنَّ نبيَّنا صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ تعدَّدَتْ لهُ أبوابُ الغَيبِ ؛ فتارةً يتبدَّىٰ لهُ جَبرَئيلُ أمينُ الوَحي في صورةِ بَشَرٍ مُتلبساً بلباسِ عالَمِ الحِكمةِ ، قالَ اللهُ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[1]

وتارةً وَحياً كِفاحاً بغيرِ واسِطةٍ ؛ ويكونُ ذٰلكَ عندَ التَّجرُّدِ عن ملابسِ الخِلْقةِ ، والانغِماسِ في بحارِ نُورِ الفِطرةِ ، فيَرِدُ عليهِم واردٌ مِنْ آثارِ الجَلالِ الأزليِّ ؛ فيكونُ قابَ قوسينِ أو أدنىٰ ، فإياكَ أن تحومَ حَولَ حِمَى الحلولِ ؛ فتكونَ لاهوتيّاً كالنَّصارَىٰ ، ولٰكن يكونُ لآثارِ واجبِ الوجودِ عكسٌ في مِرآةِ جائزِ الوجودِ ، وجلَّت آثارُ الجلال أن تحُلَّ في جَسدٍ ، كما لا تحُلُّ الصُّورةُ المُنعكِسةُ في المِرآةِ .

وتارةً يكونُ بالنَّفثِ في الرُّوعِ ؛ وهو واردٌ إلٰهيٌّ يجري أثرُهُ في الدِّماءِ والأبشارِ فينتقشُ منهُ أثرُهُ في لَوحِ الرُّوحِ ، فيبرُزُ منهُ فَهمٌ إلى القَلبِ ، ويبرزُ منهُ إلى الكَونِ عِلمٌ مُنتفَعٌ بهِ لصَلاحِ وإتمامِ السِّياسةِ النَّبويَّةِ التي تتربَّىٰ بها[2] الأُمَّةُ لصَلاحِ عَائدٍ لهُم .

وتارةً يُعرِّفُهُ الحقَّ بطَريقةِ مَنْ صَحِبَهُ ؛ لأنَّ بَواطِنَهُم تنوَّرَتْ بنُورِ الوَحي ، وسَرَىٰ إليهِم مِنْ بركةِ النُّطقِ النَّبويِّ ، فلمَّا تنوَّرَتْ بواطِنُ أصحابِهِ ، وتشرَّبَتْ نضَارةُ الوحي المُنعكِسِ في قلوبِهِم مِنْ نَفَسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . صارَتْ مُستَودَعَ العلمِ المُستمَدِّ مِنْ كلماتِ اللهِ التي تُستنزَلُ[3] بالتقوَىٰ ، والزُّهدِ في الدُّنيا ، ودوامِ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ .

---

(١) سورة الأنعام : (٩) .

(٢) في الأصل : (به) .

(٣) في الأصل : (يستنزل) .

وكانَ يرِدُ عليهم أمورٌ غَيبيَّةٌ في مَنامِهم[1] ، ويقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ رُؤْيَا ؟ »[2] ، فيستطلِعُ أمورَ الحقِّ وتعريفاتِهِ بما يَرَوْنَ في مَنامِهِم .

وإذا شاوَرَهم في الأَمرِ حسَبَ ما أمَرَهُ اللهُ تعالىٰ . . يَستطلِعُ الصَّوابَ مِنْ نُطقِهِم ومَشُورتِهِم ، فيصيرُ لهُ باباً مِنَ المُكالمةِ والمُحدَّثيَّةِ .

فكما تعدَّدَتْ أَبوابُ تعريفاتِهِ . . تعَدَّدت مَراتبُ دَعوتِهِ ، قالَ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[3] ؛ ببصيرتِهِ النَّافذةِ التي أَشرَقْتَ بها علىٰ كُنهِ الاستعدَاداتِ ، مِنْ باطنٍ مُستَعِدٍّ للإيمانِ ، ومُستعِدٍّ للإتقانِ ، وباطنٍ مُستعِدٍّ للإحسانِ ، بلِ البواطنُ متفاوتةُ الحظِّ مِنْ علمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ ، ولذٰلكَ انقَسَمَتْ تلكَ الاستِعداداتُ إلى : المُقرَّبين ، والأَبرارِ ، وعامَّةِ المُؤمنين ، وإلىٰ أربابِ الصِّيانةِ من أَهلِ الإسلامِ المُسلمين ، فكانَتْ[4] دَعوتُهُ علىٰ قَدْرِ العقولِ والفُهومِ .

ويدعو بلسَانِ الحِكمةِ أَربابَ فَهْمِهِ الذين يتشرَّبُونَ[5] أَثرَ الدَّعوةِ بالرُّوحِ والقَلبِ والنَّفسِ .

وبالمُجادلةِ ليَستخرجَ عفونةَ جَهلِ النَّفسِ ، كما يُستخرَجُ أَثرُ العفوناتِ مِنَ الجلودِ بأَدويةِ الدِّباغِ .

هٰذا شغْلُ الأَنبياءِ في أَمرِ الحقِّ .

والخَلقُ يمتاحُونَ مِنْ بَحرِ العِلمِ دُررَ الاستعدادَاتِ ، وكلَّما غَشِيَتْ آثارُ

---

(١) في الأصل : (ملامهم) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٦) ومسلم (٢٢٧٥) من حديث سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٣) سورة النحل : (١٢٥) .

(٤) في الأصل : (فكان) .

(٥) في الأصل : (الذي يتشرب) .

البشريَّةِ بما يُعيرُهُم فتورٌ . . يُنارُ لهُم مِنْ آثارِ الهَيبةِ ، فيذوبونَ بصِدقِ الضَّراعةِ ذَوَباناً يضمَحلُّ بهِ وجودُهُم وتتضاءَلُ نفوسُهُم ، ويُفنيهِم فناءً محتاجاً إلىٰ إنشاءِ جَديدٍ ، فيُنشئُهُم كما أفناهُم ، ويُعيدُهُم كما كانوا[1] ، ويزيدُهُم فَهماً ، ويُفيدُهم مَزيداً ، ولهٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ يَوْمٍ لَمْ أَزِدْ فِيهِ عِلْماً . . فَلَا بُورِكَ لِي فِي صَبِيحَةِ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ »[2] ، ذكَرَ اليومَ علىٰ فهومِ المُستَمِعينَ ، وإلَّا . . فالعلْم ينمو فيه مُقترناً بالأَنفاسِ كنموِّ الغَرسِ لصَلاحيَّةِ المَنبِتِ .

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أودَعَ قلوبَ علماءِ الأُمَّةِ معَ تقلُّبِ أطوارِ الأَعصارِ ، ببركَةِ ما كانَ نَزَلَ قلبَهُ المُطهَّرَ مِنْ القرآنِ المَجيدِ ، ولا يزالُ يَسري نُورُها اللائِحُ آثارُهُ علىٰ جُدرانِ جَنانِ أَهلِ الإيمانِ مِنَ الأُمَّةِ كبقيَّةِ نُورِ الشَّفَقِ على الجُدرانِ مِنْ آثارِ نُورِ الشَّمسِ ، ويبقَىٰ ذٰلكَ إلىٰ آخِرِ عَهدِ الدُّنيا ، فإذا غابَ الشَّفقُ . . قامَتِ القيامةُ ، ثمَّ تتكَاشَفُ حالٌ مِنَ المنزِلَيْنِ وغياهِبِ الكَونيْنِ ، إلىٰ أنْ يطلُعَ صَباحُ الفطرةِ ، ويُميَّزَ نُورُ الإرادةِ الأَزليَّةِ بينَ وجوهٍ مُظلمةٍ ووجوهٍ عليها غبرةٌ ، ترهقُها قترةٌ ؛ فيُسكِنُهُم منازلَ القَهرِ ، وبينَ وجوهٍ مُسْفِرَةٍ ، ضاحكةٍ مستبشرةٍ ؛ فيُسكنُهُم منازلَ النَّعيمِ المُقيمِ .

والفلاسفةُ أَربابُ القَهرِ المُنغمسونَ في بحورِ الضَّلالاتِ ، وأَوردَ الحقُّ عليهِم عِلماً مِنْ خِزانةِ القَهرِ الأَزليِّ ، وشَحَذَ أَلسنتَهُم بالنَّشرِ والتَّصديقِ ، وأَطلقَ يَدَهُم للتَّنبُّتِ في الطروسِ ، وجَدَّدَ قومٌ بعدَ قومٍ بفهومٍ مُستمَدَّةٍ ، حتى انتهَتْ علومُهُم إلىٰ غاياتِها مِنْ علمِ الهندسةِ وإقليدِسَ المُستعانِ بهِ علىٰ علمِ الهيئةِ ومعرفةِ أَبعادِ الأَفلاكِ مِنَ الأَرضِ الكُريَّةِ الخِلْقةِ بزَعمِهِم وسَيرِ الكَواكبِ وتأثيراتِها ، وتوابعِ ذٰلكَ مِنْ علومِ النّجومِ والطِّبِّ ، وتشعَّبَ علمِ الطِّبِّ إلىٰ : علمِ التشريحِ ، وطِباعِ الأَدويةِ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، فهم في شُغُلٍ شاغِلٍ وأَمرٍ هائلٍ ليسَ تحتَهُ طائلٌ ، لا

---

(١) كلمة (كانوا) : زيادة يستدعيها السياق .

(٢) أخرجه ابن راهويه في « المسند » (١١٢٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، بنحوه .

يَفرُغونَ للهِ تعالىٰ ، ولا لمعرفةِ نفوسِهم ، فهُم جُهَّالٌ باللهِ تعالىٰ وبأنفُسِهم ، عالمونَ بعالَم المُلكِ والأجرامِ ، فرفعوا بذٰلك عَلَماً مِنَ الجَهلِ وسَمَّوهُ : عِلماً وحِكمةً ، وأَحبُّوا أنْ يتسوَّروا إلىٰ منَازلِ المُرسَلينَ تمويهاً وزوراً ، فكانَتْ[1] كلمةُ المُبطِلينَ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فوقِ الأرْضِ ما لها مِنْ قرارٍ .

---

(١) في الأصل : (فكان) .

فصل

[في بيانِ مذهبِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ من منعِ التأويلِ في الذاتِ وجوازِهِ في الصفاتِ]

أَعتَذِرُ إلىٰ إخواني مِنَ الحنَابلةِ مِنْ أَهلِ الكِتابِ والسُّنةِ بتبيينِ ما سَبَق في بعضِ فصولِ هٰذا الكتاب « أَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[1] ، وقولي : للصُّورةِ معنىً ، وللمَعنىٰ صُورةٌ ، معَ موافقَتي أَهلَ الكتابِ والسُّنةِ في تَركِ التأويلِ[2] .

اعلمْ : أنِّي أَقولُ : إنْ كانَتِ[3] الإشارةُ في ذٰلكَ إلى الذَّاتِ . . فيُجرى الأمرُ كما وَرَدَ ؛ إذْ حَريمُ الأزليِّ مَصُونٌ مُنزَّهٌ أنْ يطوفَ بهِ طَائفُ التأويلِ ، إذْ هي كما جاءَتْ .

وإنْ نزَلْنا إلىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَق آدَمَ علىٰ صُورتِهِ ، وأَوَّلناهُ بالصِّفاتِ السَّبعةِ . . هو تأويلٌ صحيحٌ ، لا يقدَحُ في إجراءِ الخبرِ علىٰ ما جاءَ ، ولا ينزلُ حيِّزَ التأويلِ ؛ لأنَّهُ مُنزَّهٌ مِنْ كلِّ حيِّزٍ .

وأمَّا الصِّفاتُ : فيمتدُّ إليها باعُ التأويلِ ؛ وفاءً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[4] ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَق آدَمَ ، وأودَعَ فيهِ صفةَ العِلمِ ، لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[5] ، وأودَعَ فيهِ الإرادةَ والقُدرةَ والسَّمعَ والبَصَرَ والكَلامَ ، ولولا إيداعُ هٰذه الصِّفاتِ فيهِ . . ما جاءَ منهُ عِمارةُ الدُّنيا ، ولا كانَ خَليفةَ اللهِ ، وما خُصَّ بالتَّمليكِ والتَّسخيرِ اللذيْنِ هما صِفةُ الحقِّ ، فهٰذا تفرُّدٌ بالكَرامةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[6] ؛ لِما مَلَك التمليكَ والتَّسخيرَ باللهِ تعالىٰ على الإطلاقِ .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٤٤) .

(٢) انظر (ص ٢٥٥ ـ ٣٢٧) .

(٣) في الأصل : (كان) .

(٤) سورة البقرة : (٣٠) .

(٥) سورة البقرة : (٣١) .

(٦) سورة الإسراء : (٧٠) .

وأمَّا الملائكةُ : فيُوجَد فيهِم شيءٌ مِنْ هٰذهِ الصِّفاتِ عندَ ورودِ الأَمرِ عليهِمْ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] ، علَّق الأَمرَ على الفَهمِ في صحونِ التسخيرِ الأَزليِّ مَثْنىٰ وثُلاثَ ورُباعَ .

---

(١) سورة النحل : (٥٠) .

فصل

[في ذكرِ شيءٍ من غرائبِ الأسرارِ]

خفِيُّ أسرارِ اللهِ تعالى المُودَعةِ في قلوبِ خَواصِّ عبادِهِ . . بحُكمِ أمورٍ غابَتْ عن الخَلقِ ، والحقُّ أطلَعَ عليها مَنْ شاءَ مِنْ عبادِهِ ، لا تحويها آراءُ الفلاسفةِ ، وهم عندَ الأنبياءِ جَهَلةٌ ما لهمُ اطِّلاعٌ ، ولا سَمعٌ يَسمَعُ ، ولا بَصَرٌ يُبصِرُ .

فمِنْ غَرائبِ الأَسرارِ : هو أنْ يُعلمَ أنَّ الإنسانيّةَ مبنيَّةٌ على الحيَوانيَّةِ ، والحيَوانيَّةُ وعاءُ الإنسانيَّةِ ، والإنسانيّةُ لمَّا نَزَلَتْ منازِلَ الحيَوانيَّةِ . . فُرِّقَ بينَ الإنسانيَّةِ والحيوانيَّةِ بامتدادِ القالَبِ الإنسانيِّ[1] إلى العلوِّ ، والحيَوانُ منهُم مَنْ يمشي علىٰ بَطنِهِ ، ومنهم مَنْ يمشي علىٰ رِجْلَيْنِ ، ومنهم مَنْ يمشي علىٰ أربَعٍ ، فكانَ امتدادُ القالَبِ الإنسانيِّ إلى الأعلىٰ حُنُوّاً وتشَوُّقاً إلى اللهِ تعالىٰ ، فكانَ هٰذا مِنْ خاصيَّةِ نُورِ الفِطرةِ .

وقضىٰ ذٰلكَ الامتدادُ للحُنُوِّ والتشوُّقِ إلى الحقِّ ، فأدركَ بنورِ الفِطرةِ علوماً لا يُدرِكُها البرهانُ ، وبذٰلكَ العَيشَ بعدَ الموتِ ؛ لأنَّ بعدَ الموتِ حُكمَ الإنسانِ حُكمُ الفِطرةِ ، وتصيرُ الولايةُ الإنسانيةُ حينئذٍ لنورِ الفِطرةِ ، ونورُ الفِطرةِ يَحكُمُ بعدَ الموتِ ؛ فأهلُ الجنَّةِ يتنعَّمونَ بالنعيمِ الرُّوحاني غيرِ المعنَوي ، بلْ مُجسَّدٌ بأنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُه ، وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، كلُّ ذٰلكَ مُجسَّدٌ تجسُّداً[2] رُوحَانيّاً كتجسُّدِ الكَائناتِ في مُدَّةِ عَيشِ الدُّنيا ، ولأهلِ[3] النَّارِ عذابٌ مجسَّدٌ مِنْ الأَنكالِ والأَغلالِ ونُضْجِ الجلودِ ، كلُّ ذٰلكَ مُجسَّدٌ .

---

(١) في الأصل : (الإنسانية) .

(٢) في الأصل : (تجسد) .

(٣) الواو يقتضيها السياق ، وليست في الأصل .

والنَّفسُ لا تَبقىٰ مُعطَّلةً مسلُوبةَ الإدراكَاتِ ؛ بلْ لها إدرَاكاتٌ حسَبَ تكوُّنِها ، فيكونُ في البرزَخِ إدراكٌ ، وتكوينٌ عندَ نفْخِ الصُّورِ ، وتكوينٌ في يومِ العَرضِ والنُّشورِ ، وتكوينٌ إمَّا في النَّعيمِ المُقيمِ أو في العَذابِ والجَحيمِ .

وسؤالُ مُنكَرٍ ونَكيرٍ وضَغطةُ القَبرِ لا تختصُّ بالشِّقِّ واللَّحدِ ؛ فالقبورُ مواردُ يرِدُها الخَلائقُ ، وقدْ يكونُ منها بطونُ الحِيتانِ والسِّباعِ لأَجزاءٍ متفرِّقةٍ ولحومٍ ممزَّقةٍ .

والرُّوحُ الحيوانيُّ ـ الذي هو : النَّفسُ ـ لهُ تعلُّقٌ بأَجزاءِ القالَبِ ، ويجتمِعان بنفخِ الصُّورِ للبعثِ والنُّشورِ .

وكلُّ هٰذهِ عقوباتٌ أخرويَّةٌ وابتلاءَاتٌ إلٰهيَّةٌ ، لحِكمةٍ بالغةٍ لا تُدرِكُها العقولُ الخَلْقيَّةُ ، بلْ تُدرِكُها العقولُ الفِطريَّةُ ، كما تنَوَّرَتْ حاسَّةُ إبراهيمَ بنُورِ الفِطرةِ حتىٰ رأَى الأَجزاءَ والعِظامَ تأتلفُ عِياناً .

فمَنْ يُخيَّلْ لهُ أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ وما وُصفَ فيهما مِنَ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ معنَويٌّ ، وتَأوَّلَ بعقلِهِ علىٰ ما هو غيرُ مذكورٍ في القرآنِ . . فهو كافرٌ .

فالإنسانُ كما لهُ في هٰذه الدُّنيا تكوينٌ ، ولهُ بحسَبِهِ فَهْمٌ في البرزَخِ والقيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ ، ولهُ تكويناتٌ متعدِّدة ، وفي كلِّ تكوينٍ لهُ معلومٌ ومفهومٌ ، ولهٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا . . ٱنْتَبَهُوا »[1] ، يدُلُّ علىٰ أنَّ للإنسانِ كَوناً بعدَ الموتِ .

وقدْ وَرَدَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُكالمةُ المَوتىٰ ببَدرٍ ، فقالَ عمرُ : تُخاطبُ أَجساماً لا رُوحَ لها ؟! فقالَ : « وَٱلَّذِي بَعَثَنِي بِٱلْحَقِّ نَبِيّاً ؛ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ لِكَلَامِي »[2] .

---

(١) هو أثرٌ يُعزَىٰ إلىٰ بشر بن الحارث كما في « حديث أبي الفضل الزهري » (٦٧٠) ، أو سفيان الثَّوري كما في « حلية الأولياء » (٥٢/٧) ، أو يونس بن عبيد كما في « إحياء علوم الدين » (٢١٤/٣) ، أو علي بن أبي طالب كما في « الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة » للسيوطي (ص ١٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٦) من حديث سيدنا أبي طلحة رضي الله عنه ، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

فيا عالِماً بطَوْرٍ مِنَ الأَطوارِ ، وهُو طَورُ أيَّامِ الدُّنيا ؛ تيقَّنْ أنَّهُ ينغَسِلُ آثارُ دِرايتِكَ بالمَوتِ الطَّبيعيِّ ، واللهُ سبحانَهُ يُنشِئُ لكَ أَطواراً بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ .

وقدِ اعترفْتَ ببقاءِ النَّفسِ النَّاطقةِ بعدَ دُثورِ القالَبِ ؛ فما تنكرُ أنْ يكونَ لكَ في البرزَخِ طَوْرٌ ؟ ولكنْ بحسْبِهِ دِرايةٌ وفَهمٌ .

وقدْ نَبَّهَكَ الحقُّ بأُنْموذَجٍ مِنْ ذلكَ ؛ بما فتح لكَ باباً مِنْ طَريقِ النَّومِ ، وأطلَعَكَ على غيرِ ما استصحبتَهُ في حالِ اليقَظةِ .

فالحقُّ تعالىٰ أنشَأَ في كلِّ طَورٍ لكَ تكويناً جديداً ، ولكَ بحَسَبِهِ علمٌ ، ونفسُكَ متَّصلةُ الأَطنابِ إلى الآبادِ ، وتعرِّفُ عقلَكَ وفَهمَكَ فيما يَرتقِي فيهِ مِنْ أنواعِ النَّعيمِ ، وتعرجُ فيهِ علىٰ مَراقِي اللُّطفِ الأَزَليِّ ، وكذلكَ تعرفُ ما يهبطُ فيهِ في دَرَكاتِ القَهرِ الأَبَديِّ ، ولكَ تماثيلُ قَهريَّةٌ[1] تنبُعُ مِنْ ينابيعِ القَهرِ الأَزليِّ ، ولكَ بحَسَبِها فَهمٌ مِنْ أَنواعِ القَهرِ والعَذابِ ، ممثَّلٌ مِنَ النَّارِ والحيَّاتِ والعَقاربِ والأَنكالِ .

فسُبحانَ مَنْ أَعمَىٰ بصائرَ الفَلاسفةِ حتىٰ حصَلوا في الشَّقاءِ الدَّائِمِ ، والرُّسلُ وأتباعُهم بفضلِ اللهِ تعالىٰ في النَّعيمِ المُقيمِ !

فحالُ الفريقَيْنِ ينتهي الأَمرُ فيها على الصِّفتينِ مِنْ صفاتِ الحقِّ ، وهما : صفةُ اللُّطفِ ، وصفةُ القَهرِ ؛ إذِ الكمالُ الأَزليُّ اقتضَىٰ ذلكَ ، فكانَ لكُلِّ وَصفٍ أثرٌ في الكَونِ .

فمِن أثرِ الوَصفَيْنِ ظهَرَ زُمْرَتا الحقِّ والبَاطِلِ .

ولكلٍّ مِنَ الأَمريْنِ طَريقٌ سَلكوهُ ، ومَصيرٌ صاروا إليهِ ، وأَساسٌ بنَوْا عليهِ ، فطَريقُ الأَنبياءِ وأَتباعِهم : السَّيرُ في عالَمِ الغَيبِ ، والإيمانُ بهِ ، والاطِّلاعُ عليهِ ،

---

(١) في الأصل : (قهري) .

فعالَمُ الغَيبِ فيهِ مِنَ القُدَرِ والعَجائبِ ما لا عَينٌ رأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، مِنَ النَّعيمِ المُقيمِ والعَذابِ الأَليمِ ، فالاطِّلاعُ علىٰ كُنهِ ذٰلكَ وغايتِهِ موقوفٌ على الموتِ الطَّبيعيِّ ، فللرُّسلِ وأَتباعِهِم حظٌّ وافرٌ مِنَ اليقينِ ، والعلمِ باللهِ وآياتِهِ وقُدَرِهِ .

ولكلٍّ مِنَ الفريقيْنِ حَظٌّ مِنَ العلمِ يوصلُهُم إلى النَّعيمِ المُقيمِ ، وللآخَرينَ حظٌّ مِنَ العلمِ ينتهي بهِم إلى العَذابِ الأَليمِ .

وللطَّائفتينِ أيضاً كُتُبٌ أَتتْهُم مِنْ ربِّهِم علىٰ لِسانِ الرُّسلِ ، تتضمَّنُ أَخباراً[1] غَيبيَّةً بلُغاتٍ غَيبيَّةٍ ، وللآخَرينَ كُتُبٌ أَنتجَتْها أفكارُهُم وشعَّبتْها لهُم .

والعِلمانِ جميعاً أَدرَكتْها النفوسُ النَّاطقةُ التي أَلْهَمَها اللهُ فجورَها وتقوَاها ، والكلُّ مِنْ عندِ اللهِ ، يُضِلُّ بهِ مَنْ يشاءُ ويَهدي بهِ مَنْ يشاءُ ؛ وفاءً لصِفتَي اللُّطفِ والقَهرِ .

والعقلُ مَناطَ التكاليفِ مِنَ الأَمرِ والنَّهْيِ . . حُجَّةُ اللهِ البَاطنةُ ، كما أنَّ الكتُبَ حُجَّةُ اللهِ الظَّاهِرةُ .

واللهُ تعالىٰ بقُدرتِهِ وسَابقِ مَشيئتِهِ كوَّنَ الإنسانَ مُشتملاً على الصِّفتيْنِ المُتضادَّتيْنِ المُنقَسِمتيْنِ إلى : الشَّرَهيَّةِ والغَضَبيَّةِ ، وهما آيةُ كَرامةِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، بخِلافِ الأَملاكِ ؛ لأنَّ منهُم أَملاكَ الرَّحمةِ ، ومنهم أَملاكَ الغَضبِ ، فرِضوانُ ومالكٌ رَشْحا اللُّطفِ والقَهرِ ، وخازِنا دارِ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ .

والإنسانُ لمكانِ أَهليَّتِهِ لخِلافةِ اللهِ في الأَرضِ نُسِخَ في تكوينِهِ هاتانِ الصِّفتانِ عندَ التسويةِ والتَّخميرِ ، ونُصِبَ فيهِ كُرسِيُّ التَّخلُّقِ بأَخلاقِ اللهِ ، وعُلِّمَ الأسماءَ كُلَّها ، بإطلاعِهِ علىٰ سبيلِ الهُدىٰ والضَّلالِ ، وجُعلَ خازنَ مفاتيحِ دارِ

---

(١) في الأصل : (اختباراً) .

السَّعادةِ ودارِ الشَّقاوةِ ، وظَهَر فيهِ سرُّ « كُنْتُ كَنْزاً لَا أُعْرَفُ »[1] ، وسرُّ « لَا أَجْعَلُ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ لَا أَخْلُقُهُ »[2] .

كذلك اقتضَى الكمالُ الأزليُّ أنْ يكونَ لكمالِ جَلالِهِ بواطنُ ترُدُّ صَدىٰ نِدائِهِ ، وعُبَّادٌ يقيمونَ رسومَ كِبريائِهِ ؛ مِنَ التقلُّبِ علىٰ فُرُشِ التَّذلُّلِ وَفاءً لحقِّ عظَمتِهِ ، ببواطِنَ تكونُ مَحاقِنَ فَضَلاتِ أَوشالِ بحرِ عِلمِهِ ؛ ليظهرَ آثارُ جمالِ كمالِهِ في مرآةِ قلبِ كلِّ حَسيبٍ ، بعلمٍ يُودِعُهُ في كلِّ أَريبٍ ؛ لتمتلئَ بحورُ الوجودِ وتهائِمُ العَوالمِ مِنْ آثارِ قُدرَتِهِ وكِبريائِهِ ، وتكونَ ذرَّاتُ الكائِنات سائرُها عرشَ التَّجلِّي لآثارِ جَلالِهِ مُبِينةً عن كِبريائِهِ وكَمالِهِ .

ولله سبحانَهُ معَ الرُّسلِ أَسرارٌ ومُناجاةٌ ، ومُسامراتٌ ومُناغَاةٌ ، يومئُ إليهم بواسطةِ المَلَكِ تارةً وبغيرِ واسطةِ المَلَكِ تارةً ، ويُوسِّعُ أوعيةَ قلوبِهِم وعرصةَ مُناجاتِهِم ، فيُخبرُهُم بما يزدادونَ عِلماً ، ويُنبِئُهُم بما هو لا علمَ بهِ منهُم ، فيزدادونَ تذلُّلاً وعبوديَّةً ، واضمِحلالاً مِنْ آثارِ الإلٰهيَّةِ ، فيُنشئُهُم نَشْئاً مُستَجِدّاً بما يُهدِي إليهِم مِنْ مَزيدِ العِلمِ .

دَعَانِي عَنِ ٱللَّوْمِ ٱلْمُضِرِّ وَسَاعِدًا ... عَلَىٰ وَامِقِ ٱلنَّجْوَى ٱلْحَبِيبُ دَعَانِي

بِرِيقِ عَنَانِي دُونَ صَحْبِي وَرُفْقَتِي ... شَرِبْتُ وَفِي كَفِّ ٱلْغَرَامِ عِنَانِي[3]

الحَكيمُ الذَّكيُّ ؛ هل للبُرهانِ ها هنا مجالٌ ؟ وهل للتصوُّرِ والتصديقِ ها هنا شُغُلٌ ؟

ارتقِ بوَهمِك إلىٰ سَطحِ[4] فَلَكِ البُروجِ ، وسِرْ بقَدمِ فكرِك في ذٰلك الفَسيحِ ، فانظرْ هل ترىٰ بعدَه وَطناً معموراً ومَنزلاً معهوداً ؟ لا ، بل انتهىٰ فَهمُك وعِلمُك ؛

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٩) .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣/٦٥٨) (١٤٥٨٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، ولفظه : « لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيديَّ كمن قلت له : كن ؛ فكان » .

(٣) البيتان من الطويل .

(٤) في الأصل : (شطح) .

لا تدري أنَّ وراءَ تلك[1] البروجِ مَنازلَ ما عَرَفتَها ولا أدرَكتَها ، فلو كنتَ ذا عقلٍ لقُلتَ : [من الكامل]

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي ٱلْفُؤَادِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ[2]

فهذه آثارٌ انكشَفَتْ مِنْ عظيمِ أمرِ النّبوَّةِ ، وشاعَتْ بكَثرةِ الأَتْباعِ التي زيَّنتِ المُلكَ والملَكوتَ ، والغَيبَ والشَّهادةَ ، ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[3]

ولمَّا قالَ الكفَّارُ : إنَّ محمداً أبترُ . . رَدَّ اللهُ عليهِم بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾[4] ، إشارةً إلىٰ أنَّ العُلماءَ ـ الذينَ هم معادِنُ العِلمِ للظَّاهرِ والباطنِ مِنْ علومِ الشَّريعةِ والحقيقةِ ـ علومُهُم بمثابة شجرةِ طُوبىٰ ، لها في كلِّ قلبٍ شُعاعٌ ، وفي كلِّ عقلٍ اتِّساعٌ ، كلُّ ذٰلكَ مِنْ آثارِ عنانِ الأَنبياءِ ، فلهمُ انغماسٌ في بحرِ الإنابةِ ، وتغييبٌ في تُخومِ الضَّراعةِ ، واضمِحلالٌ تذوبُ منهُ البقايا الوجوديَّةُ ، فينشئُهمُ اللهُ واهِبُ الصُّورِ والوجودِ والعلومِ إنشاءً ، ويُلبِسُهُم ملابسَ علميَّةً محيطةً بشيءٍ مِنْ أسرارِ المُلكِ والملَكوتِ ، ويكونُ ما يُلبِسُهُم مِنْ دَقيقِ حُلَّةِ جِنانِهِ يزهو بهِ اللابِسُ في رِياضِ الأُنسِ ، تزدادُ بها رُوحُهُ روحاً ، وينمو بها نُمُوّاً .

والفلاسفةُ ما لهم رَبٌّ فعَّالٌ[5] قادِرٌ سَميعٌ بصيرٌ عالمٌ مُريدٌ ، بلْ لهُم عَمياءُ مِنْ علَّةِ العِللِ ، محبوسةٌ في حِصنِ العَقلِ الخَلقيِّ ، برؤوسٍ مملوءةٍ[6] مَشحونةٍ بالغُرورِ ، ولا بعثَ ولا نشورَ ، ولا جنَّةَ ولا نارَ ، ولا صِراطَ ولا مِيزانَ ، إلَّا يدُ

---

(١) في الأصل : (ذٰلك) .

(٢) البيت للمتنبي ، وهو بيتٌ مشهورٌ سائر . انظر « ديوانه » (ص ١٣٧) .

(٣) سورة إبراهيم : (٢٤) .

(٤) سورة الكوثر : (٣) .

(٥) في الأصل : (فقال) .

(٦) في الأصل : (مملوءة من) .

فكرٍ مُعلَّقٌ فيها مِيزانُ البرهانِ ، فإذا هبَّتْ عواصِفُ الموتِ الطَّبيعيِّ . . تطيرُ اليدُ والمِيزانُ ، وتطلُعُ طَلائعُ الكَشفِ والعِيانِ ، وينهزمُ جنودُ البُرهانِ ، ويُمزَّقُ دستورُ الحسبانِ ، وبدا لهم مِنَ اللهِ ما لمْ يكونوا يحتسبونَ .

ويبقَى الحَكيمُ صِفرَ اليَديْن ، بلا أَثرٍ ولا عَيْنٍ ، وتُدحَضُ حُجَّتُهُ ، وتتعامَىٰ مَحجَّتُهُ ، ويَفنىٰ تصوُّرُهُ وتصديقُهُ ، ويبطلُ تحقيقُهُ وتدقيقُهُ ، فأولئكَ ضلَّ سعيُهُمْ في الحياةِ الدنيا وهُم يحسبونَ أنَّهُم يحسنونَ صُنعاً ، وعندَ ذٰلكَ يطلُعُ عَلَمُ العِيانِ منشُورَ الأَهدَابِ ، ويُنكَّسُ عَلَمُ البُرهانِ مُغيَّباً تحتَ أَطباقِ الترابِ .

تمَّ الكتابُ بعَونِ المَلِكِ الوَهَّابِ

علىٰ يدِ العَبدِ الدَّاعي لأَيَّامِ دَولةِ صاحبِهِ عَظَّم اللهُ جَلالَ قَدْرِهِ الأَعلىٰ

أبي الفَضْلِ الحَسَنِ بنِ مَحمودٍ المُحَدِّثِ ، عُرِف بـ : عَرَب ماشَاءَه

أَحسَنَ اللهُ عاقبةَ أَمرِه